

وزارة المعارف العمومية

كتاب كليلة ودمنة

تأليف
بيدبا الفيلسوف الهندي

ترجمه الى العربية في صدر الدولة العباسية
عبد الله بن المقفع

فروت وزارة المعارف العمومية بتاريخ ٤ من ربيع الأول
سنة ١٣٢٠ (١٠ من يونيو سنة ١٩٠٢ رقم ٨٩٦)
طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدرسه بالمدارس الأميرية

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٧

فهرست کتاب کلیله و دمنه

صفحة	
۱	خطبة الكتاب
۹	باب مقدمة الكتاب
۴۲	» بعثة برزويه إلى بلاد الهند
۵۸	» عرض الكتاب — ترجمة عبد الله بن المقفع
۷۴	» برزويه — ترجمة بزرجمهر بن البختگان
۹۱	» الأسد والثور — وهو أول الكتاب
۱۵۴	» الفحص عن أمر دمنه
۱۷۷	» الحمامة المطوقة
۲۰۰	» اليوم والغربان
۲۳۲	» القرد والغيلم
۲۴۰	» الناسك وابن عرس
۲۴۴	» الجرد والسنور
۲۵۳	» ابن الملك والطائر فترة
۲۶۲	» الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى
۲۷۴	» ايلاذ وبلاد وايراخت
۲۹۴	» اللبؤة والإسوار والشغبر
۲۹۹	» الناسك والضيف
۳۰۱	» السائح والصائغ
۳۰۸	» ابن الملك وأصحابه
۳۱۷	» الحمامة والتعلب ومالك الحزين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . وَخَصَّهُ دُونَ
الْمَخْلُوقَاتِ بِشَرَفِ التَّكْرِيمِ . وَوَهَبَ لَهُ عَقْلاً يَتَدَبَّرُ بِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِنْ آيَاتٍ ، لِيَسْئَلَ بِإِرْشَادِهِ أَوْضَحَ الْمَحَجَّاتِ ، وَيَمْحُوَ
بُنُورِهِ ظُلُمَاتِ الرَّيْبِ وَالْإِلْبَاسِ ، قَائِلاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ بَيْنَ مَعَالِمِ الْعِرْفَانِ ،
الْمُخْتَصِّ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ فِي غَايَةِ الْبَيَانِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ
رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . (أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ أَتَخَفَ
الْعَوَارِفِ ، وَاللَّطْفَ الْمَعَارِفِ ، عِلْمٌ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى صِدْقِ
الْفِرَاسَةِ ، وَيُسْتَنْبَطُ مِنْهُ حُسْنُ السِّيَاسَةِ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا لَاحَ
عَلَى صَفَحَاتِ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَجَنَّةً ، كِتَابُ "كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ" ،
مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تُرِجِمَتْ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنَ اللُّغَةِ
الْأَنْجَمِيَّةِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، لِأَنَّهُ فِي ضُرُوبِ السِّيَاسَةِ أَكْبَرُ آيَةٍ ،
وَفِي جَوَامِعِ الْحِكْمِ وَالْآدَابِ مِنْ أَبْلَغِ غَايَةٍ . حَرَىُّ بِأَنْ يُكْتَبَ
بَسَوَادِ الْمِسْكِ عَلَى بَيَاضِ الْكَافُورِ ، وَحَقِيقُ بِأَنْ يُعَلَّقَ بِخِيُوطِ

النُّورِ عَلَى مُحُورِ الْحُورِ . وَلِذَلِكَ عَكَفَ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهِ أَصْنَافُ
النَّاسِ ، فَتَرَجَّمُوهُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى لُغَاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ .
ثُمَّ آغْتَالَتْ نُسخَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ أَيْدِي الدُّهُورِ وَالْأَعْصَارِ ، وَطَارَ بِهَا
مِنْ رِيَّاحِ الْحَوَادِثِ إِعْصَارٌ . فَقَيَّضَ اللَّهُ صَاحِبَ الْفُتُوحِ السَّنِيَّةِ ،
وَالْهَمَّةِ الْعَلِيَّةِ الْعُلُويَّةِ ؛ حَامِيَ ذِمَارِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ ،
مَادَّ سُرَادِقِ الْعَدْلِ عَلَى كَافَّةِ الْأَنْامِ ؛ قَاهِرَ الطُّغَاةِ وَالْجَبَابِرَةِ ،
وَمُرْغِمَ أَنْوْفِ الْمُتَمَرِّدَةِ الْفَاجِرَةِ ؛ أَمِيرَ أُمَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَسَيْفَ اللَّهِ الْمَسْلُوكِ عَلَى أَعْنَاقِ الْمُعْتَدِينَ ؛ الْحَاجَّ مُحَمَّدَ عَلَى بَاشَا ،
لَا زَالَتْ بِذُبَابِ سَيْفِهِ مُهْجُ الْعِدَا تَتَلَاشَى ؛ وَلَا بَرَحَتْ أَلْوِيَّتُهُ
بِالنَّصْرِ مَنْشُورَةً ، وَعَسَاكِرُهُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ مُظْفَرَةٌ مَنْصُورَةٌ ؛
فَاعْمَلْ فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءَ ، وَسَلُوكِ الْمَحَجَّةِ الْوَاضِحَةِ الْبَيْضَاءِ ،
كُلًّا مِنْ حَدِّ السَّيْفِ وَسِنَانِ الْقَلَمِ ، حَتَّى بَحَرَ بِمُتُونِ الصَّفَائِحِ
وَالصَّحَائِفِ يَنَابِيعَ النَّصْرِ وَالْحِكْمِ ؛ وَتَصَدَّى لِإِخْيَاءِ رَمِيمِ
الْمَكْرَمَاتِ الدَّوَارِسِ ، وَانْتَدَبَ لِإِعَادَةِ دَارِسِ الْعُلُومِ بِإِنْشَاءِ
الْمَدَارِسِ ؛ جَامِعًا بَيْنَ دَانِي الشَّرَفِ وَقَاصِيهِ ، حَقِيقًا بِمَا
قُلْتُ فِيهِ :

مَاذَا أَقُولُ وَكَيْفَ الْقَوْلُ فِي مَلِكٍ قَدْ فَاقَ كُلَّ مُلُوكِ الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ
 مُحَمَّدٌ أَنْتَ إِنْ أَحْمَدَكَ مُبْتَهَلًا وَإِنْ طَلَبْتُ لَكَ الْعَلِيَّا فَأَنْتَ عَلِي
 قَدْ أَعْجَزَ الْبُلْغَاءَ اللُّسْنَ مَنْقَبَةً ^(١) عَنْهَا رَوَّايَيْنِ صَدَقَ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ
 وَمَا تَقَرُّ سَيْوْفٌ فِي مَمَالِكِهَا حَتَّى تَقْلُقَ دَهْرًا قَبْلُ فِي الْقُلَلِ
 مِثْلُ الْمَلِكِ بَغَى أَمْرًا فَقَرَبَهُ طُولُ الرِّمَاحِ وَأَيْدِي الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ
 وَعَزَمَةً بَعَثَتْهَا هَمَّةٌ زُحَلٌ ^(٢) مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ الثَّرْبِ مِنْ زُحَلِ
 عَلَى الْفُرَاتِ أَعَاصِيرٌ ^(٣) وَفِي حَلَبٍ تَوْحُشٌ لِمُلَقَى النَّصْرِ مُقْتَبِلِ
 تَتْلُو أَسِنَّةُ الْكُتُبِ الَّتِي نَفَذَتْ ^(٤) وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبَدًا لَا مِنْ الرُّسُلِ
 يَلْقَى الْمُلُوكَ فَلَا يَلْقَى سِوَى جُزُرٍ ^(٥) وَمَا أَعَدُّوا فَلَا يَلْقَى سِوَى نَفَلٍ ^(٥)
 الْفَاعِلُ الْفِعْلَ لَمْ يُفْعَلْ لَشِدَّتِهِ وَالْقَائِلُ الْقَوْلَ لَمْ يُتْرَكْ وَلَمْ يُقَلْ ^(٦)
 وَالْبَاعِثُ الْجَحِيشَ قَدْ غَالَتْ عِجَاجَتُهُ ^(٧) ضَوْءَ النَّهَارِ فَصَارَ الظُّهْرُ كَالطُّفْلِ ^(٨)
 الْجَوْ أَضْيَقُ مَا لَا قَاهُ سَاطِعُهَا وَمُقَلَّةُ الشَّمْسِ فِيهِ أَحْيَرُ الْمُقَلِّ

(١) أى الفصحاء لسن كفرج فهو لسن وألس . (٢) زحل مبتدأ وخبره بمكان وبالجملة
 صفة لهمة والمعنى همة دونها زحل . (٣) فى العراق فتن لا يحمد ناراها سوى جيشك الجرار
 وسيفك البشار وفى حلب همجية لا يشلم حدها غير مستأنف ماضى عزمك وسنان رمحك .
 (٤) الجزر : جمع جرور وهو البعير . (٥) النفل : الغنيمة . (٦) غال : كاغتال أهلك ، والمراد
 حجب . (٧) العجاجة : الغبار . (٨) الطفل بالنحر يك : دنو الشمس للغروب .

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهِيَ نَازِرَةٌ قَا تُقَابِلُهُ إِلَّا عَلَى وَجَلٍ
قَدْ عَرَضَ السَّيْفَ دُونَ النَّازِلَاتِ بِهِ وَظَاهَرَ الْحَزْمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغَيْلِ
وَوَكَّلَ الطَّغْنَ بِالْأَسْرَارِ فَانْكَشَفَتْ لَهُ ضَمَائِرُ أَهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
هُوَ الشُّجَاعُ يَعُدُّ الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بَحْلِ
يَعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرَ مُفْتَخِرٍ وَقَدْ أَعَدَّ إِلَيْهِ غَيْرَ مُحْتَفِلٍ
وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ الدَّهْرُ بُغْيَتَهُ وَلَا تُحْصَنُ دِرْعُ مُهْجَةِ الْبَطْلِ
إِذَا خَلَعَتْ عَلَى عَرِضٍ لَهُ حُلَلًا وَجَدْتُهَا مِنْهُ فِي أَهْبَى مِنَ الْحَلِّ
يَذِي الْغَبَاوَةَ مِنْ إِتْسَادِهَا ضَرَّرُ كَمَا تَضُرُّ رِيَّاحُ الْوَرْدِ بِالْجُعَلِ
لَقَدْ رَأَتْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْهُ مَالِهَا وَجَرَّبَتْ خَيْرَ سَيْفٍ خَيْرَةَ الدُّوَلِ
فَمَا تُكْشِفُكَ الْأَعْدَاءُ عَنْ مَلِكٍ مِنْ الْحُرُوبِ وَلَا الْآرَاءُ عَنْ زَلَلٍ
وَكَمْ رِجَالٍ بِلَا أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضًا بِلَا رَجُلٍ
مَا زَالَ طَرْفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ ^(١) حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ الثَّمَلِ
يَأْمَنُ يَسِيرُ وَحُكْمُ النَّازِرِينَ لَهُ فِيمَا يَرَاهُ وَحُكْمُ الْقَلْبِ فِي الْجَذَلِ
إِنَّ السَّعَادَةَ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ وَفَقْتُ مَرْتَحِلًا أَوْ غَيْرَ مَرْتَحِلِ

أَجْرَ الْحَيَادِ عَلَى مَا كُنْتَ مُجْرِيَهَا وَخُذْ بِنَفْسِكَ فِي أَخْلَاقِكَ الْأَوَّلِ
يَنْظُرُونَ مِنْ مُقَلِّ أَدْمَى أَجَّتْهَا^(١) قَرَعُ الْفَوَارِسِ بِالْعَسَالَةِ الذُّبُلِ
فَلَا هَجَمَتْ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ وَلَا وَصَلَتْ بِهَا إِلَّا إِلَى أَمَلٍ^(٢)

وَمِنْ جُمْلَةِ مَا جَعَلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا زِينَةً وَعِيدًا ، وَلِأَرْبَابِ
الْحُرُوبِ وَالْمَحَارِبِ مَوْسِمًا سَعِيدًا ، دَارُ الطَّبَاعَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا
بِبَلَاقٍ : إِذْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهَا فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ . لِأَنَّ
الْكَتُبَ تُطْبَعُ فِيهَا مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ ، بِكُلِّ لُغَةٍ وَبِكُلِّ رَسْمٍ مَعَ
تَلَوْنِ الْمِدَادِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ . فَصَادَفَ سَعْدُهُ الْمُقْتَرِنُ مِنَ اللَّهِ
بِالْمِنَّةِ ، وَجُودَ نُسْخَةٍ مَطْبُوعَةٍ بِالْعَرَبِيِّ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْعَرَبِ مِنْ
كِتَابِ كُلَيْلَةِ وَدَمْنَةَ . وَهِيَ الَّتِي تَرَجَمَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ
الْكَاتِبُ الْمَشْهُورُ ، فِي أَيَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ .
وَكَانَتْ تَرَجُمْتُهَا مِنَ اللُّغَةِ الْبَهْلَوِيَّةِ^(٣) إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَاتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى
صَحَّةِ تِلْكَ النُّسْخَةِ : لِشُهْرَةِ مُصَحِّحِهَا بِالْأَلْمَعِيَّةِ . إِذْ قَالَ

(١) أجمة : جمع حجاج ومن معانيه عظم يثبت عليه الحاجب وهو المراد هنا . (٢) هذه القصيدة

بجميعها ما عدا الأبيات الثلاثة الأولى مأخوذة من قصيدة لأبي الطيب في مدح سيف الدولة .

(٣) الفارسية القديمة .

فِي دِيْبَاجَتِهَا : ”اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةِ نُسخٍ شَتَّى مُتَّفِقَةٌ
السِّيَاقِ وَالْإِنْشِطَامِ ، مُخْتَلِفَةُ الْعِبَارَةِ وَالْأَلْفَاظِ . وَكَانَ مِنْ عَدَدِهَا
نُسخَةٌ قَدِيمَةُ الْعَهْدِ ، عَجِيبَةُ الْخَطِّ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِيهَا مَعَ
جَوَدَتِهَا بَعْضُ الْغَلَطَاتِ . وَقَدْ ذَهَبَ مِنْهَا أَيْضًا بِتَضَرُّيفِ
الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ ، أَوْرَاقٌ جُعِلَتْ عِوَضًا عَنْهَا أَوْرَاقٌ غَيْرُهَا
جَدِيدَةُ الْعَهْدِ ، رَدِيئَةُ الْخَطِّ لَيْسَتْ عَلَى هَيْئَةِ الْبَاقِي . وَالنُّسخَةُ
الْمَذْكُورَةُ هِيَ الَّتِي أَخْتَرْتُهَا حَتَّى تَكُونَ هِيَ الْأَصْلَ الْمُعْتَمَدَ عَلَيْهِ
عِنْدَ طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ . غَيْرَ أَنِّي كُتِمَا عَثَرْتُ فِيهَا عَلَى غَلْطَةٍ ،
أَوْ مَا أَشْتَبَهَ عَلَى الْقَارِئِ فَهَمُّهُ ، قَابَلْتُهَا بِمَا عِنْدِي مِنَ النُّسخِ
غَيْرِهَا ، وَاثْبَتْتُ مَا رَأَيْتُ لَفْظُهُ أَفْصَحَ ، وَمَعْنَاهُ أَوْضَحَ “ انْتَهَى
كَلَامُهُ . ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ النُّسخَةَ الْمَطْبُوعَةَ عُرِضَتْ هِيَ وَغَيْرُهَا عَلَى
شَيْخِ مَشَايِخِ الْإِسْلَامِ ، وَقُدُورَةِ عَمَدِ الْأَنَامِ ، مَوْلَانَا الشَّيْخِ حَسَنِ
الْعَطَّارِ أَدَامَ اللَّهُ عُمُومَ فَضْلِهِ مَا دَامَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . فَقَالَ : يَصِحُّ
أَلَّا يُوجَدَ لَهَا فِي الصُّحَّةِ مِثَالٌ : لِشُهْرَةِ مُصَحِّحِهَا بِالضَّبْطِ
وَسَعَةِ الْإِطْلَاعِ عَلَى الْأَقْوَالِ . وَحِينَئِذٍ اتَّفَقَتْ الْآرَاءُ عَلَى أَنَّ

يَكُونُ الْمُعَوَّلُ فِي طَبِيعِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عَلَيْهَا ، وَمُنْتَهَى اخْتِلَافِ
النُّسخِ وَوِفَاقِهَا إِلَيْهَا . فَبَادَرْتُ إِشَارَةَ الْأَمْرِ بِصَرِيحِ الْإِمْتِنَالِ ،
وَسَرَّخْتُ فِي رِيَاضِ تِلْكَ النُّسخِ سَائِمَ الطَّرْفِ وَالْبَالِ .
فَوَجَدْتُ الْمَطْبُوعَةَ أَفْصَحَهَا عِبَارَةً ، وَأَوْضَحَهَا إِشَارَةً ، وَأَصَحَّهَا
مَعْنًى ، وَأَحْكَمَهَا مَبْنًى ؛ غَيْرَ أَنَّ فِيهَا لُفِظَاتٍ حَادَثَ عَنْ
سَنَنِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَعْضُ مَعَانٍ مَالَتْ بِهِ الرِّكَازَةُ عَنْ أَنْ يُفْهَمَ
بِطَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ . فَقَرَيْتُ أَضْيَافَ الْمَعَانِي بِأَيِّ لَفِظٍ تَسْتَهِيهِ .
وَصَاحِبُ الْبَيْتِ أَذْرَى بِالَّذِي فِيهِ . خُصُوصًا مَعَ وُجُودِ الْمَوَادِّ
الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ وُجُوهِ الصُّحَّةِ نِقَابَ الْإِشْتِبَاهِ . وَمَنْ كَانَ
ذَا مُكْنَةً فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ؛ مُسْتَعِينًا عَلَى ذَلِكَ بِمَا لَدَيَّ
مِنَ النُّسخِ الَّتِي بِحِطِّ الْقَلَمِ ، مُعَوَّلًا عَلَى عِنَايَةِ مَنْ عِلْمَ الْإِنْسَانِ
مَا لَمْ يَعْلَمْ . حَتَّى أَتَمَرَّتْ بِإِشَاعَةِ ذَلِكَ الْكِتَابِ مَعَ غَايَةِ
التَّحْرِيرِ ، حَدِيقَةُ تِلْكَ الْمَطْبُوعَةِ الْمَشْرِقَةِ بِطَوَالِجِ التَّنْوِيرِ ؛ عَلَى
يَدِ مُصَحِّحٍ مَا بَهَا مِنَ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ، الْمُسْتَعْمِدِّ مِنْ مَوْلَاهُ

الْإِعَانَةَ وَالْمَعِيَّةَ ، رَاجِي مَنْ لِلْفَضْلِ يُؤْتِي ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّفِيِّ ،
 غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ فِي الدَّارَيْنِ عُيُوبَهُ ، مَعَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ .
 بِحُرْمَةِ طَهْ وَيَس . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
 الْكَرَامِ .

بَابُ مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ

قَدَّمَهَا بَهْنُودُ بْنُ سَحْوَانَ وَيَعْرِفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ .
 ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ بِيَدَبَا الْفِيلَسُوفُ الْهِنْدِيُّ
 رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ ^(١) لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ كَلِيلَةً وَدِمْنَةً ؛
 وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ صِيَانَةً لِفَرْضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِّ ،
 وَضَنَّا بِمَا ضَمَّنَتْهُ عَنِ الطَّغَامِ ؛ وَتَنْزِيهَاً لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا ، وَمَحَاسِنِهَا
 وَعُيُونِهَا ؛ إِذْ هِيَ لِلْفِيلَسُوفِ مَنُذُوحَةٌ ، وَلِلْحَاطِرِ مَفْتُوحَةٌ ؛
 وَلِمُحِبِّهَا تَثْقِيفٌ ، وَلِطَالِبِهَا تَشْرِيفٌ . وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ
 أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانُ بْنُ قُبَادَ بْنِ فَيْرُوزَ مَلِكُ الْفُرْسِ
 بَرْزَوِيَةَ رَأْسَ الْأَطْبَاءِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتَابِ كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ ؛
 وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوِيَةَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ ؛ حَتَّى حَضَرَ
 إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرًّا مِنْ خِزَانَةِ الْمَلِكِ لَيْلًا ، مَعَ
 مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ . وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَعْثَةِ
 بَرْزَوِيَةَ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ ؛ وَذَكَرَ فِيهَا

(١) البراهمة : قوم لا يجوزون على الله بمئة الرسل .

مَا يَلْزَمُ مُطَالَعَهُ مِنْ إِثْقَانِ قِرَاءَتِهِ وَالْقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى
بَاطِنِ كَلَامِهِ ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ .
وَذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرَزَوِيهِ وَقِرَاءَةَ الْكِتَابِ جَهْرًا . وَقَدْ ذَكَرَ
السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَرَزُ جَمْهَرُ بَابًا مُفْرَدًا يُسَمَّى بَابَ
بَرَزَوِيهِ الْمُتَطَبِّبِ ، وَذَكَرَ فِيهِ شَأْنَ بَرَزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآنَ
مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَلَغَ التَّأْدِيبَ ، وَأَحَبَّ الْحِكْمَةَ وَاعْتَبَرَ فِي أَقْسَامِهَا .
وَجَعَلَهُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ .

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ : كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ
بَيْدَبَا الْفِيلَسُوفُ لِدَبْشَدِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةِ ، أَنَّ
الْإِسْكَندَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرَّومِيِّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا
بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ ، سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ ،
فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مَنْ نَازَعَهُ وَيُؤَاقِعُ مَنْ وَاقَعَهُ ، وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ
مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الْأُولَى ، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَ

مِنْ نَاوَاهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ ، فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ ^(١) وَتَمَزَّقُوا
 حَزَائِقَ ^(٢) . فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ ، فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ
 الْهِنْدِ لِيَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالْدُخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ . وَكَانَ عَلَى
 الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ ، يُقَالُ
 لَهُ فُورٌ . فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ ،
 وَاسْتَعَدَّ لِمُجَادَبَتِهِ ، وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ ، وَجَدَّ فِي التَّالِبِ عَلَيْهِ ^(٣) ،
 وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مَدَّةٍ مِنَ الْفِيلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ ، وَالسَّبَاعِ
 الْمُضَرَّاءِ ^{الْحَصَرِ} بِالْوُثُوبِ ، مَعَ الْخَيُْولِ الْمُسْرَجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِيعِ ،
 وَالْحِرَابِ اللَّوَامِيعِ ^(٤) . فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ
 وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ
 بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِيمِ ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ
 مِنْ تَقْصِيرِ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَلَ الْمُبَارَزَةَ . وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا
 ذَا حَيْلٍ وَمَكَايِدَ ، مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ ، فَرَأَى إِعْمَالَ الْحَيْلَةِ
 وَالتَّمْهَلِ ، وَآخَضَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ ، وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لاسْتِنْبَاطِ

(١) طرائق : أى فرقا . (٢) حزائق : أى قطعا . (٣) التالب : التجمع . (٤) جمع : حربة .

الْحِيلَةَ وَالتَّدْبِيرَ لِأَمْرِهِ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ .
 فَاسْتَدْعَى بِالْمُنَجِّمِينَ، وَأَمَرَهُمْ بِالِاخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ
 فِيهِ سَعَادَةٌ مُحَارَبَةً مَلِكَ الْهِنْدِ وَالنُّصْرَةَ عَلَيْهِ . فَاسْتَغْلَوْا بِذَلِكَ .
 وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ إِلَّا أَخَذَ الصَّنَاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَائِعِهَا
 بِالْحَذَقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ . فَأَنْجَحَتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ
 إِلَى الصَّنَاعِ الَّذِينَ مَعَهُ فِي أَنْ يَصْنَعُوا خَيْلًا مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةٍ ،
 عَلَيْهَا تَمَائِيلُ مِنَ الرُّجَالِ ، عَلَى بَكَرٍ تَجْرِي ، إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتْ
 سِرَاعًا . وَأَمَرَ إِذَا فَرَّغُوا مِنْهَا أَنْ تُخَشَى أَجْوَافُهَا بِالنَّفْطِ وَالْكِبْرِيتِ ،
 وَتُلْبَسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ . وَوَقْتُ مَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ
 تُضْرَمُ فِيهَا النَّيرَانُ . فَإِنَّ الْفِيلَةَ إِذَا لَقَتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ
 وَهِيَ حَامِيَةٌ، وَلَّتْ هَارِبَةً . وَأَوْعَزَ إِلَى الصَّنَاعِ بِالتَّشْمِيرِ وَالْإِنْكَاشِ^(١)
 وَالْفَرَاغِ مِنْهَا . فَخَذُوا فِي ذَلِكَ وَبَعَجُوا . وَقَرُبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيَارِ
 الْمُنَجِّمِينَ . فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ
 طَاعَتِهِ وَالْإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ . فَأَجَابَ جَوَابَ مُصْرَعٍ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، مُقِيمٍ

عَلَى مُحَارَبَتِهِ . فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ ،
وَقَدَّمَ فُورَ الْفِيلَةِ أَمَامَهُ ، وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ الْحَيْلَ وَتَمَائِيلَ
الْفُرْسَانِ ؛ فَأَقْبَلَتِ الْفِيلَةُ نَحْوَهَا ، وَلَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا . فَلَمَّا
أَحْسَتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا ، وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا ،
وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً ، لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا
وَطِئَتْهُ . وَتَقَطَّعَ فُورٌ وَجْمَعُهُ ^(١) ، وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَندَرِ ؛
وَأَتَّخَذُوا فِيهِمْ الْجَرَاحَ ^(٢) . وَصَاحَ الْإِسْكَندَرُ : يَا مَلِكَ الْهِنْدِ آبِرْزُ إِلَيْنَا ،
وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ ، وَلَا تَحْمِلْهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ
الْمُرُوءَةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ بَعْدَتِهِ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتْلِفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُجْبِحَةِ ،
بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ . فَأَبْرَزَ إِلَى وَدَعِ الْجُنْدَ ، فَأَيْنَا
قَهَرَ صَاحِبَهُ فَهُوَ الْأَسْعَدُ . فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ
ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ لِمِلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ ؛ وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً .
فَبَرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَندَرُ فَتَجَاوَلَا عَلَى ظَهْرَيَّ فَرَسَيْهِمَا سَاعَتٍ مِنْ

النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً ؛ وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ .
فَلَمَّا أَغْيَا الإسْكَندَرُ أَمْرَهُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً أَوْقَعَ
ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَنِيعَةً عَظِيمَةً ارْتَبَجَتْ لَهَا الْأَرْضُ
وَالْعَسَاكِرُ ؛ فَالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَ مَا سَمِعَ الزَّعَقَةَ ، وَظَنَّهَا مَكِيدَةً
فِي عَسْكَرِهِ ؛ فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سَرِجِهِ ، وَتَبِعَهُ
بِأُخْرَى ؛ فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ . فَلَمَّا رَأَتْ الْهِنْدُ مَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَمَا
صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ ؛ حَمَلُوا عَلَى الإسْكَندَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحْبَبُوا مَعَهُ
الْمَوْتَ . فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ ، وَمَنَحَهُ اللَّهُ أَكْثَافَهُمْ ؛
فَاسْتَوَلَى عَلَى بِلَادِهِمْ ، وَمَلَكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ . وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ
حَتَّى اسْتَوْثَقَ^(١) مِمَّا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتَّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ؛ ثُمَّ أَنْصَرَفَ
عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ . وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ
لَهُ . فَلَمَّا بَعُدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ ، تَغَيَّرَتِ الْهِنْدُ عَمَّا
كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَقَالُوا لَيْسَ

(١) استوثق هنا : أخذ الثقة مما أراد والذي في صفحة ٥ ا استوسق الأمر من الوسق .

يُصْلَحُ لِلْسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ أَنْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا
لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بِيوتِهِمْ . فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَدِلُّهُمْ
وَيَسْتَقِلُّهُمْ . وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ ،
فَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ ، وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ
خَلَفَهُ عَلَيْهِمُ الْإِسْكَندَرُ . فَلَمَّا اسْتَوْسَقَ لَهُ الْأَمْرُ ، وَاسْتَقَرَّ لَهُ
الْمُلْكُ ، طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ ، وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنْ
الْمُلُوكِ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا . فَهَابَتْهُ الرِّعْيَةُ .
فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ ، عَبَثَ بِالرِّعْيَةِ وَاسْتَضَعَرَ
أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ السَّيْرَةَ فِيهِمْ . وَكَانَ لَا تَرْتَقِي حَالَهُ إِلَّا أَرْدَادَ عُتُوًّا .
فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ . وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيَلَسُوفٌ
مِنْ الْبَرَاهِمَةِ ، فَاضِلٌ حَكِيمٌ ، يُعْرِفُ بِفَضْلِهِ ، وَيَرْجِعُ فِي الْأُمُورِ
إِلَى قَوْلِهِ ، يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ
لِلرِّعْيَةِ ، فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ ، وَرَدَّهِ إِلَى
الْعَدَبِ وَالْإِنْصَافِ ، فَجَمَعَ لِدَلِكِ تَلَامِيذَهُ ، وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ
مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرَكُمْ فِيهِ ؟ اِعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمِ

وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلُزُومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السَّيْرِ
 وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ ، وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا لِمِثْلِ هَذِهِ
 الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ ، إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَلُزُومِ
 الْعَدْلِ . وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمَ وَقُوعُ الْمَكْرُوهِ بِنَا ، وَبُلُوغُ
 الْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا ، إِذْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ ، وَفِي
 الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ . وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ .
 وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ وَقُبْحِ
 الطَّرِيقَةِ . وَلَا يُمَكِّنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ السِّتْنَةِ . وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنَّ
 نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَهَيِّأْ لَنَا مُعَانَدَتَهُ . وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِمُخَالَفَتِهِ
 وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارِنَا . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوَرَةَ
 السَّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ الْعَيْشِ
 لَغَدْرٌ بِالنَّفْسِ . وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لِحَقِيقٌ أَنَّ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَضْرُوفَةً
 إِلَى مَا يُحْصَنُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ الْمَحْذُورِ ،
 وَيَدْفَعُ الْخُوفَ لِمَنْتَجِلَابِ الْحُبُوبِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ
 فَيْلَسُوفًا كَتَبَ لِتَلْمِيزِهِ يَقُولُ : إِنَّ مُجَاوِرَ رِجَالِ السُّوءِ وَمُصَاحِبَهُمْ

كَرَاكِبِ الْبَحْرِ : إِنْ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمَخَافِ . فَإِذَا
هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرَ الْمَخُوفَاتِ ، عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ
الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا . لِأَنَّ الْحَيَوَانَ الْبَيْمِيَّةَ ^(١) قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا
بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ : وَذَلِكَ أَنَّنَا لَمْ نَرَهَا
تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكْتُهَا . وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ
مُهْلِكٍ لَهَا ، مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِبَتْ فِيهَا - شَحًّا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً
لَهَا - إِلَى الثُّفُورِ وَالتَّبَاعِدِ عَنْهُ . وَقَدْ جَمَعْتُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ : لِأَنَّكُمْ
أُسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي ، وَبِكُمْ أُعْتَصِدُ ، وَعَلَيْكُمْ
أَعْتَمِدُ . فَإِنَّ الْوَحِيدَ فِي نَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ
وَلَا نَاصِرَ لَهُ . عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْحَيْلِ
وَالْجُنُودِ . وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قُنْبَرَةً ^(٢) اتَّخَذَتْ أُذْحِيَّةً ^(٣) وَبَاضَتْ فِيهَا
عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ ، وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ . فَمَرَّ ذَاتَ
يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عَشَّ الْقُنْبَرَةِ ، وَهَشَمَ بَيْضَهَا
وَقَتَلَ فِرَاحَهَا . فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَ مَا هَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنْ

(١) الحيوان : الحياة . قال تعالى : وَإِنْ الدَّارِ الْآخِرَةُ لَهِيَ الْخَيْرُ لِمَنْ كَانَ يُعْلَمُونَ .

(٢) الأفعى فيها قُبْرَةٌ وهى طائر . (٣) محلا تبيض فيه .

الْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ . فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِئَةً ، ثُمَّ قَالَتْ :
 أَيُّهَا الْمَلِكُ لِمَ هَشَمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاحِي ، وَأَنَا فِي جِوَارِكَ ؟
 أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَاحْتِقَارًا لِمَشْنِي ؟ قَالَ :
 هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ . فَتَرَكْتُهُ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ ،
 فَشَكْتُ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . فَقُلْنَ لَهَا وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ
 وَنَحْنُ طُيُورٌ ؟ فَقَالَتْ لِلْعَقَاقِ^(١) وَالْغُرَبَانِ : أَحَبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَصْرُنَ
 مَعِيَ إِلَيْهِ فَتَفْقَأَنَّ عَيْنَيْهِ ، فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى .
 فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ ، وَذَهَبْنَ إِلَى الْفِيلِ ، وَلَمْ يَزَلْنَ يَنْقُرْنَ عَيْنَيْهِ
 حَتَّى ذَهَبْنَ بِهِمَا . وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ
 إِلَّا مَا يَلْقُمُهُ مِنْ مَوْضِعِهِ . فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ ، جَاءَتْ إِلَى
 غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ كَثِيرَةٌ ، فَشَكْتُ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . قَالَتْ
 الضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ ؟ وَآيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ ؟ قَالَتْ :
 أَحَبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَصْرُنَ مَعِيَ إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ ، فَتَنْقِضَنَّ فِيهَا ،
 وَتَضْجِجَنَّ . فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ يَشُكَّ فِي الْمَاءِ فَيَهْوِي

(١) جمع عَقَق وهو طير أبيض وسواد وبياض . (٢) أرض منخفضة .

فِيهَا . فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ ، وَاجْتَمَعْنَ فِي الْهَآوِيَةِ ، فَسَمِعَ الْفِيلُ
نَقِيقَ الضَّفَادِعِ ، وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ
فِي الْوَهْدَةِ ، فَارْتَطَمَ فِيهَا . وَجَاءَتِ الْقُبْرَةُ تُرْفِرُ عَلَى رَأْسِهِ ،
وَقَالَتْ : أَيُّهَا الطَّاغِي الْمَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ الْمُحْتَقِرُ لِأَمْرِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ
عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ ؟
فَلْيُشْرِكْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ . قَالُوا
بِاجْمَعِهِمْ : أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْفَاضِلُ ، وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ ، أَنْتَ
الْمُقَدَّمُ فِينَا ، وَالْفَاضِلُ عَلَيْنَا ، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ
رَأْيِكَ ، وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ السَّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ
مَعَ التَّمْسَاحِ تَغْرِيرٌ ، وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ .
وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السَّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيَجْرِبَهُ جَانٍ عَلَى
نَفْسِهِ ، فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ . وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَايَتِهِ ،
لَمْ يَأْمَنْ مِنْ وَثْبَتِهِ . وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْرِعْهُ النَّوَائِبُ ، وَلَمْ تُودِّبْهُ

التَّجَارِبُ . وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَلَا عَلَى أَنْفُسِنَا سَطَوَتَهُ وَإِنَّا نَخَافُ
عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ^(١) إِذَا لَقِيْتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ . فَقَالَ
الْحَكِيمُ بَيْدَبَا : لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ ، لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ
الْحَازِمَ لَا يَدْعُ أَنْ يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ .
وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ .
وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ . وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ ،
وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ . غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ
رَأْيًا وَعَزَمْتُ عَزْمًا ، وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَمَجَاوِبَتِي إِيَّاهُ
فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ نُخْرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ . وَصَرَفَهُمْ
وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ
ذَلِكَ الْوَقْتُ اتَّقَى عَلَيْهِ مُسَوِّحَهُ^(٢) وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ ، وَقَصَدَ بَابَ
الْمَلِكِ ، وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ،

(١) سَطَوَتُهُ وَاعْتِدَاتُهُ . (٢) جَمْعُ مِسْحٍ وَهُوَ الْكِسَاءُ مِنَ الشَّعْرِ .

وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ . فَدَخَلَ
 الْآذِنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ ، وَقَالَ : بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ
 بَيْدَبَا ، ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً . فَأَذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ وَوَقَفَ
 بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَفَرَ وَسَجَدَ لَهُ وَاسْتَوَى قَائِمًا وَسَكَتَ . وَفَكَرَ دَبْشَلِيمُ
 فِي سُكُوتِهِ ، وَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ : إِمَّا
 لِالْتِمَاسِ شَيْءٍ مِنَّا يُضْلِحُ بِهِ حَالَهُ ، وَإِمَّا لِأَمْرِ لِحَقِّهِ فَلَمْ تَكُنْ
 لَهُ بِهِ طَاقَةً . ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ
 لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ : لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ
 بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ . وَقَدْ وَجَدْتُ
 الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ الْفَيْنِ مُتَالِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ : مَتَى فَقَدَ أَحَدُهُمَا
 لَمْ يَوْجَدْ الْآخَرَ ، كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطْبُ صَاحِبُهُ
 نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسَفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ الْحُكَمَاءِ
 وَيُكْرِهَهُمْ ، وَيَعْرِفَ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَيَصْنَعُهُمْ عَنْ

(١) الحاجب . (٢) عظم والكفر من معانيه تعظيم الفارسي للملك والتكفير من معانيه

لإيماء الذي برأسه .

المَوَاقِفِ الْوَاهِنَةِ ، وَيُنَزِّهَهُم عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذَلَةِ كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ
عَقْلُهُ ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ ، وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ ، وَعُدَّ مِنْ
الْجُهَالِ . ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا ، وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ
يَا بَيْدَبَا سَاكِئًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ ، وَلَا تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ ، فَقُلْتُ :
إِنَّ الَّذِي أَسْكَنَهُ هَيْبَةُ سَاوَرْتَهُ أَوْ حَيْرَةُ أَدْرَكَتَهُ ، وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ
ذَلِكَ مِنْ طُولِ وَقُوفِكَ ، وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى
غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرِ حَرَكَةٍ لِدَلِّكَ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ .
فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ ! فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَمِيمِ نَالِهِ ، كُنْتُ
أَوَّلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى
مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا
أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ
الْمُلْكِ ، وَمِمَّا لَا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَنْقَادُوا
إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عُقُوبَتِهِ ، عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى
إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ
الرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيهِ أَمْنِي أَصْرِفُ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ ، نَظَرْتُ مَا هُوَ ،

فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ ، وَالْجُهَّالَ يُشِيرُونَ بِضَدِّهِ .
وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ . فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا ذَلِكَ مِنَ
الْمَلِكِ أَفْرَخَ رَوْعَهُ ^(١) ، وَسَرَى عَنْهُ مَا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ
وَكَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ ، ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : أَوَّلَ مَا أَقُولُ أَسْأَلُ
اللَّهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الْأَبَدِ ، وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ : لِأَنَّ
الْمَلِكَ قَدْ مَنَحَنِي فِي مَقَامِي هَذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ
مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ ، مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرَحًا بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْهُ ،
وَقَالَ : قَدْ عَطَفَ الْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . وَالْأَمْرُ الَّذِي
دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، وَحَمَلَنِي عَلَى الْخَطَاةِ لِكَلَامِهِ ،
وَالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، نَصِيحَةٌ اخْتَصَصْتُهَا دُونَ غَيْرِهِ . وَسَيَعْلَمُ
مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَقْصُرْ عَنْ غَايَةِ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى
الْحُكَمَاءِ . فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ

(١) يُقَالُ : أَفْرَخَ رَوْعَهُ وَرُوعَهُ . أَيْ ذَهَبَ فَرْعُهُ وَخَوْفُهُ . وَقَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ إِنَّمَا هُوَ :

أَفْرَخَ رَوْعَهُ وَمَعْنَاهُ نَجَرَ الرُّوعَ وَالْفَرْعَ مِنْ رَوْعِهِ وَهُوَ الْقَلْبُ . (٢) زَالَ عَنْهُ .

وَمَا يَرَاهُ ، وَإِنْ هُوَ الْقَاهُ ، فَقَدْ بَلَغْتَ مَا يَلْزُمُنِي وَنَحَرَجْتُ مِنْ
لَوْحٍ يَلْحَقُنِي . قَالَ الْمَلِكُ يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ كَيْفَ شِئْتَ : فَإِنِّي مُصْغٍ
إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ ، وَسَامِعٌ مِنْكَ ، حَتَّى أُسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ
إِلَى آخِرِهِ ، وَأَجَازِيكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ . قَالَ بَيْدَبَا :
إِنِّي وَجَدْتُ الْأُمُورَ الَّتِي أَخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ
الْحَيَوَانَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ ، وَهِيَ جُمَاعٌ^(١) مَا فِي الْعَالَمِ ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ
وَالْعِفَّةُ وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ . وَالْعِلْمُ وَالْأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ
الْحِكْمَةِ . وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ . وَالْحَيَاءُ
وَالكِرَمُ وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ . وَالصَّدْقُ
وَالْإِحْسَانُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ .
وَهَذِهِ هِيَ الْمَحَاسِنُ ، وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِي . فَتَى كَمَلَتْ هَذِهِ
فِي وَاحِدٍ لَمْ تُخْرِجْهُ الزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءٍ الْحِظُّ مِنْ دُنْيَاهُ
وَلَا إِلَى نَقْصٍ فِي عُقْبَاهُ ، وَلَمْ يَتَأَسَفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ
بِبَقَائِهِ ، وَلَمْ يُخْزِنَهُ مَا تَجَرَّى بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ ، وَلَمْ يَذْهَشْ

عِنْدَ مَكْرُوهِ . فَالْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى عَلَى إِنْفَاقٍ ، وَذَخِيرَةٌ
لَا يَضْرِبُهَا إِلَّا مَلَأَقٌ ^(١) ، وَحِلَّةٌ لَا تَخْلُقُ جِدَّتُهَا ^(٢) ، وَلَذَّةٌ لَا تُضْرَمُ ^(٣)
مُدَّتُهَا . وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ امْسَكْتُ عَنْ
ابْتِدَائِهِ بِالْكَلَامِ ، إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ .
وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لِأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا ، لَا سِيَّمَا مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ
الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ :
الزِّمِ السُّكُوتَ ، فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً ، وَتَجَنَّبِ الْكَلَامَ الْفَارِغَ ، فَإِنَّ
عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ . وَحَكَى أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمُّهُمْ مَجْلِسُ
مَلِكٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : لِيَتَكَلَّمْ كُلُّ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ .
فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعِلْمِ السُّكُوتُ . وَقَالَ الثَّانِي : إِنَّ
مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ .
وَقَالَ الثَّلَاثُ : أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ .
وَقَالَ الرَّابِعُ : أَرْوَحُ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ .

(١) لعل الصواب "لا يضربها الإملاق" . (٢) لا تبلى . (٣) لا تقطع .

وَأَجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ
وَفَارِسَ وَالرُّومِ ، وَقَالُوا يَذْبَنِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ
تَدُونَ عَنْهُ عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ . فَقَالَ مَلِكُ الصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ
أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّْي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ . وَقَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ : عَجِبْتُ
لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ
أَوْ بَقِيَّتُهُ ^(١) . وَقَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي ،
وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا . وَقَالَ مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى
مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ ، وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا .
وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى
نَفْعٍ . وَأَفْضَلُ مَا اسْتَظَلَ بِهِ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ ^(٢) . غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ ،
أَطَالَ اللَّهُ مُدَّتَهُ ، لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ ،
كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَرَةُ
ذَلِكَ لَهُ دُونِي ، وَأَنْ أُخْتَصَّصَهُ بِالْفَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنَّ الْعُقْبَى
هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ ، وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرْفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ،
وَأَكُونُ أَنَا قَدْ قَضَيْتُ فَرَضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ :

(١) أهلكته . (٢) وفي نسخة وأعضل ما ضلَّ به الإنسان لسانه .

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْحَبَابِرَةِ الَّذِينَ
 اسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ ، وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ ، وَبَنَوْا الْقِلَاعَ وَالْحُصُونَ ،
 وَمَهَّدُوا الْبِلَادَ ، وَقَادُوا الْجُيُوشَ ، وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ ^(١) ، وَطَالَتْ
 لَهُمُ الْمُدَّةُ ، وَاسْتَكْثَرُوا مِنَ السَّلَاحِ وَالْكُرَاعِ ^(٢) ، وَعَاشُوا الدَّهْرَ ،
 فِي الْغِبْطَةِ وَالسَّرُورِ ، فَلَمْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ مِنْ اكْتِسَابِ جَمِيلِ الذِّكْرِ ،
 وَلَا قَطْعَهُمْ عَنِ اغْتِنَامِ الشُّكْرِ ، وَلَا اسْتِعْمَالَ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ ،
 وَالْإِرْفَاقِ بَيْنَ وَلَوْهُ ، وَحُسْنِ السَّيْرِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ ، مَعَ عَظِيمِ
 مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غُرَّةِ الْمُلْكِ ، وَسَكْرَةِ الْإِقْتِدَارِ . وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 السَّعِيدُ جَدُّهُ ، الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ ، قَدْ وَرَثْتَ أَرْضَهُمْ
 وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتُهُمْ ، فَأَقَمْتَ فِيهَا خَوْلَتَ
 مِنَ الْمُلْكِ وَوَرَثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ ، فَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ
 مَا يَجِبُ عَلَيْكَ ، بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى الرِّعْيَةِ ،
 وَأَسَأْتَ السَّيْرَةَ ، وَعَظُمَتْ مِنْكَ الْبِدِيَّةُ . وَكَانَ الْأَوَّلَى وَالْأَشْبَهَ

(١) استجاش الجيش : جمعه . (٢) الكراع : اسم لجمع الخيل وقيل الخيل والسلاح .

(٣) عروزه .

بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ ، وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ ،
وَتَقْفُو مُحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ ، وَتُقْلِعَ عَمَّا عَارُهُ لَا زِمَ لَكَ ،
وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ بِكَ ، تُحَسِّنُ النَّظَرَ بِرِعْيَتِكَ ، وَتَسُنُّ لَهُمْ سُنَنَ
الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بِغَدِكَ ذِكْرُهُ ، وَيُعْقِبُكَ الْجَمِيلَ فَخْرُهُ ، وَيَكُونُ
ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلَامَةِ وَأَدْوَمَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ . فَإِنَّ الْجَاهِلَ
الْمُغْتَرَّ مِنَ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ الْبَطَرَ وَالْأُمْنِيَّةَ ، وَالْحَازِمَ اللَّيْبَ مِنْ
سَاسِ الْمُلْكِ بِالْمُدَارَاةِ وَالرَّفْقِ ، فَانْظُرَايَهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ ،
وَلَا يَثْقُلَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكَ : فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذَا ابْتِغَاءَ عَرَضٍ تُجَازِينِي
بِهِ ، وَلَا ابْتِمَاسَ مَعْرُوفٍ تُكَافِئُنِي فِيهِ ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا
مُشْفِقًا عَلَيْكَ .

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ ، وَقَضَى مُنَاصَحَتَهُ ، أَوْغَرَ صَدْرَ
الْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِضْغَارًا لِأَمْرِهِ ، وَقَالَ : لَقَدْ
تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي
يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ مَا أَقَدَمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ

مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ ، وَضَعْفِ مُنْتِكَ ^(١) وَعَجْرِ قُوَّتِكَ ؟ وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ
 إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ ، وَتَسْلُطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ
 حَدَّكَ . وَمَا أَجْدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَتَبْلُغَ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ .
 فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرْزُومَ ^{بِعَظِيمِهِ} مَا رَمَتْ أَنْتَ
 مِنْ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ
 وَيُضَلَبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ ، فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَعْجَمَ عَنْهُ ،
 ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ . فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ فِي طَلَبِ تَلَامِيذِهِ
 وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ الْبَحَارِ ؛
 فَكَثَّ بَيْدَبَا فِي مَحْبِسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ ، وَلَا يَلْتَفِتُ
 إِلَيْهِ ؛ وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنْ
 اللَّيَالِي سَهَدَ الْمَلِكُ سُهْدًا شَدِيدًا ^(٢) ، فَطَالَ سُهْدُهُ ، وَمَدَّ إِلَى الْفَلَكَ
 بَصَرَهُ ، وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ الْفَلَكَ ^(٣) وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ ، فَأَغْرَقَ
 الْفِكْرَ فِيهِ ؛ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ
 الْفَلَكَ ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْدَبَا ، وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ ؛

(١) قُوَّتِكَ . (٢) أَرَقَ أَرَقًا شَدِيدًا . (٣) اسْتِدَارَةَ مَلَامَةِ النُّجُومِ .

فَارْعَوَى^(١) لِذَلِكَ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ
 بِهَذَا الْفِيلْسُوفِ ، وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ ، وَحَمَلْتَنِي عَلَى ذَلِكَ
 سُرْعَةَ الْغَضَبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ
 فِي الْمُلُوكِ : الْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا ، وَالْبُخْلُ فَإِنَّ
 صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْدُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ ، وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ
 أَنْ يُجَاوِرَهُ ، وَالْعُنْفُ فِي الْمُحَاوَرَةِ فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا .
 وَإِنِّي أَتَى إِلَى رَجُلٍ نَصَحَ لِي ، وَلَمْ يَكُنْ مُبَلِّغًا ، فَعَامَلْتُهُ بِضَدِّ
 مَا يَسْتَحِقُّ ، وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ . وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ
 مِنِّي ، بَلْ كَانَ الْوَاجِبَ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ ، وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ .
 ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :
 يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هِمَّتِي ، وَعَجَزْتَ رَأْيِي
 فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا ؟ قَالَ لَهُ بَيْدَبَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ
 الشَّفِيقُ ، وَالصَّادِقُ الرَّفِيقُ ، إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ
 وَلِرَعِيَّتِكَ ، وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا أَعِذْ عَلَيَّ

(١) - ارعوى ارعوا : نزع عن الجهل ورجع عنه .

كَلَامَكَ كُلَّهُ ، وَلَا تَدْعُ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِثْتَ بِهِ . فَجَعَلَ بَيْدَبَا
 يَنْتَرُ كَلَامَهُ ، وَالْمَلِكُ مُضْغِعٌ إِلَيْهِ . وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ
 شَيْئًا يَنْكُتُ الْأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ . ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى
 بَيْدَبَا ، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ . وَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا ، إِنِّي قَدْ اسْتَعَذَبْتُ
 كَلَامَكَ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ مِنْ قَلْبِي . وَأَنَا نَاطِرٌ فِي الَّذِي أَشْرْتَ
 بِهِ ، وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ . ثُمَّ أَمَرَ بِقُبُودِهِ فَحُلَّتْ . وَالتَقَى عَلَيْهِ
 مِنْ لِبَاسِهِ ، وَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ . فَقَالَ بَيْدَبَا : يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ
 فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ . قَالَ : صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ
 الْفَاضِلُ . وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي
 مَمْلَكَتِي . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَغْفِنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ : فَإِنِّي
 غَيْرُ مُضْطَلَعٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلَّا بِكَ . فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ ،
 عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ ، فَبَعَثَ فَرَدَّهُ . وَقَالَ : إِنِّي
 فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِمَّا عَرَضَتْهُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا
 بِكَ ، وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ ، وَلَا يَضْطَلَعُ بِهِ سِوَاكَ . فَلَا
 تُخَالِفْنِي فِيهِ . فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذَلِكَ .

وَكَانَ عَادَةً مُلُوكَ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوَزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا ، وَيُرْكَبَ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ ، وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِبَيْدَبَا ذَلِكَ . فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ : يَأْخُذُ لِلدَّيْنِ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، وَرَدَّ الْمَظَالِمَ ، وَوَضَعَ سَنَنَ الْعَدْلِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ . وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِتَلَامِيذِهِ بِخَاءِ وَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَرِحِينَ بِمَا جَدَّدَ اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدٍ رَأَى الْمَلِكُ فِي بَيْدَبَا ، وَشَكَرُوا^(١) اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيَرَةِ ، وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا أَخْلَى فِكْرَهُ مِنْ اشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ ، تَفَرَّغَ لَوْضِعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا ، فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً ، فِيهَا دَقَائِقُ الْحِيلِ . وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ

(١) تعديّة الشكر باللام أفصح .

السيرة والعدل في الرعية . فرغبت إليه الملوك الذين كانوا
 في نواحيه ، وأنقادت له الأمور على استوائها . وفرحت به
 رعيته وأهل مملكته . ثم إنَّ بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم ،
 ووعدهم وعدًا جميلًا . وقال لهم : لست أشك أنه وقع في نفوسكم
 وقت دخولي على الملك أن قلتم : إنَّ بيدبا قد ضاعت حكمته ،
 وبطلت فكرته : إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغى .
 فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري . وإني لم آت جهالاً به :
 لأنني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول : إنَّ الملوك لها
 سورة^(١) كسورة الشراب : فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ
 العلماء وأدب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتعظوا
 بمواعظ العلماء . والواجب على العلماء تقويم الملوك بالسنتها ،
 وتأديبها بحكمته ، وإظهار الحجّة البينة اللازمة لهم : ليرتدعوا
 عما هم عليه من الإغوجاج والخروج عن العدل . فوجدت
 ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم

مِنْ رَقَدَتِهِمْ ، كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ
 الْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصَّحَّةِ . فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ
 أَوْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ بَيِّدًا
 الْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمِ الطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .
 فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، قَالُوا : كَانَ
 الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جَوَارِهِ أَوْلَى بِهِ ، وَالْإِنْزِعَاجُ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ ،
 فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي ، فَأَكُونُ قَدْ أَتَيْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ
 الْحُكَمَاءِ بَعْدَى عُذْرًا . فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيرِ أَوْ الظَّفَرِ بِمَا
 أُرِيدُهُ . وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ : فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ
 الْأَمْثَالِ : إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا بِمَشَقَّةٍ
 تَنَالَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَ إِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكَيْسٍ فِي دِينِهِ . وَمَنْ
 لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ . وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ
 بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ . فَلْيَضَعْ كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيْ فَنٍّ شَاءَ ، وَلْيَعْرِضْهُ عَلَى لَأَنْظُرَ مِقْدَارَ

(١) التعريض للهلاك . (٢) أى أن يكون صاحب عقيدة صحيحة يتمسك بها مع أنه يؤذى
 ويشتقص في سبيلها ، فإذا ناله وكس بسبب ذلك فإنه لا بد أن يعرف الناس قدره بعد حين .

عَقْلِهِ، وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهْمُهُ . قَالُوا : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ ،
وَاللَّيْبُ الْعَاقِلُ ، وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَنَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ
وَالْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ ، مَا خَطَرَ هَذَا بِقُلُوبِنَا سَاعَةً قَطُ . وَأَنْتَ
رَبِّنَا وَفَاضِلُنَا ، وَبِكَ شَرَفْنَا ، وَعَلَى يَدِكَ انْتِعَاشُنَا . وَلَكِنْ
سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ . وَمَكَثَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ
السَّيْرِ زَمَانًا يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَهُ بَيْدَبَا وَيَقُومُ بِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ ، وَسَقَطَ عَنْهُ النَّظَرُ
فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا ، صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى
النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ الْهِنْدِ لِأَبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ،
فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ
وَتَذَكُّرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذَكَرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ . فَلَمَّا عَزَمَ
عَلَى ذَلِكَ ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ ذَلِكَ إِلَّا بِبَيْدَبَا : فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ ،
وَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا ، إِنَّكَ حَكِيمُ الْهِنْدِ وَفِيلَسُوفُهَا . وَإِنِّي فَكَّرْتُ
وَنَظَرْتُ فِي خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي ، فَلَمْ أَرَفِيهِمْ
أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ ، وَيُنَبِّئُ عَنْ

أَدِيهِ وَأَهْلٍ مَمْلَكَتِهِ ، فَمِنْهُ مَا وَضَعْتُهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا ، وَذَلِكَ
لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا ، وَمِنْهُ مَا وَضَعْتُهُ حُكْمًا وَهًا . وَأَخَافُ أَنَّ
يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلَئِكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ ، وَلَا يُوجَدُ فِي نَخْرَائِي
كِتَابٌ أَذْكَرُ بِهِ بَعْدِي ، وَأَنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي
بِكُتُبِهِمْ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ
يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ وَتَأْدِيبُهَا ، وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ
وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ ، فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ
عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمَلِكِ . وَأُرِيدُ أَنْ
يَبْقَى لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ . فَلَمَّا سَمِعَ
بَيْدَبَا كَلَامَهُ نَحَرَ لَهُ سَاجِدًا ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
السَّعِيدُ جَدُّهُ ، عَلَا نَجْمُكَ ، وَغَابَ نَحْسُكَ ، وَدَامَتْ أَيَّامُكَ ،
إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جَوْدَةِ الْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ
حَرَكَهُ لِعَالِي الْأُمُورِ ، وَسَمَّتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهَمَّتْهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ
مَنْزِلَةً ، وَأَبْعَدَهَا غَايَةً ، وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى

مَا عَزَمَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ . فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ
بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ : فَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى غَرَضِهِ ، مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي .
قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ
الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذَلِكَ ، وَاخْتَرْتُ أَنْ
تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ ، وَتَعْمَلَ فِيهِ فِكْرَكَ ، وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ ،
بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَلَيْكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى الْجِدِّ وَالْهَزْلِ
وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ . فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ ، وَقَالَ : قَدْ
أَجَبْتُ الْمَلِكَ أَدَامَ اللَّهِ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ ، وَجَعَلْتُ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ أَجَلًا . قَالَ : وَكَمَ هُوَ الْأَجَلُ ؟ قَالَ : سَنَةٌ . قَالَ :
قَدْ أَجَلْتُكَ ، وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةِ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ
فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي الْأَخْذِ فِيهِ ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ بِهَا
فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي لِأَمْرِ
فِيهِ نَخْرِي وَنَخْرُكُمْ وَنَفْخُرُ بِلَادِكُمْ ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ .
ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ ، وَالْغَرَضَ الَّذِي

قَصَدَ فِيهِ ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ
فَكَرَّ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَتِمُّ بِاسْتِفْرَاحِ
الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ ، وَقَالَ : أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
إِلَّا بِالْمَلَّاحِينَ : لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا ، وَإِنَّمَا تَسْلُكُ الْجَلَّةُ بِمُدَبِّرِهَا
الَّذِي تَفَرَّدَ بِأَمْرِهَا ^(١) ، وَمَتَى تُحْنَتِ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ
مَلَأُحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرَقِ . وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ
فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ ، مَعَ رَجُلٍ مِنْ
تَلَامِيذِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ ، فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا مَعَهُ ، بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ
الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئًا ، وَمِنْ الْقَوِيتِ مَا يَقُومُ بِهِ
وَيَتَلَبَّذُهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ . وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ ، وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبَابَ
ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتَلَبَّذُهُ
يَكْتُبُ ، وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِثْقَانِ
وَالْإِحْكَامِ . وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا ، كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ
بِنَفْسِهِ . وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا ، لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ

فِيهِ حَظٌّ مِنَ الْهِدَايَةِ . وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا ،
وَسَمَّاهُ كِتَابَ كُلَيْلَةٍ وَدِمْنَةٍ . ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ : لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لِهَوَا لِلْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ ، وَبَاطِنُهُ
رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ . وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ
سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ
دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَآخِرَتِهِ وَأَوَّلَاهُ ، وَيَحْضُهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ
وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانِبَتُهُ خَيْرًا لَهُ . ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسَمِ
سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ : فَصَارَ الْحَيَوَانُ لِهَوَا ، وَمَا يَنْطِقُ
بِهِ حِكْمَةً وَأَدَبًا . فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ
وَصَفَ الصَّدِيقِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ الصَّدِيقَانِ ، وَكَيْفَ تُقَطَّعُ
الْمَوَدَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةٍ ذِي النَّمِيمَةِ . وَأَمَرَ تَلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ
عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَرْطَهُ فِي أَنْ جَعَلَهُ لِهَوَا
وَحِكْمَةً . فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ النَّقْلَةِ أَفْسَدَهَا
وَجُهِلَتْ حِكْمَتُهَا . فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتَلْمِيذُهُ يُعْمِلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا
سَأَلَهُ الْمَلِكُ ، حَتَّى فَتَقَ لُهُمَا الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ

بِهِمَتَيْنِ . فَوَقَعَ لهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالْهَزْلِ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ . وَكَانَتْ
 الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ . فَأَصْنَعْتَ الْحُكْمَاءَ إِلَى حِكْمِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ
 وَاللَّهْوَ ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ . وَمَالَتْ إِلَيْهِ
 الْجُهَاالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بِهِمَتَيْنِ ، وَلَمْ يَشْكُوا فِي ذَلِكَ ، وَاتَّخَذُوهُ
 لَهْوًا ، وَتَرَكُوا مَعْنَى الْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْغَرَضَ
 الَّذِي وَضَعَ لَهُ ، لِأَنَّ الْفَيْلَسُوفَ إِذَا كَانَ غَرَضُهُ فِي الْبَابِ
 الْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ
 عَلَى التَّحْفِظِ مِنْ أَهْلِ السَّعَايَةِ^(١) وَالتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ
 الْمُتَحَابِّينَ : لِيَجْرَّ بِذَلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ . فَلَمْ يَزَلْ بَيِّدًا وَتَلِيدُهُ
 فِي الْمَقْصُورَةِ ، حَتَّى اسْتَتَمَّا عَمَلَ الْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ . فَلَمَّا
 عَمَّ الْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ فَمَاذَا صَنَعْتَ ؟
 فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيِّدًا : إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ الْمَلِكَ . فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ ،
 بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ لِنُكُونِ قِرَاءَتِي هَذَا الْكِتَابِ بِحَضْرَتِهِمْ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سَرَّ ذَلِكَ ، وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ

(١) السَّعَايَةُ : الْوَشَايَةُ وَالنَّمِيَّةُ .

أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ
الْكِتَابِ . فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ ، أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا
سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ ، وَكَرَاسِيٌّ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ . وَأَنْفَذَ
فَأَخْضَرَهُ . فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ الثِّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا
إِذَا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ وَهِيَ الْمُسُوحُ الشُّودُ ، وَحَمَلَ الْكِتَابَ
تَلْبِيذُهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلَاءُ تَقِيًا بِأَجْمَعِهِمْ ، وَقَامَ
الْمَلِكُ شَاكِراً . فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ ، وَلَمْ يَرْفَعْ
رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا أَرْفَعْ رَأْسَكَ ، فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ
هِنَاءٍ وَفَرَجٍ وَسُرُورٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ . فَحِينَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ
الْكِتَابِ ، سَأَلَهُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ
قَصَدَ فِيهِ . فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ بَابٍ . فَازْدَادَ الْمَلِكُ
مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا . فَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ الَّذِي فِي
نَفْسِي ، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ ، فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ .
فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْجَدِّ . وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا
الْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَأَمَّا الْكُسُوفُ فَلَا إِخْتَارَ عَلَيَّ لِبَاسِي

هَذَا شَيْئًا ، وَلَسْتُ أَخْلِي الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ . قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا
مَا حَاجَتُكَ ؟ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ . قَالَ : يَا أَمْرُ الْمَلِكِ
أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ ، وَيَأْمُرُ
بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ : فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَيَتَنَاوَلَهُ
أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ ؛ فَالْمَلِكُ يَا أَمْرُ أَلَّا يُخْرَجَ مِنْ بَيْتِ
الْحِكْمَةِ . ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلَامِيذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَائِزَ . ثُمَّ إِنَّهُ
لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَكَانَ مُسْتَأْثِرًا بِالْكِتَابِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
وَالنَّظَرِ فِي الْأَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ ؛ فَلَمْ يَقَرَّ قَرَارُهُ
حَتَّى بَعَثَ بَرَزَوِيهِ الطَّبِيبَ وَتَلَطَّفَ حَتَّى أُنْخَرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ
فَأَقَرَّهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ .

بَابُ بَعْثَةِ بَرَزَوِيهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ بِرَحْمَتِهِ ، وَمَنْ عَلَى عِبَادِهِ
بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَرَزَقَهُمْ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلَاحِ مَعَاشِهِمْ
فِي الدُّنْيَا ، وَيُذَرِّكُونَهُ بِهِ اسْتِنْقَازَ أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ
فِي الْآخِرَةِ ، وَأَفْضَلَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْعَقْلُ

الَّذِي هُوَ الدُّعَامَةُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالَّذِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِصْلَاحِ مَعِيشَتِهِ وَلَا إِحْرَازِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ إِلَّا بِهِ .
وَكَذَلِكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ الْمُنْجِي بِهِ رُوحَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْمَامِ عَمَلِهِ وَإِكْمَالِهِ إِلَّا بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ وَمِفْتَاحُ كُلِّ سَعَادَةٍ . فَلَيْسَ لِأَحَدٍ غِنَى عَنِ الْعَقْلِ . وَالْعَقْلُ مُكْتَسَبٌ بِالتَّجَارِبِ وَالْأَدَبِ . وَلَهُ غَرِيزَةٌ مَكُونَةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَامِنَةٌ كَالنَّارِ فِي الْحَجَرِ لَا تَظْهَرُ وَلَا يُرَى ضَوْؤُهَا حَتَّى يَقْدَحَهَا قَادِحٌ مِنَ النَّاسِ ؛ فَلِذَا قُدِحَتْ ظَهَرَتْ طَبِيعَتُهَا . وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ كَامِنٌ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهَرَهُ الْأَدَبُ وَتُقَوِّيه التَّجَارِبُ . وَمَنْ رَزَقَ الْعَقْلَ وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِ وَأَعَيْنَ عَلَى صِدْقِ قَرِيحَتِهِ بِالْأَدَبِ حَرَصَ عَلَى طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ ، وَأَذْرَكَ فِي الدُّنْيَا أَمَلَهُ ، وَحَازَ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابَ الصَّالِحِينَ . وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْمَلِكَ السَّعِيدَ أُنُوشِرَوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ ، وَمِنَ الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ ؛ وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصُوبَهَا ، وَمِنَ الْأَفْعَالِ أَسَدَّهَا ، وَمِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ أَنْفَعَهُ ؛ وَبَلَغَهُ مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ ،

وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ الْفَلَسَفَةِ ، مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ ،
 حَتَّى كَانَ فِيهَا طَلَبٌ وَبَحْثٌ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابِ
 بِالْهِنْدِ ، عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى
 كُلِّ مَنَفَعَةٍ ، وَمِفْتَاحُ عَمَلِ الْآخِرَةِ وَعِلْمُهَا ، وَمَعْرِفَةُ النَّجَاةِ مِنْ
 هَوَاهَا ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بَرْزَجْمَهَرَ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ
 عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِصِيرٍ بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ ، مَاهِرٍ فِي كَلَامِ
 الْهِنْدِ ، وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا ، حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ
 مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ ، مُبَادِرًا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَالْبَحْثِ
 عَنْ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ . فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ ،
 مَعْرُوفٍ بِصِنَاعَةِ الطَّبِّ ، مَاهِرٍ فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ
 بَرْزَوِيهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :
 يَا بَرْزَوِيهِ : إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغْتَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ ،
 وَحَرِيصِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ . وَقَدْ بَلَغْتَنِي عَنْ كِتَابِ
 بِالْهِنْدِ مَحْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ . وَقَالَ لَهُ :
 تَجَهَّزْ فَإِنِّي مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ ، فَتَلَطَّفَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ

أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ ، لِاسْتِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ قَبْلِ عُلَمَائِهِمْ ، فَتَسْتَفِيدَ بِذَلِكَ وَتُفِيدَنَا . وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَأَحْمِلْهُ مَعَكَ ، وَخُذْ مَعَكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَعَجِّلْ ذَلِكَ ، وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ النِّفَقَةَ ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ . وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمُنْجَمِينَ ، فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ ، وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيهَا . وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا ، كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ . فَلَمَّا قَدِمَ بَرْزَوِيهِ بِلَادَ الْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ السُّوقَةِ ^(١) ، وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاحَةِ ، فَعَمَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالتَّحِيَّةِ ، وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِيَطْلُبَ الْعُلُومَ وَالْأَدَبَ ، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمْ فِي ذَلِكَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَادَّبُ عَنْ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ

شَيْئًا ، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتَرْبُغِيتهُ وَحَاجَتَهُ . وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ
الْحَالَةِ لِطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ
وَالْفَلَاسِفَةِ وَالشُّوْقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ ، وَكَانَ قَدْ
اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَامِدًّا قَدْ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ وَمَا يُحِبُّ
مُشَاوَرَتَهُ فِيهِ ، لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ ، وَاسْتَبَانَ لَهُ مِنْ
صِحَّةِ إِخَانِهِ ، وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ ، وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ
مَا أَهَمَّهُ . إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ مِنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ
يَبْلُوهُ وَيَحْبِرَهُ ، وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ . فَقَالَ
لَهُ يَوْمًا وَهُمَا جَالِسَانِ : يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرٍ
فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ . فَأَعْلَمَ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ ، وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي
يُظْهَرُ مِنِّي ، وَالْعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ ،
حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : إِنْ
وَأَنْتَ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتَ لَهُ ، وَإِيَّاهُ تُرِيدُ ،
وَأَنْتَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ ، وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ ، مَا خَفِيَ عَلَى ذَلِكَ مِنْكَ .
وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَائِكَ ، كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ . وَإِنَّهُ قَدْ

اسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ مِنِّي . فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ ، وَأَفْصَحْتَ
 بِهِ وَبِالْكَلَامِ فِيهِ ، فَلِإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَمُظْهِرُكَ لَكَ سِرِّيرَتِكَ ،
 وَمُعْلِمُكَ بِحَالِكَ الَّتِي قَدِمْتَ لَهَا ، فَإِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا
 كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ ، فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَتَسُرَّ بِهَا مَلِكَكَ .
 وَكَانَ قُدُومُكَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ . وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ ،
 وَمُواظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ ، وَالتَّحَفُّظِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ
 الْكَلَامُ ، مَعَ طُولِ مُكْنِكَ عِنْدَنَا ، بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سِرِّيرَتِكَ
 وَأُمُورِكَ ، أزدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ ، وَثِقَةً بِعَقْلِكَ ، فَأَخْبَيْتُ
 مَوَدَّتَكَ . فَلِإِنِّي لَمْ أَرِ فِي الرُّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْضَنُ مِنْكَ عَقْلًا ،
 وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا ، وَلَا أَصْبَرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَلَا أَكْثَمُ لِسِرِّهِ
 مِنْكَ ، وَلَا سِيمًا فِي بِلَادِ غُرَبَةٍ ، وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ ، عِنْدَ
 قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ . وَإِنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ :
 الْأُولَى الرِّفْقُ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا .
 وَالثَّالِثَةُ طَاعَةُ الْمُلُوكِ ، وَالتَّحَرُّى لِمَا يُرْضِيهِمْ . وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ

الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ .
 وَالْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِقَ اللِّسَانِ ^(١) .
 وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا . وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ
 عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا ، فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ . وَالثَّامِنَةُ
 إِنْ كَانَ بِالْمَحْضِلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنْ اجْتَمَعَتْ
 فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِي الْخَيْرِ إِلَى نَفْسِهِ . وَهَذِهِ
 الْخِصَالُ كُلُّهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيكَ ، وَبَانَتْ لِي مِنْكَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
 يَحْفَظُكَ ، وَيُعِينُكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ ، فَمُصَادَقْتُكَ إِيَّايَ ، وَإِنْ
 كَانَتْ لِي تَسْلُبُنِي كَثْرَى وَنَحْرَى وَعِلْيَى ، تَجْعَلُكَ أَهْلًا لِأَنْ تُسَعَفَ
 بِحَاجَتِكَ ، وَتُسَفَعَ بِطَلِبَتِكَ ^(٢) ، وَتُعْطَى سُؤْلُكَ ^(٣) . فَقَالَ لَهُ بَرَزَوِيهِ :
 إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلَامًا كَثِيرًا ، وَشَعَبْتُ لَهُ شُعُوبًا ، وَأَنْشَأْتُ
 لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنْ أَطْلَاعِكَ
 عَلَى أَمْرِي وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ ، وَالْقَيْتَهُ عَلَى مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ ،
 وَرَغْبَتِكَ فِيمَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ ، أَكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخَطَابِ

مَعَكَ ، وَعَرَفْتُ الْكَبِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالصَّغِيرِ مِنَ الْكَلَامِ ،
 وَاقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِيْجَازِ . وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ
 بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ : فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا
 أُلْقِيَ إِلَى الْفَيْلَسُوفِ ، وَالسِّرَّ إِذَا اسْتُودِعَ إِلَى اللَّيِّيبِ الْحَافِظِ ،
 فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِغَ بِهِ نِهَآيَةُ أَمَلِ صَاحِبِهِ ، كَمَا يُحَصِّنُ الشَّيْءُ
 النَّفِيسُ فِي الْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : لَا شَيْءَ أَفْضَلُ
 مِنَ الْمَوَدَّةِ . وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ
 بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَدْنَحِرَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا : فَإِنَّ حِفْظَ السِّرِّ
 رَأْسُ الْأَدَبِ . فَإِذَا كَانَ السِّرُّ عِنْدَ الْأَمِينِ الْكَتُومِ فَقَدْ اخْتَرَزَ
 مِنَ التَّضْيِيعِ ، مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ إِلَّا يَتَكَلَّمُ بِهِ ، وَلَا يَتِمُّ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ
 قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَاهُ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسِّرِّ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ
 مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا ، فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ ، حَتَّى
 لَا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْعَدَهُ وَيُكَابِرَ عَنْهُ ، كَالْغَيْمِ إِذَا كَانَ
 مُتَقَطِّعًا فِي السَّمَاءِ فَقَالَ قَائِلٌ : هَذَا غَيْمٌ مُتَقَطِّعٌ ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ
 عَلَى تَكْذِيبِهِ . وَأَنَا قَدْ يَدَاخِلْنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخِلَاطِكَ سُرُورٌ^(١)

لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ
الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا تُكْتَمُ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهَرَ ، حَتَّى يَتَحَدَّثَ
بِهِ النَّاسُ . فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِ هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ
عَلَى الْفِدَاءِ مِنْهُ بِالْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ : لِأَنَّ مَلِكًا فَظًّا غَلِيظًا ، يُعَاقِبُ
عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ أَشَدَّ الْعِقَابِ ، فَكَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ
الْعَظِيمِ ؟ وَإِذَا حَمَلْتَنِي الْمَوَدَّةُ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَأَسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ
لَمْ يَرُدَّ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءٌ . قَالَ بَرَزَوِيه : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتْ
الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى الْفَوْزِ . وَهَذَا الْأَمْرُ
الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ ، لِمِثْلِكَ ذَنْرَتُهُ ، وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ ، وَأَنَا وَاثِقٌ
بِكَرَمِ طَبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ
أَنْ أَبْدِيَهُ ، بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ الطَّائِفِينَ بِكَ وَبِالْمَلِكِ أَنْ
يَسْعَوْا بِكَ إِلَيْهِ . وَأَنَا أَرْجُو أَلَّا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ :
لِأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ ، وَمَا أَقَمْتُ فَلَا ثَالِثَ بَيْنَنَا . فَتَعَاهَدَا
عَلَى هَذَا جَمِيعًا . وَكَانَ الْهِنْدِيُّ خَازِنَ الْمَلِكِ ، وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ
خَزَائِنِهِ . فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ .

فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقَلَهُ مِنَ اللُّسَانِ الْهِنْدِيِّ إِلَى اللُّسَانِ الْفَارِسِيِّ ،
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ ، وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌّ
وَفَزِعٌ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ ، خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ الْمَلِكُ
الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفَهُ فِي خَزَائِنِهِ . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ
انْتِسَاحِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ . كَتَبَ إِلَى
أَنُوشِرْوَانَ يُعْلِيهِ بِذَلِكَ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ ، سَرَّ بِذَلِكَ
سُرُورًا شَدِيدًا ، ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ الْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْغِصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ ،
فَكَتَبَ إِلَى بَرَزَوِيهِ بِأَمْرِهِ بِتَعْجِيلِ الْقُدُومِ . فَسَارَ بَرَزَوِيهِ
مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ الشُّحُوبِ ^(١)
وَالْتَعَبِ وَالنَّصَبِ ، قَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ
مَا قَدْ غَرَسَ ، أَبَشِّرْ وَقَرَّ عَيْنًا : فَإِنِّي مُشْرِفُكَ وَبَالِغُكَ أَفْضَلَ
دَرَجَةٍ . وَأَمْرُهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ . فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ ،
أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا ،
أَمَرَ بَرَزَوِيهِ بِالْحُضُورِ . فَحَضَرَ وَمَعَهُ الْكُتُبُ ، فَفَتَحَهَا وَقَرَأَهَا

(١) تغير اللون من السفر ونحوه .

عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ . فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ
فَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا ، وَشَكَرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ ، وَمَدَحُوا
بِرَزْوِيهِ وَأَثَنُوا عَلَيْهِ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبِرَزْوِيهِ خَزَائِنُ الثَّلَاثِ
وَالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ
الْخَزَائِنِ مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ أَوْ كِسُوفٍ ، وَقَالَ : يَا بِرَزْوِيهِ إِنِّي قَدْ
أَمَرْتُ أَنْ تُجْلِسَ عَلَى مِثْلِ سِرِيرِي هَذَا ، وَتُلْبَسَ تَاجًا ،
وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْرَافِ . فَسَجَدَ بِرَزْوِيهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ
وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ وَقَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلِكَ كَرَامَةَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ ، فَلِئَنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مُسْتَغْنٍ
عَنِ الْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي اللَّهُ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ الْجَدِّ ، الْعَظِيمِ
الْمَلِكِ ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِالْمَالِ ، لَكِنِّ لَمَّا كَلَّفَنِي الْمَلِكُ ذَلِكَ
وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسْرُهُ ، أَنَا أَمْضِي إِلَى الْخَزَائِنِ فَأَخُذُ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ
وَأَمْتِنَالًا لِأَمْرِهِ . ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ الثِّيَابِ فَأَخَذَ مِنْهَا تَحْتًا^(١) مِنْ
طَرَائِفِ خِرَاسَانَ مِنْ مَلَابِسِ الْمُلُوكِ . فَلَمَّا قَبِضَ بِرَزْوِيهِ

مَا اخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ الثِّيابِ قَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ الْمَلِكَ وَمَدَّ
 فِي عُمُرِهِ أَبَدًا . لَا بُدَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكْرَمَ وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ ،
 وَإِنْ كَانَ قَدْ اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا رِضَا الْمَلِكِ .
 وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ ، لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ
 فِيهِ الشَّرَفَ يَأْهَلُ هَذَا الْبَيْتِ ! فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ تَابِعًا
 رِضَاكُمْ ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا . وَالشَّاقَّ هَيِّنًا ، وَالنَّصَبَ
 وَالْأَذَى سُورًا وَلَدَّةً : لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًا وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ .
 وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسَعِفُنِي بِهَا ، وَتُعْطِينِي فِيهَا
 سُورِي : فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ ، وَفِي قَضَائِهَا فَايِدَةٌ كَثِيرَةٌ . قَالَ
 أَنْوْشِرَوَانُ : قُلْ فَكُلْ حَاجَةً لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةً : فَإِنَّكَ عِنْدَنَا
 عَظِيمٌ ، وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا ، وَلَمْ نَرُدَّ طَلِبَتَكَ ،
 فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ ؟ فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمْ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا
 مَبْذُولَةٌ لَكَ . قَالَ بَرَزَوَيْهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي
 فِي رِضَاكَ وَإِنْكَاشِي^(١) فِي طَاعَتِكَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزُمُنِي بَذُلُ

(١) الانكاش في الأمر : الجذبه .

مُنْهَجَتِي فِي رِضَاكَ ، وَلَوْ لَمْ تَنْجِزْنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا
 وَاجِبًا عَلَى الْمَلِكِ ، وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدًا إِلَى مُجَازَاتِي ،
 وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ ، حَتَّى لَوْ قَدَّرَ
 أَنْ يَنْجَمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ . بِخَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا
 أَفْضَلَ الْجَزَاءِ . قَالَ أَنْوِشِرَوَانُ : أَذْكُرُ حَاجَتَكَ ، فَعَلَى مَا يَسُرُّكَ .
 فَقَالَ بَرَزَوَيْهِ : حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ ، أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ،
 وَزِيرَهُ بَزْرَجْمَهْرَ بْنَ الْبَخْتِكَانِ ، وَيُقَسِّمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمَلَ فِكْرُهُ ،
 وَيَجْمَعَ رَأْيُهُ ، وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ ، وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ
 كَلَامٍ مُتَقَنٍ مُحْكَمٍ ، وَيَجْعَلَهُ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي ،
 وَلَا يَدَّعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . وَيَأْمُرُهُ
 إِذَا أَسْتَتَمَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ
 وَالشَّوْرِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ
 الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَأَبْقَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى
 الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ .

فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَالْعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمِعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ
 مِنْ مَحَبَّةٍ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ اسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ ، وَقَالَ كِسْرَى :
 حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بَرَزَوِيهِ ، إِنَّكَ لِأَهْلٌ أَنْ تُسَعَّفَ بِحَاجَتِكَ ،
 فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرُهُ عِنْدَنَا ! وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ^(١)
 عَظِيمًا . ثُمَّ أَقْبَلَ أَنْوَشِرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بَرَزَجْمَهَرَ فَقَالَ لَهُ : قَدْ
 عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بَرَزَوِيهِ لَنَا ، وَتَجَشَّمَهُ^(٢) الْمَخَافِ وَالْمَهَالِكِ فِيمَا يُقَرِّبُهُ
 مِنَّا ، وَإِتْعَابَهُ بَدَنَهُ فِيمَا يَسُرُّنَا ، وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ ،
 وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا نَفْرَهُ ، وَمَا
 عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، فَلَمْ تَمَلْ
 نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ بَغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَأَاهُ
 هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ ، فَلِئَنِّي أَحِبُّ أَنْ تُتَكَلَّمَ
 فِي ذَلِكَ وَتُسَعِّفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي ،
 وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنَ الْإِجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَّغْتُهُ ، وَإِنْ نَأَلْتِكَ فِيهِ
 مَشَقَّةٌ . وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بَابًا مُضَارِعًا لِنَتْلِكَ الْأَبْوَابِ الَّتِي
 فِي الْكِتَابِ ، وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرَزَوِيهِ ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ

(١) القدر والشرف . (٢) تجشم الأمر : تكلمه على مشقة .

أَمْرُهُ وَشَأْنُهُ ، وَتَنَسَّبَهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، وَتَذَكَّرَ فِيهِ
بَعَثَتُهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا ، وَمَا أَفَدْنَا عَلَى يَدَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ ،
وَشُرَّفْنَا بِهِ وَفُضِّلْنَا عَلَى غَيْرِنَا ، وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرَزَوِيهِ وَقُدُومُهُ
مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَقُتِلَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّشْرِيطِ وَالْإِطْنَابِ
فِي مَذْحِهِ ، وَبَالِغٍ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالَغَةِ وَاجْتِهَدٍ فِي ذَلِكَ أَجْتِهَادًا
يُسَرُّ بَرَزَوِيهِ وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . وَإِنَّ بَرَزَوِيهِ أَهْلٌ لِدَٰلِكَ مِنِّي وَمِنْ
بِجَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا : لِحُبَّتِكَ لِلْعُلُومِ . وَاجْهَدْ أَنْ
يَكُونَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرَزَوِيهِ أَفْضَلَ مِنْ
أَغْرَاضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً لِلْحَالِ
هَذَا الْعِلْمِ : فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ : لِانْفِرَادِكَ بِهَذَا
الْكِتَابِ ، وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ . فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ
فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِنِي لِأَجْمَعَ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، فَيُظْهِرُ فَضْلَكَ
وَاجْتِهَادَكَ فِي مُحَبَّتِنَا ، فَيَكُونُ لَكَ بِذَلِكَ نَفَرٌ . فَلَمَّا سَمِعَ بَرَزَجَمْهَرُ
مَقَالََةَ الْمَلِكِ نَحَرَ لَهُ سَاجِدًا ، وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
الْبَقَاءَ ، وَبَلَغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ؛
لَقَدْ شَرَفْتَنِي بِذَلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ . ثُمَّ نَحَرَ بَرَزَجَمْهَرُ مِنْ

عِنْدِ الْمَلِكِ ، فَوَصَفَ بَرَزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ ،
وَمُضِيَّهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ ؛ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ
خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ ؛ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنْوَشِرَوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ
الْكِتَابِ . وَلَمْ يَدَّغْ مِنْ فَضَائِلِ بَرَزَوِيهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ
وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا نَسَقَهُ ، وَأَتَى بِهِ بِأَجُودِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ .
ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكُ بِفَرَاغِهِ مِنْهُ . فَجَمَعَ أَنْوَشِرَوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ
مَمْلَكَتِهِ ، وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَأَمَرَ بَرَزَوِيَهُ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ ،
وَبَرَزَوِيهِ قَائِمًا إِلَى جَانِبِ بَرَزَجْمَهَرِ ، وَابْتَدَأَ بِوَصْفِ بَرَزَوِيهِ
حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ . فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بِرَزَجْمَهَرٍ مِنَ
الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . ثُمَّ أَتَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَهُ عَلَى بَرَزَجْمَهَرِ ،
وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ ؛ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُسُوفَةٍ وَحُلِيِّ
وَأَوَانٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسُوفَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ
الْمُلُوكِ . ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بَرَزَوِيهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ ؛ وَأَقْبَلَ
بَرَزَوِيهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ
بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بِرَزَجْمَهَرٍ مِنْ صُنْعِهِ
الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي .

بَابُ عَرَضِ الْكِتَابِ . تَرْجَمَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ

هَذَا كِتَابُ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةَ ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعَهُ عَلِمَاءُ الْهِنْدِ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي أَتَاهُمُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّحْوِ الَّذِي أَرَادُوا . وَلَمْ تَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ عَنْهُمْ ، وَيَحْتَالُونَ فِي ذَلِكَ بِصُنُوفِ الْحِيلِ ، وَيَبْتَغُونَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَلِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَلِ وَضَعُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ . فَاجْتَمَعَ لَهُمْ بِذَلِكَ خِلَالٌ . أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُتَصَرِّفًا فِي الْقَوْلِ وَشِعَابًا يَأْخُذُونَ مِنْهَا . وَأَمَّا الْكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهْوًا : فَاخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ . وَالسُّفَهَاءُ لِلْهَوَى ، وَالْمُتَعَلِّمُونَ الْأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبِطُ فِي صَدْرِهِ وَلَا يَذَرِي مَا هُوَ ، بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ . وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَمَّا اسْتَنْجَلَ الرَّجُولِيَّةَ وَجَدَ أَبْوِيَهُ قَدْ كَنَزَا لَهُ كُتُبًا وَعَقْدًا لَهُ عُقُودًا اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الْكَدْجِ ^(١) فِيمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ ، فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ وَجُوهِ الْأَدَبِ .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الْوُجُوهَ الَّتِي وُضِعَتْ
لَهُ ، وَإِلَى أَى غَايَةٍ جَرَى مُؤَلَّفُهُ فِيهِ عِنْدَ مَا نَسَبَهُ إِلَى الْبَهَانِمِ
وَأَضَافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصِحٍ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْضَاحِ الَّتِي جَعَلَهَا
أَمْثَالًا : فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَذَرِ مَا أُرِيدَ بِتِلْكَ الْمَعَانِي ،
وَلَا أَى ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا ، وَلَا أَى نَتِيجَةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ
مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْكِتَابُ . وَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ غَايَتُهُ اسْتِثْمَامَ قِرَاءَتِهِ إِلَى
آخِرِهِ دُونَ مَعْرِفَةِ مَا يَقْرَأُ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ .
وَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ الْعُلُومِ وَقِرَاءَةِ الْكُتُبِ ، مِنْ غَيْرِ إِعْمَالِ
الرَّوِيَّةِ فِيهَا يَقْرَؤُهُ ، كَانَ خَلِيقًا إِلَّا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا أَصَابَ الرَّجُلَ
الَّذِي زَعَمَتِ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ اجْتَازَ بَعْضُ الْمَفَاوِزِ ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ
آثَارِ كُنْزٍ ، بِفَعْلٍ يَحْفِرُ وَيَطْلُبُ ، فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنِ
وَوَرَقٍ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنْ أَنَا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هَذَا الْمَالِ
قَلِيلًا قَلِيلًا طَالَ عَلَيَّ ، وَقَطَعَنِي الْإِشْتِغَالُ بِنَقْلِهِ وَإِنْ حَرَّازَهُ عَنِ
اللَّذَةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوَامًا يَحْمِلُونَهُ إِلَى مَنْزِلِي ،
وَأَكُونُ أَنَا آخِرُهُمْ ، وَلَا يَكُونُ بَقِي وَرَائِي شَيْءٌ يَشْغَلُ فِكْرِي

يَنْقُلُهُ ، وَأَكُونُ قَدْ اسْتَظْهَرْتُ لِنَفْسِي فِي إِرَاحَةٍ بَدَنِي عَنِ الْكَدِّ
بِيسِيرِ أَجْرَةٍ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا . ثُمَّ جَاءَ بِالْحَمَّالِينَ ، فَجَعَلَ يُحْمَلُ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَيَفُوزُ بِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ
مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ . فَانْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ : فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنْ
الْمَالِ شَيْئًا ، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا . وَإِذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَمَّالِينَ
قَدْ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ
وَالْتَعَبُ : لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هَذَا
الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ،
لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ ، كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَدَّمَ لَهُ
جَوْزٌ صَحِيحٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكْسِرَهُ ، وَكَانَ أَيْضًا كَالرَّجُلِ
الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، فَأَتَى صَدِيقًا لَهُ مِنْ
الْعُلَمَاءِ ، لَهُ عِلْمٌ بِالْفَصَاحَةِ ، فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الْفَصِيحِ ،
فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيحِ الْكَلَامِ وَتَصَارِيفَهُ
وَوُجُوهُهُ ، فَانْصَرَفَ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَجَعَلَ يُكْثِرُ قِرَاءَتَهَا وَلَا

يَقِفُ عَلَى مَعَانِيهَا . ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَحْفِلٍ مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ ؛ بَحَرَتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيهَا ؛
فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْجَمَاعَةِ : إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ ؛ وَالْوَجْهُ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ
بِهِ . فَقَالَ وَكَيْفَ أَخْطِئْتُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْرَاءَ ؛ وَهِيَ
فِي مَنْزِلِي ؟ فَكَانَتْ مَقَالَتُهُ لَهُمْ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَزَادَهُ ذَلِكَ
قُرْبًا مِنَ الْجَهْلِ وَبُعْدًا مِنَ الْأَدَبِ .

ثُمَّ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا فَهِمَ هَذَا الْكِتَابَ وَبَلَغَ نِهَايَةَ عَلَيْهِ فِيهِ ،
يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عِلْمٌ مِنْهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ؛ وَيَجْعَلَهُ مِثَالًا
لَا يَحِيدُ عَنْهُ . فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، كَانَ مِثْلَهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي
زَعَمُوا أَنَّ سَارِقًا تَسَوَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ ، فَعَلِمَ بِهِ فَقَالَ :
وَاللَّهِ لَا أَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ ، وَلَا أَذْعُرُهُ ، وَلَا أُغْلِبُهُ
أَنْتِي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ . فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ ، فَتَغَضَّتْ ذَلِكَ
عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ . وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ ، وَطَالَ
تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ ؛ فَغَلَبَ الرَّجُلَ النُّعَاسُ فَنَامَ ، وَفَرَّغَ
اللُّصُّ مِمَّا أَرَادَ ، وَأَمَكَنَهُ الذَّهَابُ . وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ ، فَوَجَدَ

اللصّ قَدْ أَخَذَ الْمَتَاعَ وَفَازَ بِهِ . فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا ،
وَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللَّصِّ : إِذْ لَمْ يَسْتَغْمِلْ فِي أَمْرِهِ
مَا يَجِبُ . فَالْعِلْمُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَمَلِ ، وَهُوَ كَالشَّجَرَةِ وَالْعَمَلُ بِهِ
كَالْثَمَرَةِ . وَإِنَّمَا صَاحِبُ الْعِلْمِ يَقُومُ بِالْعَمَلِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، وَإِنْ
لَمْ يَسْتَغْمِلْ مَا يَعْلَمُ لَا يُسَمَّى عَالِمًا . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَالِمًا
بِطَرِيقِ مَخُوفٍ ، ثُمَّ سَلَكَهُ عَلَى عِلْمٍ بِهِ ، سُمِّيَ جَاهِلًا ، وَلَعَلَّهُ إِنْ
حَاسِبَ نَفْسَهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْوَاءَ هَجَمَتْ بِهَا فِيمَا هُوَ
أَعْرَفُ بِضَرَرِهَا فِيهِ وَأَذَاهَا مِنْ ذَلِكَ السَّالِكِ فِي الطَّرِيقِ
الْمَخُوفِ الَّذِي قَدْ جَهَلَهُ . وَمَنْ رَكِبَ هَوَاهُ وَرَفَضَ مَا يَنْبَغِي
أَنْ يَعْمَلَ بِمَا جَرَّبَهُ هُوَ أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ ، كَانَ كَالْمَرِيضِ الْعَالِمِ
بِرَدِيءِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَجَيِّدِهِ وَخَفِيفِهِ وَثَقِيلِهِ ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّرُّ
عَلَى أَكْلِ رَدِيئِهِ وَتَرْكِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى النِّجَاةِ وَالتَّخْلِصِ مِنْ
عَائِتِهِ . وَأَقْلُ النَّاسِ عُذْرًا فِي اجْتِنَابِ تَحْمُودِ الْأَفْعَالِ وَارْتِكَابِ
مَذْمُومِهَا مَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ وَمَيَّزَهُ وَعَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضِ
كَمَا أَنَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا بَصِيرٌ وَالْآخَرُ أَعْمَى سَاقَهُمَا الْأَجَلَ

إِلَى حُفْرَةٍ فَوْقَهَا فِيهَا ، كَانَا إِذَا صَارَا فِي قَاعِهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ،
غَيْرَ أَنَّ الْبَصِيرَ أَقْلَ عُدْرًا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ : إِذْ كَانَتْ لَهُ
عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا ، وَذَلِكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلٌ غَيْرُ عَارِفٍ .

وَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ وَيُودِّبَهَا بِعِلْمِهِ ، وَلَا تَكُونَ غَايَتُهُ
اِقْتِنَاؤُهُ الْعِلْمَ لِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ ، وَيَكُونُ كَالْعَيْنِ الَّتِي يَشْرَبُ النَّاسُ
مَاءَهَا وَلَيْسَ لَهَا فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمَنْفَعَةِ ، وَكَدُودَةِ الْقَرْزِ الَّتِي
تُحْكَمُ صَنْعَتُهُ وَلَا تَنْتَفِعُ بِهِ . فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ
بِعِظَةِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبِسَهُ ^(١) ، فَإِنْ خَلَا لَا يَنْبَغِي
لِصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيَهَا وَيُقْبِسَهَا : مِنْهَا الْعِلْمُ وَالْمَالُ . وَمِنْهَا
اتِّخَاذُ الْمَعْرُوفِ . وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَعِيبَ أَمْرًا بِشَيْءٍ فِيهِ مِثْلُهُ ،
وَيَكُونُ كَالْأَعْمَى الَّذِي يُعِيرُ الْأَعْمَى بَعْمَاهُ . وَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ غَايَةٌ وَنِهَايَةٌ ، وَيَعْمَلُ بِهَا ، وَيَقِفَ عِنْدَهَا ،
وَلَا يَتَمَادَى فِي الطَّلَبِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ سَارَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ

(١) أَقْبَسَهُ الْعِلْمَ وَقَبَسَهُ إِيَّاهُ يَقْبِسُهُ : أَفَادَهُ إِيَّاهُ ، وَيُقَالُ : اقْتَبَسْتُ مِنْهُ عِلْمًا وَقَبَسْتُ اسْتَفَدْتُ

يُوشِكُ أَنْ تَنْقَطِعَ بِهِ مَطِيَّتُهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ حَقِيقًا ^(١) أَلَّا يُعْنِيَ نَفْسَهُ
 فِي طَلَبِ مَا لَا حَدَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَنْلَهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَلَا يَتَأَسَفَ
 عَلَيْهِ ، وَلَا يَكُونَ لِدُنْيَاهُ مُؤَثِّرًا عَلَى آخِرَتِهِ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُعَلِّقْ قَلْبَهُ
 بِالْغَايَاتِ قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا . وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ
 إِنَّهُمَا يَجْمَلَانِ بِكُلِّ أَحَدٍ ^(٢) : أَحَدُهُمَا النَّسْكُ وَالْآخَرُ الْمَالُ الْحَلَالُ
 وَلَا يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُؤْتَبَ نَفْسُهُ عَلَى مَا فَاتَهُ وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ ؛
 فَرُبَّمَا أَتَّاحَ اللَّهُ لَهُ مَا يَهْنَأُ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ . وَمِنْ أَمْثَالِ
 هَذَا أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِهِ ^{ال}فَاقَةٌ وَجُوعٌ وَعُرَى ، فَأَلْجَأَهُ ذَلِكَ إِلَى
 أَنْ سَأَلَ أَقَارِبَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُودُ
 بِهِ عَلَيْهِ . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذْ بَصُرَ بِسَارِقٍ فِيهِ ،
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخَافُ عَلَيْهِ : فَلْيَجْهَدِ السَّارِقُ
 جُهْدَهُ . فَبَيْنَمَا السَّارِقُ يَجُولُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَاطِيَةٍ فِيهَا
 حِنْطَةٌ ، فَقَالَ السَّارِقُ : وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ عَنَائِي اللَّيْلَةُ
 بَاطِلًا . وَلَعَلِّي لَا أَصِلُ إِلَى مَوْضِعِ آخِرٍ ، وَلَكِنْ سَأَحْمِلُ هَذِهِ

(١) يتعبها . (٢) العبادة . (٣) بصربه كظرف وفرح أبصره .

الْحِنْطَةَ . ثُمَّ بَسَطَ قَيْصَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الْحِنْطَةُ . فَقَالَ الرَّجُلُ :
 أَيَذْهَبُ هَذَا بِالْحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرَأَى سِوَاهَا ؟ فَيَجْتَمِعُ عَلَى مَعَ
 الْعُرَى ذَهَابُ مَا كُنْتُ أَقْتَاتُ بِهِ . وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللَّهِ هَاتَانِ
 الْخِلَتَانِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَهْلَكَاهُ . ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ ، وَأَخَذَ هِرَاوَةً^(١)
 كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْسَّارِقِ حِيلَةٌ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ ، وَتَرَكَ
 قَيْصَهُ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ، وَغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِيًا ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ
 يَرْكَنَ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَيَدْعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَذَرِ وَالْعَمَلِ فِي
 مِثْلِ هَذَا لِصَلَاحِ مَعَاشِهِ ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ تَوَاتَتْهُ الْمَقَادِيرُ
 وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ التَّكَاسُفِ مِنْهُ : لِأَنَّ أَوْلَئِكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ ،
 وَالْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي الْكَدِّ وَالسَّعْيِ فِيمَا يُصْلِحُ
 أَمْرَهُ وَيَنَالُ بِهِ مَا أَرَادَ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حِرْصُهُ عَلَى مَا طَابَ
 كَسْبُهُ وَحَسَنَ نَفْعُهُ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ لِمَا يَجْلِبُ عَلَيْهِ الْعَنَاءُ
 وَالشَّقَاءُ ، فَيَكُونَ كَالْحِمَامَةِ الَّتِي تُفْرِخُ الْفِرَاحَ فَتُوْخِذُ وَتُذْبِجُ ،
 ثُمَّ لَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ أَنْ تَعُودَ فَتُفْرِخَ مَوْضِعَهَا ، وَتَقِيمَ بِمَكَانِهَا فَتُوْخِذَ

(١) الهراوة بالكسر : العصا الضخمة .

الثَّانِيَّةُ مِنْ فِرَاحِهَا فَتُذْبَحُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ
لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يُوقَفُ عَلَيْهِ . وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي أَشْيَاءٍ حَدَّهَا
أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا . وَيُقَالُ : مَنْ كَانَ سَعْيُهُ
لِآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فَحْيَاثُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَيُقَالُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ يَجِبُ
عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِضْلَاحُهَا وَبَذْلُ جُهِدِهِ فِيهَا : مِنْهَا أَمْرُ
مَعِيشَتِهِ ، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرُ
الْجَمِيلَ بَعْدُ . وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مِنْ كُنْ فِيهِ لَمْ يَسْتَقِمَّ لَهُ عَمَلٌ .
مِنْهَا التَّوَانِي ، وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الْفُرْصِ ، وَمِنْهَا التَّضَدِيقُ لِكُلِّ
مُخْبِرٍ . قُرْبَ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقْلُهُ وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ .
وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مَتْنَمًا ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ
حَدِيثًا ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الْخَطَا إِذَا ظَهَرَ لَهُ خَطْوُهُ وَلَا يُقَدِّمُ
عَلَى أَمْرٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ ، وَتَتَضَحَّ لَهُ الْحَقِيقَةُ ، وَلَا
يَكُونُ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الطَّرِيقِ ، فَيَسْتَمِرَّ عَلَى الضَّلَالِ ،
فَلَا يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ إِلَّا جَهْدًا ، وَعَنِ الْقَصْدِ إِلَّا بُعْدًا ،
وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْذَى عَيْنُهُ فَلَا يَزَالُ يُحْكِمُهَا ، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ

الْحَكُّ سَبَبًا لِدَهَابِهَا . وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْقَضَاءِ
وَالْقَدَرِ ، وَيَأْخُذَ بِالْحَزْمِ ، وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَلَا
يَلْتَمِسَ صَلَاحَ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ
خَلِيقًا أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيقِهِ .

فَإِنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ تَاجِرٌ ، وَكَانَ لَهُ شَرِيكٌ ، فَاسْتَأْجَرَا
حَانُوتًا ، وَجَعَلَا مَتَاعَهُمَا فِيهِ . وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبَ الْمَنْزِلِ مِنَ
الْحَانُوتِ ؛ فَاضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عِذْلًا مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ ؛
وَمَكَرَ الْحِيلَةَ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ : إِنْ أَتَيْتُ لَيْلًا لَمْ أَمِنْ أَنْ أَحْمِلَ
عِذْلًا مِنْ أَعْدَالِي أَوْ رِزْمَةً مِنْ رِزْمِي وَلَا أُغْرِفَهَا ؛ فَيَذْهَبَ
عَنَانِي وَتَعْبِي بَاطِلًا . فَأَخَذَ رِدَاءَهُ ، وَأَلْقَاهُ عَلَى الْعِذْلِ الَّذِي
اضْمَرَ أَخْذَهُ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ . وَجَاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ
لِيُصْلِحَ أَعْدَالَهُ ، فَوَجَدَ رِدَاءَ شَرِيكِهِ عَلَى بَعْضِ أَعْدَالِهِ ، فَقَالَ :
وَاللَّهِ هَذَا رِدَاءُ صَاحِبِي ؛ وَلَا أُخْسِبُهُ إِلَّا قَدْ نَسِيَهُ . وَمَا الرَّأْيُ
أَنْ أَدَعَهُ هَاهُنَا ؛ وَلَكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رِزْمِي ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْتَيْقِظُنِي إِلَى

(١) الأعدال : الأمتة . (٢) الرزمة بالكسر : هي التي فيها ضروب من الثياب .

الْحَانُوتِ فَيَجِدُهُ حَيْثُ يُحِبُّ . ثُمَّ أَخَذَ الرِّدَاءَ فَأَلْقَاهُ عَلَى عِدْلِ
 مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ ، وَأَقْفَلَ الْحَانُوتَ ، وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ . فَلَمَّا
 جَاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيقَهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَّاهُ ^(١) عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ،
 وَضَمِنَ لَهُ جُعْلًا عَلَى حَمْلِهِ ؛ فَصَارَ إِلَى الْحَانُوتِ ؛ فَالْتَمَسَ
 الْإِزَارَ فِي الظِّلْمَةِ فَوَجَدَهُ عَلَى الْعِدْلِ ؛ فَاحْتَمَلَ ذَلِكَ الْعِدْلَ ،
 وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ ، وَجَعَلَا يَتَرَاوَحَانِ ^(٢) عَلَى حَمْلِهِ ؛ حَتَّى أَتَى
 مَنْزِلَهُ ، وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَبًا . فَلَمَّا أَصْبَحَ أَفْتَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ
 أَعْدَالِهِ ؛ فَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ . ثُمَّ أَنْطَلَقَ نَحْوَ الْحَانُوتِ ، فَوَجَدَ
 شَرِيكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ فَفَتَحَ الْحَانُوتَ وَوَجَدَ الْعِدْلَ مَفْقُودًا :
 فَاغْتَمَ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا ؛ وَقَالَ : وَاسَوْءَ تَاهُ مِنْ رَفِيقِ صَالِحٍ
 قَدْ ائْتَمَنِي عَلَى مَالِهِ وَخَلَّفَنِي فِيهِ ! مَاذَا يَكُونُ حَالِي عِنْدَهُ ؟
 وَلَسْتُ أَشْكُ فِي تَهَمَّتِهِ إِيَّايَ . وَلَكِنْ قَدْ وَطَنْتُ نَفْسِي عَلَى
 غَرَامَتِهِ . ثُمَّ أَتَى صَاحِبَهُ فَوَجَدَهُ مُغْتَمًّا ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ؛ فَقَالَ
 إِنِّي قَدْ افْتَقَدْتُ الْأَعْدَالَ ، وَفَقَدْتُ عِدْلًا مِنْ أَعْدَالِكَ ، وَلَا

أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ ، وَإِنِّي لَا أَشُكُّ فِي تَهْمَتِكَ إِيَّايَ ، وَإِنِّي قَدْ وَطَّئْتُ
نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ . فَقَالَ لَهُ : يَا أَخِي لَا تَغْتَمَّ : فَإِنَّ الْحَيَاةَ
شَرٌّ مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ ، وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ لَا يُودِّيَانِ إِلَى خَيْرٍ ،
وَصَاحِبُهُمَا مَغْرُورٌ أَبَدًا ، وَمَا عَادَ وَبَالَ الْبَغْيِ إِلَّا عَلَى صَاحِبِهِ ،
وَأَنَا أَحَدُ مَنْ مَكَرَ وَخَدَعَ وَآخَتَالَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بِخَبْرِهِ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ :
مَا مَثْلُكَ إِلَّا مَثَلُ اللَّصِّ وَالتَّاجِرِ . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ تَاجِرًا كَانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خَاطِئَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ^(٢)
حِنْطَةً ، وَالْأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا . فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللُّصُوصِ
زَمَانًا ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَيَّامِ تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ الْمَنْزِلِ ،
فَتَغَفَّلَهُ^(٣) اللَّصُّ ، وَدَخَلَ الْمَنْزِلَ ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهِ . فَلَمَّا
هَمَّ بِأَخْذِ الْحَاطِيَةِ الَّتِي فِيهَا الدَّنَانِيرُ أَخَذَ الَّتِي فِيهَا الْحِنْطَةُ ،
وَضَنَّهَا الَّتِي فِيهَا الذَّهَبُ ، وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِهَا
مَنْزِلَهُ فَلَمَّا فَتَحَهَا وَعَلِمَ مَا فِيهَا نَدِمَ . قَالَ لَهُ الْخَائِنُ : مَا أَبْعَدَتْ

(١) أشعر . (٢) الخابية الجبأى الجرة الضخمة وأصلها الحمز لأنها من خباء . (٣) اعتنم عفلته .

المثل ، وَلَا تَجَاوَزْتَ الْقِيَّاسَ ، وَقَدْ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطِيئِي
عَلَيْكَ ، وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَهَذَا . غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ
الرَّدِيئَةَ تَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . فَقَبِلَ الرَّجُلُ مَعْذِرَتَهُ ، وَأَضْرَبَ عَنْ
تَوْبِيخِهِ وَعَنِ الثُّقَةِ بِهِ ، وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَ مَا عَايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ
وَتَقْدِيمِ جَهْلِهِ .

وَقَدْ يَنْبَغِي لِلنَّاطِرِ فِي كِتَابِنَا هَذَا أَلَّا تَكُونَ غَايَتُهُ التَّنَصُّفُ
لِتَزَاوِيَقَهُ ، بَلْ يُشْرِفُ^(١) عَلَى مَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْأَمْثَالِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ
مِنْهُ ، وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمَةٍ ، وَيُعْمَلَ فِيهَا رَوِيَّتُهُ ،
وَيَكُونَ مِثْلَ أَصْغَرِ الْإِخْوَةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفَ لَهُمْ أَبُوهُمْ الْمَالَ
الكثيرَ ، فَتَنَازَعُوهُ^(٢) بَيْنَهُمْ ، فَأَمَّا الْكَبِيرَانِ فَإِنَّهُمَا أَسْرَعَا فِي إِنْتِلَافِهِ
وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ
أَخَوَاهُ مِنْ إِسْرَافِهِمَا وَتَخْلِيهِمَا مِنَ الْمَالِ ، أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ
يُسَاوِرُهَا وَقَالَ : يَا نَفْسِي إِنَّكَ الْمَالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ ، وَيَجْمَعُهُ
مِنْ كُلِّ وَجْهِ : لِبَقَاءِ حَالِهِ ، وَصَلَاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاةِ ، وَشَرَفِ

(١) أصل معناه يطلع عليه من فوق والمراد هنا يدقق ويتأمل . (٢) تنازعوه : تناولوه .

مَنْزِلَتِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَاسْتِغْنَانِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَصَرْفِهِ
 فِي وَجْهِهِ : مِنْ صَلََةِ الرَّحِمِ ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَالْإِفْضَالِ
 عَلَى الْإِخْوَانِ . فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلَا يُنْفِقُهُ فِي حُقُوقِهِ ، كَانَ
 كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيرًا وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا . وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِنْسَاكُهُ
 وَالْقِيَامَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَعْدِمِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ ، وَحَمْدٍ
 يُضَافُ إِلَيْهِ ، وَمَتَى قَصَدَ إِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي عَلِمْتَ ،
 لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ . وَلَكِنَّ الرَّأْيَ
 أَنْ أُمْسِكَ هَذَا الْمَالَ ، فَلِئَلَّا أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللَّهُ بِهِ : وَيُغْنِيَ
 أَخَوَى عَلَى يَدَيَّ : فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أَبِيهِمَا . وَإِنْ أَوْلَى
 الْإِنْفَاقِ عَلَى صَلََةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعُدَتْ ، فَكَيْفَ بِأَخَوَى ؟ فَانْفَذَ
 فَأَخْضَرَهُمَا وَشَاطَرَهُمَا مَالَهُ ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِي هَذَا الْكِتَابِ
 أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ خَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ ،
 وَلَا يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ الْإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةٍ بِهِمَتَيْنِ أَوْ مُحَاوَرَةٍ سَبْعٍ
 لِثَوْرِ : فَيَنْصَرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ . وَيَكُونُ مَثَلُهُ
 مَثَلُ الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلُجَانِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ

(١)
 فِي زَوْرٍ فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَرْضِ الْمَاءِ صَدْفَةً تَتَلَّأُ لَا حُسْنًا ،
 فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمَةٌ وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَّتَهُ فِي الْبَحْرِ ،
 فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ ، نَحَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ
 فِي الْمَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدْفَةَ ، فَلَمَّا أَنْحَرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ
 فِيهَا مِمَّا ظَنَّ . فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ ، وَتَأَسَّفَ
 عَلَى مَا فَاتَهُ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ،
 وَأَلْقَى شَبَكَّتَهُ ، فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا ، وَرَأَى أَيْضًا صَدْفَةً سَنِيةً ،
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا ، فَتَرَكَهَا . فَاجْتَاَزَ بِهَا
 بَعْضُ الصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا .
 وَكَذَلِكَ الْجُهَالُ إِذَا أَغْفَلُوا أَمْرَ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَتَرَكَوا
 الْوُقُوفَ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهِ ، وَأَخَذُوا بِظَاهِرِهِ . وَمَنْ صَرَفَ
 هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوَابِ الْهَزْلِ ، كَانَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا
 طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا ، فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا ، حَتَّى إِذَا قُرِبَ خَيْرُهَا

وَأَيَّعَتْ ، تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرِ وَقَطَعَ الشَّوْكَ ،
فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً .

وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ
أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ
غَيْرِ النَّاطِقَةِ لِیُسَارِعَ إِلَى قِرَاءَتِهِ أَهْلُ الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ ،
فَتُسْتَمَالَ بِهِ قُلُوبُهُمْ : لِأَنَّهُ الْغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيلِ الْحَيَوَانِ .
وَالثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ الْحَيَوَانِ بِصُنُوفِ الْأَصْبَاغِ وَالْأَلْوَانِ :
لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ الْمُلُوكِ ، وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلزُّهَّةِ
فِي تِلْكَ الصُّورِ . وَالثَّلَاثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ : فَيَتَّخِذُهُ
الْمُلُوكُ وَالشُّوْقَةُ ، فَيَكْثُرُ بِذَلِكَ اتِّسَاخُهُ ، وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى
مُرُورِ الْأَيَّامِ ، وَلِيَنْتَفِعَ بِذَلِكَ الْمَصُورُ وَالنَّاسِخُ أَبَدًا . وَالْغَرَضُ
الرَّابِعُ ، وَهُوَ الْأَقْصَى ، وَذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْفَيَّاسُوفِ خَاصَّةً .

بَابُ بَرَزَوِيهِ تَرْجَمَهُ بُرْزَجَمَهْرُ بْنُ الْبَخْتِكَانِ

قَالَ بَرَزَوِيهِ رَأْسُ أَطِبَّاءِ فَارِسَ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ
هَذَا الْكِتَابِ ، وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ (وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذَلِكَ
مِنْ قَبْلُ) : أَبِي كَانَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمِّي مِنْ عُظَمَاءِ بُيُوتِ
الزَّمَازِمَةِ . وَكَانَ مَنْشِيٌّ فِي نِعْمَةٍ كَامِلَةٍ ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبِي
عَلَيْهِمَا ، وَكَانَا بِي أَشَدَّ اخْتِفَاطًا مِنْ دُونِ إِخْوَتِي ، حَتَّى إِذَا
بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ ، أَسْلَمَانِي إِلَى الْمُؤَدِّبِ ، فَلَمَّا حَدِثْتُ
الْكِتَابَةَ ، شَكَرْتُ أَبِي ، وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ ، فَكَانَ أَوَّلَ
مَا ابْتَدَأْتُ بِهِ ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ ، عِلْمُ الطَّبِّ : لِأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ
فَضْلَهُ . وَكَلَّمَا ازْدَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا ازْدَدْتُ فِيهِ حِرْصًا ، وَلَهُ اتِّبَاعًا .
فَلَمَّا هَمَّتْ نَفْسِي بِمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى ، وَعَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَتَهَا^(٢)
ثُمَّ خَيْرَتَهَا بَيْنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ ، وَفِيهَا يَرْغَبُونَ ،
وَلَهَا يَسْعَوْنَ . فَقُلْتُ : أَيُّ هَذِهِ الْخِلَالِ أَبْتَغِي فِي عِلْمِي ؟ وَأَيُّهَا
أُخْرَى بِي فَأَذْرِكُ مِنْهُ حَاجَتِي ؟ الْمَالُ ، أَمْ الذِّكْرُ ، أَمْ اللَّذَاتُ

أَمْ الْآخِرَةُ ؟ وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَطِبَّاءِ
 مَنْ وَاظَبَ عَلَى طَبِّهِ ، لَا يَبْتَغِي إِلَّا الْآخِرَةَ . فَرَأَيْتُ أَنَّ أَطْلُبَ
 الْإِشْتِغَالَ بِالطِّبِّ ابْتِغَاءَ الْآخِرَةِ : لِئَلَّا أَكُونَ كَالْتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ
 يَاقُوتَةً مَمِينَةً بِخَرَزَةٍ لَا تُسَاوِي شَيْئًا ، مَعَ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ
 الْأَوَّلِينَ أَنَّ الطَّيِّبَ الَّذِي يَبْتَغِي بِطَبِّهِ أَجْرَ الْآخِرَةِ لَا يَنْقُصُهُ
 ذَلِكَ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا . وَإِنَّ مِثْلَهُ مِثْلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَغْمُرُ أَرْضَهُ
 ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ لَا ابْتِغَاءَ الْعُشْبِ ، ثُمَّ هِيَ لَا مُحَالَةٌ نَابَتْ فِيهَا أَلْوَانُ
 الْعُشْبِ مَعَ يَانِعِ الزَّرْعِ . فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرَضَى ابْتِغَاءَ أَجْرِ
 الْآخِرَةِ ، فَلَمْ أَدْعَ مَرِيضًا أَرْجُو لَهُ الْبُرءَ ، وَآخِرًا لَا أَرْجُو لَهُ
 ذَلِكَ ، إِلَّا أَنِّي أَطْمَعُ أَنْ يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ الْمَرَضِ ، إِلَّا بِالْأَغْتِ
 فِي مُدَاوَاتِهِ مَا أَمَكَّنِي الْقِيَامُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي ؛ وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى
 الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَصَفْتُ لَهُ مَا يُصْلِحُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّوَاءِ مَا يُعَالِجُ
 بِهِ . وَلَمْ أَرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذَلِكَ بَرَءًا وَلَا مُكَافَأَةً ؛ وَلَمْ أَغِيظْ
 أَحَدًا مِنْ نُظَرَائِي الَّذِينَ هُمْ دُونِي فِي الْعِلْمِ وَفَوْقِي فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ
 وَغَيْرِهِمَا مِمَّا لَا يَحُورُ فِيهِ بَصَافَاتُ الْحَيَاةِ وَلَا يُجْنَسُ سِيرَةُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا .

(١)
وَلَمَّا تَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى غَشِيَانِهِمْ وَتَمَنَّتْ مَنَازِلَهُمْ أَثَبْتُ لَهَا الْخُصُومَةَ؛
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ ، أَمَا تَعْرِفِينَ نَفْعَكَ مِنْ ضُرِّكَ ؟ أَلَا تَنْتَهِينَ
عَنْ تَمَنِّي مَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ إِلَّا قَلَّ انْتِفَاعُهُ بِهِ ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيهِ ،
وَاشْتَدَّتْ الْمُسْتُونَةُ عَلَيْهِ وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ ؟ يَا نَفْسِي ،
أَمَا تَذْكُرِينَ مَا بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ : فَيُنْسِيكَ مَا تَشْرَهِينَ إِلَيْهِ مِنْهَا ؟
أَلَا تَسْتَحِينِ مِنْ مُشَارَكَةِ الْفُجَّارِ فِي حُبِّ هَذِهِ الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ
الَّتِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ ، وَلَيْسَ بِبَاقٍ عَلَيْهِ ،
فَلَا يَأْلُفُهَا إِلَّا الْمَغْتَرُونَ الْجَاهِلُونَ ؟ يَا نَفْسُ انْظُرِي فِي أَمْرِكَ ،
وَانصُرِي عَنِ هَذَا السَّفْهِ ، وَأَقْبِلِي بِقُوَّتِكَ وَسَعْيِكَ عَلَى تَقْدِيمِ
الْخَيْرِ ، وَإِيَّاكَ وَالشَّرَّ ، وَادْكُرِي أَنَّ هَذَا الْجَسَدَ مَوْجُودٌ لِآفَاتٍ ،
وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ أَخْلَاطًا فَاسِدَةً قَدِيرَةٌ ، تَعْقِدُهَا الْحَيَاةُ ، وَالْحَيَاةُ إِلَى
نَفَادٍ ، كَالصَّنَمِ الْمُفْصَلَةِ أَعْضَاؤُهُ إِذَا رُكِبَتْ وَوُضِعَتْ ، يَجْمَعُهَا
مِسْمَارٌ وَاحِدٌ ، وَيَضُمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا أُخِذَ ذَلِكَ الْمِسْمَارُ
تَسَاقَطَتِ الْأَوْصَالُ . يَا نَفْسُ ، لَا تَغْتَرِي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكَ

وَأَصْحَابِكَ ، وَلَا تَحْرِصِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ الْحَرْصِ : فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ -
 عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الشَّرِّ - كَثِيرَةٌ الْمُتُونَةُ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ الْفِرَاقُ .
 وَمِثْلُهَا مِثْلُ الْمِغْرَفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِهَا لِسُخُونَةِ الْمَرْقِ ،
 فَإِذَا انْكَسَرَتْ صَارَتْ وَقُودًا . يَا نَفْسُ ، لَا يَحْمِلَنَّكَ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ
 عَلَى جَمْعِ مَا تَهْلِكُ فِيهِ ، إِرَادَةُ صَلَاتِهِمْ ، فَإِذَا أَنْتِ كَالدُّخْنَةِ
 الْأَرْجَةِ الَّتِي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخَرُونَ بِرِيحِهَا . يَا نَفْسُ ، لَا يَبْعُدُ
 عَلَيْكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ فَتَمِيلِي إِلَى الْعَاجِلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَلِيلِ وَبَيْعِ
 الْكَثِيرِ بِالْيَسِيرِ ، كَالتَّاجِرِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِلٌّ بِبَيْتٍ مِنَ الصَّنَدِلِ ،
 فَقَالَ : إِنْ بَعْتُهُ وَزَنَا طَالَ عَلَيَّ ، فَبَاعَهُ جُزْأً بِأَبْجَسِ الثَّمَنِ .
 وَقَدْ وَجَدْتُ آرَاءَ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً وَأَهْوَاءَهُمْ مُتَبَايِنَةً ، وَكُلُّ عَلَى
 كُلِّ رَأْيٍ ، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتَابٌ ، وَلِقَوْلِهِ مُخَالِفٌ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ
 لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلًا ، وَعَرَفْتُ أَنَّي إِنْ صَدَّقْتُ
 أَحَدًا مِنْهُمْ لَا عِلْمَ لِي بِحَالِهِ ، كُنْتُ فِي ذَلِكَ كَالْمُصَدِّقِ الْمَخْدُوعِ

(١) الدخنة : بخور تجر به الثياب أو البيت . (٢) ذات الرائحة الطيبة .

(٣) مثلث الفاء أى بالحدس والتقدير .

الَّذِي زَعَمُوا فِي شَأْنِهِ أَنَّ سَارِقًا عَلَا ظَهْرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ،
وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَاسْتَيْقَظَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ مِنْ
حَرَكَةِ أَقْدَامِهِمْ ، فَعَرَفَ أَمْرَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : رُويدا إني
لَأُخَسِبُ اللَّصُوصَ عَلَوًا الْبَيْتَ ، فَأَيُّقِظُنِي بِصَوْتِ يَسْمَعُهُ
اللَّصُوصُ وَقَوْلِي أَلَا تُخْبِرُنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوَالِكَ هَذِهِ الْكَثِيرَةِ
وَكُنُوزِكَ الْعَظِيمَةِ ؟ فَإِذَا نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا السُّوَالِ فَأَلْحِي عَلَى
بِالسُّوَالِ . فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَهَا ، وَأَنْصَتَتْ
اللَّصُوصَ إِلَى سَمَاعِ قَوْلِهِمَا . فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ : أَيُّهَا الْمَرْأَةُ ، قَدْ
سَاقَكَ الْقَدَرُ إِلَى رِزْقٍ وَاسِعٍ كَثِيرٍ : فَكُلِي وَأَسْكُتِي ، وَلَا تَسْأَلِي
عَنْ أَمْرِ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِهِ لَمْ آمِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ ، فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ
مَا أَكْرَهُ وَتَكْرَهِي . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَلَعَمْرِي
مَا يَقْرُبُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلَامَنَا . فَقَالَ لَهَا : فَإِنِّي أَخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجْمَعْ
هَذِهِ الْأَمْوَالَ إِلَّا مِنَ السَّرِيقَةِ . قَالَتْ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ وَمَا
كُنْتَ تَصْنَعُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ لِعَلِّمِ أَصْبَتَهُ فِي السَّرِيقَةِ ، وَكَانَ
الْأَمْرُ عَلَى يَسِيرٍ ، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهَمَنِي أَحَدٌ أَوْ يَرْتَابَ فِي .

قَالَتْ : فَاذْكُرْنِي ذَلِكَ ، قَالَ : كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقَمَّرَةِ ،
 أَنَا وَأَصْحَابِي ، حَتَّى أَعْلُو دَارَ بَعْضِ الْأَغْنِيَاءِ مِثْلِنَا ؛ فَاتَّهَى إِلَى
 الْكَوَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضَّوُّ فَأَرَقِي بِهِذِهِ الرُّقِيَّةَ وَهِيَ شَوْلَمُ شَوْلَمُ
 سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَأَعْتَنَقُ الضَّوُّ ؛ فَلَا يُحْسِ بِوُقُوعِي أَحَدٌ ، فَلَا
 أَدْعُ مَالًا وَلَا مَتَاعًا إِلَّا أَخَذْتُهُ . ثُمَّ أَرَقِي بِتِلْكَ الرُّقِيَّةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ،
 وَأَعْتَنَقُ الضَّوُّ ؛ فَيَجْذِبُنِي ؛ فَأَضَعُهُ إِلَى أَصْحَابِي ، فَنَمْضِي
 سَالِمِينَ آمِنِينَ . فَلَمَّا سَمِعَ اللَّصُوصُ ذَلِكَ قَالُوا : قَدْ ظَفَرْنَا
 اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيدُ مِنَ الْمَالِ ؛ ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا الْمُسْكُثَ حَتَّى ظَنُّوا
 أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا ؛ فَقَامَ قَائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ
 الضَّوِّ ؛ وَقَالَ : شَوْلَمُ شَوْلَمُ سَبْعَ مَرَّاتٍ ؛ ثُمَّ آعْتَنَقَ الضَّوُّ
 لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنْزِلِ ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنْكَسًا . فَوَثَبَ إِلَيْهِ
 الرَّجُلُ بِهَرَاوَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الْمُصَدِّقُ
 الْمَخْدُوعُ الْمُغْتَرِّ بِمَا لَا يَكُونُ أَبَدًا ؛ وَهَذِهِ ثَمَرَةُ رُقِيَّتِكَ . فَلَمَّا تَحَرَّزْتُ
 مِنْ تَصَدِيقِ مَا لَا يَكُونُ ، وَلَمْ أَمِنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أَنْ يُوقِعَنِي فِي مَهْلَكَةٍ
 عُدْتُ إِلَى طَلَبِ الْأَذْيَانِ وَالْتِمَاسِ الْعَدْلِ مِنْهَا ؛ فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ

أَحَدٍ مِّنْ كَلِمَتِهِ جَوَابًا فِيمَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فِيهَا ، وَلَمْ أَرَفِيَا كَلِمُونِي بِهِ شَيْئًا يَحِقُّ لِي فِي عَقْلِي أَنْ أَصَدِّقَ بِهِ وَلَا أَنْ أَتَّبِعَهُ . فَقُلْتُ لِمَا لَمْ أَجِدْ ثِقَةً أَخَذُ مِنْهُ ، الرَّأْيُ أَنَّ الزَّمَّ دِينَ آبَائِي وَأَجْدَادِي الَّذِي وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ . فَلَمَّا ذَهَبْتُ التَّمِسُ الْعُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُومِ دِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، لَمْ أَجِدْ لَهَا عَلَى الثَّبُوتِ عَلَى دِينِ الْآبَاءِ طَاقَةً ؛ بَلْ وَجَدْتُهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الْأَدْيَانِ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهَا ، وَلِلنَّظَرِ فِيهَا ؛ فَهَجَسَ^(١) فِي قَلْبِي وَخَطَرَ عَلَى بَالِي قُرْبُ الْأَجَلِ وَسُرْعَةُ انْقِطَاعِ الدُّنْيَا وَاعْتِبَاطُ أَهْلِهَا وَتَحْرِمُ الدَّهْرِ حَيَاتَهُمْ^(٢) . فَفَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ وَالتَّحَوُّلِ ، رَأَيْتُ^(٣) الْآتِ أَعْرَضَ لِمَا اتَّخَوْفُ مِنْهُ الْمَكْرُوهَ ؛ وَأَنْ أَقْتَصِرَ عَلَى عَمَلٍ تَشْهَدُ النَّفْسُ أَنَّهُ يُوَافِقُ كُلَّ الْأَدْيَانِ . فَكَفَفْتُ يَدَيَّ عَنِ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ ، وَطَرَحْتُ نَفْسِي عَنِ الْمَكْرُوهِ وَالْغَضَبِ وَالسَّرِيقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْغِيبَةِ ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي الْآبِغِيَّ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَكْذِبَ بِالْبَعْثِ وَلَا الْقِيَامَةِ وَلَا الثَّوَابِ وَلَا

(١) وقع وخطر وبابه ضرب . (٢) هلاكهم بدون مرض . (٣) القطع والاستئصال .

العِقَابُ ، وَزَايَلْتُ الْأَشْرَارَ بِقَلْبِي ، وَحَاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الْأَخْيَارِ
بِجُهْدِي ، وَرَأَيْتُ الصَّلَاحَ لَيْسَ كَمَثَلِهِ صَاحِبٌ وَلَا قَرِينٌ ،
وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللَّهُ وَأَعَانَ يَسِيرًا ، وَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى
الْخَيْرِ وَيُشِيرُ بِالنُّصْحِ ، فِعَلَ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ ، وَوَجَدْتُهُ
لَا يَنْقُصُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مِنْهُ ، بَلْ يَزْدَادُ جِدَّةً وَحُسْنًا ، وَوَجَدْتُهُ
لَا خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْصِبَهُ ، وَلَا مِنَ الْمَاءِ أَنْ
يُغْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ اللَّصُوصِ أَنْ تَسْرِقَهُ ،
وَلَا مِنَ السِّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمَزِّقَهُ ، وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ
السَّاهِيَ اللَّاهِيَّ الْمُؤَثِّرَ الْيَسِيرَ يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ وَيَعْدَمُهُ فِي غَدِهِ عَلَى
الْكَثِيرِ الْبَاقِي نَعِيمُهُ ، يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ
كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ ، فَاسْتَأْجَرَ لِنَقِيهِ رَجُلًا ، الْيَوْمَ بِمِائَةِ دِينَارٍ ،
وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ ، وَإِذَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ صَنْجٌ^(٢)
مَوْضُوعٌ . فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ : هَلْ تُحْسِنُ أَنْ تَلْعَبَ بِالصَّنْجِ ؟

(١) هي ضد البلى . (٢) الصنج نوعان : ما يتخذ من الصفر يضرب به مع الدف

(ويسمى عند عوام مصر بالكاسات) وما له أوتار .

قَالَ : نَعَمْ . وَكَانَ يَلْعَبُهُ مَاهِرًا . فَقَالَ التَّاجِرُ : دُونَكَ وَالصَّنَجِ
فَأَسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ . فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنَجَ ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ
الضَّرْبَ الصَّحِيحَ ، وَالصَّوْتَ الرَّفِيعَ ، وَالتَّاجِرُ يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ
طَرِبًا ، حَتَّى أَمْسَى . فَلَمَّا حَانَ الْغُرُوبُ قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ :
مُرْنِي بِالْأُجْرَةِ . فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ : وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئًا تَسْتَحِقُّ بِهِ
لِأُجْرَةٍ ؟ فَقَالَ لَهُ : عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، وَأَنَا أُجِيرُكَ ، وَمَا
سَتَعَمَلْتَنِي عَمِلْتُ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِائَةَ دِينَارٍ .
وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوبٍ . فَلَمْ أَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظْرًا ، إِلَّا
أَزْدَدْتُ فِيهَا زَهَادَةً وَمِنْهَا هَرَبًا . وَوَجَدْتُ^(١) النَّسِكَ هُوَ الَّذِي
يُمَهِّدُ لِلْعَادِ كَمَا يُمَهِّدُ الْوَالِدُ لِوَلَدِهِ ، وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْبَابُ الْمَفْتُوحُ
إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فِعْلَتُهُ بِالسَّكِينَةِ
فَشَكَرَ ، وَتَوَاضَعَ وَقَنَعَ فَاسْتَغْنَى ، وَرَضِيَ وَلَمْ يَهْتَمْ ، وَخَلَعَ الدُّنْيَا
فَنَجَا مِنَ الشُّرُورِ ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ طَاهِرًا ، وَاطَّرَحَ
الْحَسَدَ فَوَجَبَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَاسْتَعْمَلَ

(١) النسك مثله النون وبضمين : العبادة .

العقل وَأَبْصَرَ الْعَاقِبَةَ فَأَمِنَ النَّدَامَةَ ، وَلَمْ يَخَفِ النَّاسَ وَلَمْ يَدْبِ
إِلَيْهِمْ فَسَلِمَ مِنْهُمْ . فَلَمْ أَزْدَدْ فِي أَمْرِ النَّسِكِ نَظْرًا ، إِلَّا أَزْدَدْتُ
فِيهِ رَغْبَةً ، حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ . ثُمَّ تَخَوَّفْتُ
أَلَّا أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ النَّاسِ ، وَلَمْ آمَنْ أَنْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا وَأَخَذْتُ
فِي النَّسِكِ ، أَنْ أَضْعُفَ عَنْ ذَلِكَ ، وَرَفَضْتُ أَعْمَالًا كُنْتُ أَرْجُو
عَائِدَتَهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُهَا فَأَنْتَفِعَ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَيَكُونُ
مَثَلِي فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ وَفِي فِيهِ ضِلْعٌ ، فَرَأَى
ظِلَّهَا فِي الْمَاءِ ، فَهَوَى لِيَأْخُذَهَا ، فَأَتْلَفَ مَا كَانَ مَعَهُ ، وَلَمْ يَجِدْ
فِي الْمَاءِ شَيْئًا . فَهَبْتُ النَّسِكَ مَهَابَةً شَدِيدَةً ، وَخِفْتُ مِنْ
الضَّجَرِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ ، وَأَرَدْتُ الثَّبُوتَ عَلَى حَالَتِي الَّتِي كُنْتُ
عَلَيْهَا . ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أُسْبِرَ مَا أَخَافُ إِلَّا أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى
وَالضَّيْقِ وَالْحُشُونَةِ فِي النَّسِكِ ، وَمَا يُصِيبُ صَاحِبَ الدُّنْيَا مِنَ
الْبَلَاءِ ، وَكَانَ عِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَائِهَا

إِلَّا وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الْأَذَى وَمَوْلِدٌ لِلْحَزَنِ . فَالذُّنْيَا كَالْمَاءِ الْمِنْحِ
الَّذِي لَا يَزْدَادُ شَارِبُهُ شُرْبًا ، إِلَّا آزْدَادَ عَطْشًا . وَهِيَ كَالْعَظْمِ
الَّذِي يُصِيبُهُ الْكَلْبُ فَيَجِدُ فِيهِ رِيحَ اللَّحْمِ ، فَلَا يَزَالُ يَطْلُبُ
ذَلِكَ حَتَّى يُذِمِّيَ فَاهُ . وَكَالْحِدَاةِ الَّتِي تَظْفَرُ بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ ،
فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ ، فَلَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَدَّأْبُ حَتَّى تَغِيَا
وَتَتَعَبَ ، فَإِذَا تَعِبَتْ أُلْقَتْ مَا مَعَهَا . وَكَالْكُوزِ مِنَ الْعَسَلِ
الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السَّمُّ الَّذِي يُذَاقُ مِنْهُ حَلَاوَةٌ عَاجِلَةٌ وَآخِرُهُ مَوْتُ
ذُعَافٌ^(١) ، وَكَأَحْلَامِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ ،
فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الْفَرَحُ . فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ،
رَجَعْتُ إِلَى طَلَبِ النَّسِكِ ، وَهَزَّنِي الْأَشْتِيَاقُ إِلَيْهِ ،
ثُمَّ خَاصَمْتُ نَفْسِي إِذْ هِيَ فِي شُرُورِهَا سَارِحَةٌ ، وَقَدْ لَا تَثْبُتُ
عَلَى أَمْرٍ تَعَزِّمُ عَلَيْهِ : كَقَاضِ سَمِيعٍ مِنْ خَضِيمٍ وَاحِدٍ فَحَكَمَ لَهُ ،
فَلَمَّا حَضَرَ الْخَضِيمُ الثَّانِي عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ وَقَضَى عَلَيْهِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الدِّي أكَابِدُهُ مِنْ أَحْتِمَالِ النَّسِكِ وَضِيقِهِ ، فَقُلْتُ :
 مَا أَصْغَرَ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ فِي جَانِبِ رَوْحِ الْأَبَدِ وَرَاحَتِهِ . ثُمَّ نَظَرْتُ
 فِيمَا تَشْرُهُ إِلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : مَا أَمْرٌ هَذَا
 وَأَوْجَعُهُ ، وَهُوَ يَدْفَعُ إِلَى عَذَابِ الْأَبَدِ وَأَهْوَالِهِ ! وَكَيْفَ لَا يَسْتَحْلِي
 الرَّجُلُ مَرَارَةً قَلِيلَةً تَعْقُبُهَا حَلَاوَةٌ طَوِيلَةٌ ؟ وَكَيْفَ لَا تَمُرُّ عَلَيْهِ
 حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ تَعْقُبُهَا مَرَارَةٌ دَائِمَةٌ ؟ وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا
 عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْيشَ مِائَةَ سَنَةٍ ، لَا يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ
 إِلَّا بَضْعَ مِنْهُ بَضْعَةٌ ^(٢) ، ثُمَّ أُعِيدَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُشْرَطُ لَهُ ،
 أَنَّهُ إِذَا اسْتَوْفَى السِّنِينَ الْمِائَةَ ، نَجَا مِنْ كُلِّ أَلَمٍ وَأَذَى ، وَصَارَ
 إِلَى الْأَمْنِ وَالسُّرُورِ ، كَانَ حَقِيقًا إِلَّا يَرَى تِلْكَ السِّنِينَ شَيْئًا .
 وَكَيْفَ يَأْتِي الصَّبْرَ عَلَى أَيَّامٍ قَلَائِلَ يَعْيشُهَا فِي النَّسِكِ ، وَأَذَى
 تِلْكَ الْأَيَّامِ قَلِيلٌ يُعَقَّبُ خَيْرًا كَثِيرًا ؟ فَلْنَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا بَلَاءٌ
 وَعَذَابٌ . أَوَلَيْسَ الْإِنْسَانُ إِثْمًا يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابِ الدُّنْيَا مِنْ

حِينَ يَكُونُ جَنِينًا إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ؟ فَإِذَا كَانَ طِفْلاً
ذَاقَ مِنَ الْعَذَابِ الْوَنَاءَ : إِنْ جَاعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِطْعَامٌ ،
أَوْ عَطَشَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِسْقَاءٌ ، أَوْ وَجَعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِغَاثَةٌ ،
مَعَ مَا يَلْقَى مِنَ الْوَضْعِ وَالْحَمْلِ وَاللَّفِّ وَالذَّهْنِ وَالْمَسْحِ ،
إِنْ أُنِيمَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقَلُّبًا ، ثُمَّ يَلْقَى أَصْنَافَ الْعَذَابِ
مَا دَامَ رَضِيْعًا ، فَإِذَا أَفْلَتَ مِنَ عَذَابِ الرِّضَاعِ ، أَخَذَ فِي عَذَابِ
الْأَدَبِ ، فَأَذِيقَ مِنْهُ الْوَنَاءَ : مِنْ عُذْفِ الْمُعَلِّمِ ، وَضَجَرِ
الدَّرْسِ ، وَسَامَةِ الْكِتَابَةِ ، ثُمَّ لَهُ مِنَ الدَّوَاءِ وَالْجُمُيَةِ وَالْأَسْقَامِ
وَالْأَوْجَاعِ أَوْفَى حِظٍّ . فَإِذَا أَذْرَكَ كَانَتْ هِمَّتُهُ فِي جَمْعِ الْمَالِ
وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ وَمُخَاطَرَةِ الطَّلَبِ وَالسَّعْيِ وَالْكَدِّ وَالتَّعَبِ . وَهُوَ مَعَ
ذَلِكَ يَتَقَلَّبُ مَعَ أَعْدَائِهِ الْبَاطِنِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُ : وَهِيَ الصَّفَرَاءُ
وَالسُّودَاءُ وَالرَّيْحُ وَالْبَلْغَمُ وَالْدَّمُ وَالسَّمُّ الْمُمِيتُ وَالْحَيَّةُ اللَّاذِعَةُ ،
مَعَ الْخَوْفِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْهَوَاِمْ ، مَعَ صَرْفِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ
وَالْمَطَرِ وَالرِّيَّاحِ ، ثُمَّ أَنْوَاعَ عَذَابِ الْهَرَمِ لِمَنْ يَبْلُغُهُ . فَلَوْلَمْ

يَخَفُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ شَيْئًا ، وَكَانَ قَدْ أَمِنَ وَوَثِقَ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا
فَلَمْ يُفَكِّرْ فِيهَا ، لَوَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَبَّرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي يَحْضُرُهُ فِيهَا
الْمَوْتُ ، فَيُفَارِقُ الدُّنْيَا ، وَيَتَذَكَّرُ مَا هُوَ نَازِلٌ بِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ :
مِنْ فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ وَالْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَكُلِّ مَضْنُونٍ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا ،
وَالْإِشْرَافِ عَلَى الْهَزْلِ الْعَظِيمِ بَعْدَ الْمَوْتِ . فَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ،
لَكَانَ حَقِيقًا أَنْ يُعَدَّ عَاجِزًا مُفْرَطًا مُجَبًّا لِلدَّنَاءَةِ مُسْتَحِقًّا لِلنُّومِ ،
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا يَحْتَالُ لِغَدِ جُهْدَهُ فِي الْحِيلَةِ ، وَيَرْفُضُ
مَا يَشْغَلُهُ وَيُلْهِمُهُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغُرُورِهَا ؟ وَلَا سِيَّامَا فِي هَذَا
الزَّمَانِ الشَّيْبَةِ بِالصَّافِي وَهُوَ كَدِرٌ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ حَازِمًا عَظِيمَ
الْمَقْدَرَةِ ، رَفِيعَ الْهِمَّةِ بَلِيعَ الْفَخْرِ ، عَدْلًا مَرْجُوعًا صَدُوقًا
شُكُورًا ، رَحْبَ الذِّرَاعِ مُفْتَقِدًا مُوَظِّبًا مُسْتَمِرًّا عَالِمًا بِالنَّاسِ
وَالْأُمُورِ ، مُحِبًّا لِلْعِلْمِ وَالْخَيْرِ وَالْأَخْيَارِ ، شَدِيدًا عَلَى الظَّالِمَةِ ، غَيْرَ
جَبَانٍ وَلَا خَفِيفِ الْقِيَادِ ، رَفِيقًا بِالتَّوَشُّعِ عَلَى الرِّعْيَةِ فِيمَا يُحِبُّونَ ،
وَالدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُونَ ، فَإِنَّا قَدْ نَرَى الزَّمَانَ مُذِيرًا بِكُلِّ مَكَانٍ ،
فَكَأَنَّ أُمُورَ الصِّدْقِ قَدْ تُزِعَتْ مِنَ النَّاسِ ، فَأَصْبَحَ مَا كَانَ

عَزِيزًا فَقَدَهُ مَفْقُودًا ، وَمَوْجُودًا مَا كَانَ ضَائِرًا ^(١) وَجُودُهُ . وَكَانَ
 الْخَيْرَ أَصْبَحَ ذَائِلًا وَالشَّرَّ أَصْبَحَ نَاضِرًا . وَكَانَ الْفَهْمَ أَصْبَحَ قَدْ
 زَالَتْ سَبْلُهُ . وَكَانَ الْحَقَّ وَلَّى كَسِيرًا وَأَقْبَلَ الْبَاطِلَ تَابِعَهُ . وَكَانَ
 اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ وَإِضَاعَةَ الْحَكِيمِ أَصْبَحَ بِالْحُكَّامِ مُوَكَّلًا ، وَأَصْبَحَ
 الْمَظْلُومُ بِالْخَفِيفِ مُقَرًّا وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مُسْتَطِيلًا . وَكَانَ الْحِرْصَ
 أَصْبَحَ فَاعِرًا فَاهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَتَلَقَّفُ مَا قَرُبَ مِنْهُ وَمَا بَعُدَ .
 وَكَانَ الرِّضَا أَصْبَحَ مَجْهُولًا . وَكَانَ الْأَشْرَارَ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ
 صُعُودًا . وَكَانَ الْأَخْيَارَ يُرِيدُونَ بَطْنَ الْأَرْضِ ، وَأَصْبَحَتِ
 الْمُرُوءَةُ مَقْدُوفًا بِهَا مِنْ أَعْلَى شَرَفٍ إِلَى أَسْفَلِ دَرَكٍ ، وَأَصْبَحَتِ
 الدَّنَاءَةُ مَكْرَمَةً مُمَكَّنَةً ، وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَقِلًا ^(٢) عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ
 إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ . وَكَانَ الدُّنْيَا جَذَلَةً مَسْرُورَةً تَقُولُ : قَدْ غُيِّبَتِ
 الْخَيْرَاتُ وَأُظْهِرَتِ السَّيِّئَاتُ . فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَأُمُورِهَا ،
 وَأَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِيهَا وَأَفْضَلُهُ ، ثُمَّ هُوَ لَا يَتَقَلَّبُ
 إِلَّا فِي الشُّرُورِ وَالْهُمُومِ ، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ ذُو عَقْلٍ يَعْلَمُ

ذَلِكَ ثُمَّ لَا يَحْتَالُ لِنَفْسِهِ فِي النِّجَاةِ ؛ فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ الْعَجَبِ .
 ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا الْإِنْسَانُ لَا يَمْنَعُهُ عَنِ الْإِحْتِيَالِ لِنَفْسِهِ إِلَّا لَذَّةُ
 صَغِيرَةٍ حَقِيرَةٍ غَيْرُ كَبِيرَةٍ مِنَ الشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَاللَّمْسِ :
 فَعَلَهُ يُصِيبُ مِنْهَا الطَّفِيفُ أَوْ يَقْتَنِي مِنْهَا الْيَسِيرُ ؛ فَإِذَا ذَلِكَ
 يَشْغُلُهُ وَيَذْهَبُ بِهِ عَنِ الْإِهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النِّجَاةِ لَهَا .

فَالْتَمَسْتُ لِلْإِنْسَانِ مَثَلًا ، فَإِذَا مَثَلُهُ مِثْلُ رَجُلٍ نَجَا مِنْ خَوْفِ
 فِيلٍ هَائِجٍ إِلَى بَيْتٍ ، فَتَدَلَّى فِيهَا ، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ كَانَا عَلَى
 سَمَائِهَا ، فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَى الْبَيْتِ . فَإِذَا حَيَاتٌ
 أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَ رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهِنَّ ، ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا فِي قَاعِ
 الْبَيْتِ تَيْنِ^(١) فَاتِحٌ فَاهُ مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ ؛ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى
 الْغُصْنَيْنِ فَإِذَا فِي أَصْلِهِمَا جُرْذَانِ^(٢) أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وَهُمَا يَقْرِضَانِ
 الْغُصْنَيْنِ دَائِبَيْنِ لَا يَفْتَرَانِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ وَالْإِهْتِمَامِ
 لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَبْصَرَ قَرِيبًا مِنْهُ كَوَارَةً^(٣) فِيهَا عَسَلٌ نَحْلٍ ؛ فَذَاقَ

(١) ضرب من الحيات . (٢) مثنى جرذ : ضرب من الفأر . (٣) شئ . يتخذ للنحل
 من القضبان وهي الخلية .

الْعَسَلُ ، فَشَغَلَتْهُ حَلَاوَتُهُ وَأَلْهَتْهُ لَذَّتُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَأَنْ يَأْتِمِسَ الْخِلَاصَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَذَرِي مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْخُرْدَيْنِ دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الْغُصْنَيْنِ ، وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ عَلَى التَّنِينِ . فَلَمْ يَزَلْ لَاهِيًا غَافِلًا مَشْغُولًا بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي فَمِ التَّنِينِ فَهَلَكَ . فَشَبَّهْتُ بِالْبِئْرِ الدُّنْيَا الْمَمْلُوءَةَ آفَاتٍ وَشُرُورًا ، وَمَخَافَاتٍ وَعَاقَاتٍ ، وَشَبَّهْتُ بِالْحَيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ : فَإِنَّهَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ أَحْدَهَا كَانَتْ كَحُمَةٍ^(١) الْأَفَاعِي وَالسَّمِّ الْمُحِيتِ ، وَشَبَّهْتُ بِالْغُصْنَيْنِ الْأَجَلَ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْ انْقِطَاعِهِ ، وَشَبَّهْتُ بِالْخُرْدَيْنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ هُمَا دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الْأَجَلِ ، وَشَبَّهْتُ بِالتَّنِينِ الْمَصِيرِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَشَبَّهْتُ بِالْعَسَلِ هَذِهِ الْحَلَاوَةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ فَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ وَيَلْبَسُ ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ . فَحَيْذُ

(١) إبرة النحلة ونحوها .

صَارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَا بِحَالِي وَإِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلَاحَهُ
 مِنْ عَمَلِي : لَعَلِّي أَصَادِفُ بَاقِيَ أَيَّامِي زَمَانًا أُصِيبُ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى
 هُدَايَ ، وَسُلْطَانًا عَلَى نَفْسِي ، وَقِيَامًا لِأَمْرِي ، فَأَقَمْتُ عَلَى هَذِهِ
 الْحَالِ وَانْتَسَخْتُ كُتُبًا كَثِيرَةً ، وَانْصَرَفْتُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، وَقَدْ
 نَسَخْتُ هَذَا الْكِتَابَ . (انقضى باب برزويه المتطّيب)

بَابُ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ وَهُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ ، وَهُوَ رَأْسُ الْبِرَاهِمَةِ :
 أَضْرِبْ لِي مَثَلًا لِمُتَحَابِّينِ يَقْطَعُ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ الْمُحْتَالُ ، حَتَّى
 يَحْمِلَهُمَا عَلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ . قَالَ بَيْدَبَا : إِذَا أَبْتُلِيَ الْمُتَحَابِّانِ
 بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ الْمُحْتَالُ ، لَمْ يَلْبِثَا أَنْ يَتَقَاطَعَا
 وَيَتَدَابَّرَا . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ دَسْتَاوَنْدَ رَجُلٌ
 شَيْخٌ ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ . فَلَمَّا بَلَغُوا أَشَدَّهُمْ اسْرَفُوا فِي مَالِ
 آبَائِهِمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا أَحْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِهَا خَيْرًا .

فَلَا مَهْمُ أَبُوهُمْ ، وَوَعَظَهُمْ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ :
 يَا بَنِيَّ إِنْ صَاحِبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ لَنْ يُدْرِكَهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةِ
 أَشْيَاءَ : أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ ، فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَالْمَنْزِلَةُ
 فِي النَّاسِ وَالزَّادُ لِلْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دُرُكِ
 هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ، فَاتِّسَابُ الْمَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهِ يَكُونُ ،
 ثُمَّ حُسْنُ الْقِيَامِ عَلَى مَا اكْتَسَبَ مِنْهُ ، ثُمَّ اسْتِثْمَارُهُ ، ثُمَّ إِنْفَاقُهُ
 فِيمَا يَصْلِحُ الْمَعِيشَةَ وَيُرِضِي الْأَهْلَ وَالْإِخْوَانَ ، فَيَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ
 فِي الْآخِرَةِ . فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ لَمْ يُدْرِكْ مَا أَرَادَ
 مِنْ حَاجَتِهِ : لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيشُ
 بِهِ ، وَإِنْ هُوَ كَانَ ذَا مَالٍ وَاتَّسَابَ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنْ الْقِيَامَ عَلَيْهِ ،
 أَوْ شَكَّ الْمَالُ أَنْ يَفْنَى وَيَبْقَى مُعْدِمًا ، وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ
 يَسْتِثْمِرْهُ ، لَمْ تَمْنَعُهُ قِلَّةُ الْإِنْفَاقِ مِنْ سُرْعَةِ الذَّهَابِ : كَالْكُحْلِ
 الَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلَّا غُبَارُ الْمِيلِ ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيعٌ فَنَاءٌ .
 وَإِنْ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَاخْطَأَ
 بِهِ مَوَاضِعَ اسْتِحْقَاقِهِ ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ ،

ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مَالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالْحَوَادِثِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ ؛ كَمَحْبِسِ الْمَاءِ الَّذِي لَا تَزَالُ الْمِيَاهُ تَنْصَبُ فِيهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ وَمَفِيزٌ وَمُتَنَفِّسٌ يَخْرُجُ الْمَاءُ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا يَنْبَغِي ، نَحْرَبَ وَسَالَ وَتَزَّ مِنْ نَوَاجِحِ كَثِيرَةٍ ، وَرُبَّمَا انْبَثَقَ الْبَثْقُ الْعَظِيمُ فَذَهَبَ الْمَاءُ ضَيَاعًا . ثُمَّ إِنَّ بَنِي الشَّيْخِ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ آبَائِهِمْ وَأَخَذُوا بِهِ وَعَلِمُوا أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ ؛ فَانْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ تَحَوُّ أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا مَيُونُ ، فَأَتَى فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ وَحَلٌّ كَثِيرٌ ، وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجْرُهَا ثَوْرَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا شَتْرَبَةٌ وَلِلْآخَرِ بَنْدَبَةٌ ، فَوَحَلَ شَتْرَبَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَعَالَجَهُ الرَّجُلُ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ الْجَهْدُ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْرَاجِهِ ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ وَخَلَّفَ عِنْدَهُ رَجُلًا يُسَارِفُهُ : لَعَلَّ الْوَحَلَ يَنْشَفُ فَيَتَّبِعُهُ بِالثَّوْرِ . فَلَمَّا بَاتَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ ، تَبَرَّمَ بِهِ (٢) وَاسْتَوْحَشَ ؛ فَتَرَكَ الثَّورَ وَالتَّحَقَّ بِصَاحِبِهِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الثَّورَ قَدْ مَاتَ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ وَحَانَتْ مَنِيَّتُهُ

(١) انشق واقفجر . (٢) ضجر .

فَهُوَ وَإِنْ أَجْتَهَدَ فِي التَّوَقُّيِّ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ
الْهَلَاكَ لَمْ يَغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَرُبَّمَا عَادَ اجْتِهَادُهُ فِي تَوَقُّيِّهِ
وَحَذَرُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ ^(١) .

كَالَّذِي قِيلَ : إِنَّ رَجُلًا سَلَكَ مَفَازَةً فِيهَا خَوْفٌ مِنَ السَّبَاحِ ،
وَكَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا يَوْعِثُ تِلْكَ الْأَرْضَ وَخَوْفِهَا ، فَلَمَّا سَارَ
غَيْرَ بَعِيدٍ اعْتَرَضَ لَهُ ذِئْبٌ مِنْ أَحَدِ الدُّنَابِ وَأَضْرَاَهَا ،
فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الدُّنْبَ قَاصِدٌ نَحْوَهُ خَافَ مِنْهُ ، وَنَظَرَ
يَمِينًا وَشِمَالًا لِيَجِدَ مَوْضِعًا يَخْرُزُ فِيهِ مِنَ الدُّنْبِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا
قَرْيَةً خَلْفَ وَادٍ ، فَذَهَبَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْقَرْيَةِ ، فَلَمَّا أَتَى الْوَادِي
لَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةً ، وَرَأَى الدُّنْبَ قَدْ أَدْرَكَهُ ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ ،
وَهُوَ لَا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ ، وَكَادَ يَغْرُقُ ، لَوْلَا أَنَّ بَصْرِيهِ قَوْمٌ
مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَتَوَاقَعُوا لِإِنْخِرَاجِهِ فَأَخْرَجُوهُ ، وَقَدْ أَشْرَفَ
عَلَى الْهَلَاكِ ، فَلَمَّا حَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ غَائِلَةِ الدُّنْبِ رَأَى عَلَى عُذْوَةِ الْوَادِي بَيْتًا مُفْرَدًا ، فَقَالَ :

(١) وخيم العاقبة . (٢) العدو بصم العين وكسرها : جانب الوادي .

أَدْخُلْ هَذَا الْبَيْتَ فَاسْتَرِجْ فِيهِ . فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ جَمَاعَةً
 مِنَ اللَّصُوصِ قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ التَّجَارِ ،
 وَهُمْ يَقْتَسِمُونَ مَالَهُ ، وَيُرِيدُونَ قَتْلَهُ ؛ فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ
 خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَضَى نَحْوَ الْقَرْيَةِ ؛ فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى حَائِطٍ
 مِنْ حِيطَانِهَا لِيَسْتَرِجَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْإِغْيَاءِ ، إِذْ سَقَطَ
 الْحَائِطُ عَلَيْهِ فَمَاتَ . قَالَ التَّاجِرُ : صَدَقْتَ ؛ قَدْ بَلَغَنِي
 هَذَا الْحَدِيثُ . وَأَمَّا الثَّورُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكَانِهِ وَانْبَعَثَ ؛ فَلَمْ
 يَزَلْ فِي مَرْجٍ مُخْصِبٍ كَثِيرِ الْمَاءِ وَالْكَلَالِ ؛ فَلَمَّا سَمِنَ وَأَمِنَ
 جَعَلَ يَخُورُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخَوَارِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَجْمَةٌ فِيهَا
 أَسَدٌ عَظِيمٌ ؛ وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَمَعَهُ سِبَاعٌ كَثِيرَةٌ وَذِيئَابٌ
 وَبَنَاتٌ آوَى وَثَعَالِبٌ وَفُهُودٌ وَنَمُورٌ ؛ وَكَانَ هَذَا الْأَسَدُ مُنْفَرِدًا
 بِرَأْيِهِ دُونَ أَخْذِ بَرَأْيِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ خَوَارَ
 الثَّورِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثُورًا قَطُّ ، وَلَا سَمِعَ خَوَارَهُ ؛ لِأَنَّهُ
 كَانَ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشُطُ ؛ بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ
 عَلَى يَدِ جُنْدِهِ . وَكَانَ فِيْمَنْ مَعَهُ مِنَ السِّبَاعِ ابْنَا آوَى يُقَالُ

لِأَحَدِهِمَا كَلِيلَةٌ وَلِلْآخَرِ دِمْنَةٌ ، وَكَانَا ذَوَيْ دَهَاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ .
فَقَالَ دِمْنَةُ لِأَخِيهِ كَلِيلَةُ : يَا أَخِي مَا شَأْنُ الْأَسَدِ مُقِيمًا مَكَانَهُ
لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشُطُ ؟ قَالَ لَهُ كَلِيلَةُ : مَا شَأْنُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةُ عَنْ
هَذَا ؟ نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِينَ بِمَا أَحَبَّ وَتَارِكِينَ مَا يَكْرَهُ ؛
وَلَسْنَا مِنْ أَهْلِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاسَوُلُ أَهْلُهَا كَلَامَ الْمُلُوكِ وَالنَّظَرَ
فِي أُمُورِهِمْ . فَأَمْسِكَ عَنْ هَذَا ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْقِرْدَ مِنَ النَّجَارِ .
قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا
رَأَى تَجَارًا يَشُقُّ خَشَبَةً بَيْنَ وَتَدَيْنِ ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَأَعْجَبَهُ
ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ . فَقَامَ الْقِرْدُ ، وَتَكَلَّفَ
مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ ، فَرَكِبَ الخَشَبَةَ ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبَلَ الْوَتِدِ ،
وَوَجْهَهُ قِبَلَ الخَشَبَةِ ، فَتَدَلَّى ذَنْبُهُ فِي الشَّقِ ، وَنَزَعَ الْوَتِدَ فَلَزِمَ
الشَّقَ عَلَيْهِ نَحْرٌ مَغْشِيٌّ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ فَرَأَاهُ مَوْضِعَهُ ،
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ . فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ

مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْحَشَبَةِ . قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ ،
وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَذْنُو مِنَ الْمُلُوكِ لَيْسَ يَذْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ ،
وَإِنَّمَا يَذْنُو مِنْهُمْ لَيْسَرُ الصَّدِيقِ وَيَكْبِتُ الْعَدُوَّ . وَإِنَّ مِنَ
النَّاسِ مَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ وَيَرْضَوْنَ
بِالدُّونِ ، كَالْكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا فَيَفْرَحُ بِهِ . وَأَمَّا
أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ فَلَا يُقْنِعُهُمُ الْقَلِيلُ ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ ،
دُونَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِ نَفُوسُهُمْ إِلَى مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ ، وَهُوَ أَيْضًا لَهُمْ
أَهْلٌ ، كَالْأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الْأَرْنَبَ ، فَإِذَا رَأَى الْبَعِيرَ تَرَكَهَا
وَطَلَبَ الْبَعِيرَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يَبْضِضُ^(١) بِذَنَبِهِ . حَتَّى
تُرْمَى لَهُ الْكِسْرَةُ ، وَأَنَّ الْفِيلَ الْمُعْتَرِفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِذَا قُدِمَ إِلَيْهِ
عَلْفُهُ لَا يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يَمْسَحَ وَيَتَمَلَّقَ لَهُ . فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ وَكَانَ
ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلَى أَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمُرُهُ طَوِيلُ
الْعُمُرِ . وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشِهِ ضَيْقٌ وَقِلَّةٌ وَإِمْسَاكٌ^{بِالْ} عَلَى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ

فَالْمَقْبُورُ أَحْيَا مِنْهُ . وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَقِنَعَ وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ
عَدَّ مِنَ الْبَهَائِمِ .

قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ ، فَرَا جَعِ عَقْلَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَةً وَقَدْرًا . فَإِنْ كَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا
مُمَاسِكًا ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَقْنَعَ . وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَنْزِلَةِ مَا يَحُطُّ
حَالَنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا . قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الْمَنَازِلَ مُتَنَازِعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ
عَلَى قَدْرِ الْمُرُوءَةِ ، فَالْمُرءُ تَرْفَعُهُ مُرُوءَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى
الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ، وَمَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُحُطُّ نَفْسُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ
إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ . وَإِنْ الِارْتِفَاعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الشَّرِيفَةِ شَدِيدٌ ،
وَالِانْحِطَاطَ مِنْهَا هَيِّنٌ ، كَالْحَجَرِ الثَّقِيلِ : رَفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى
الْعَاقِ ^{بِأَعْيُنِ} عِسر ، وَوَضَعُهُ إِلَى الْأَرْضِ هَيِّنٌ . فَتَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَرُومَ
مَا فَوْقَنَا مِنَ الْمَنَازِلِ ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذَلِكَ بِمُرُوءَتِنَا . ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ
بِهَا وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْهَا ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : فَمَا الَّذِي اجْتَمَعَ
عَلَيْهِ رَأْيُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْأَسَدِ عِنْدَ هَذِهِ
الْفُرْصَةِ : فَإِنَّ الْأَسَدَ ضَعِيفُ الرَّأْيِ . وَلَعَلِّي عَلَى هَذِهِ الْحَبَابِ

أَذْنُو مِنْهُ فَأَصِيبُ ^{بِأَذْنُو} عِنْدَهُ مَنْزِلَةٌ وَمَكَانَةٌ . قَالَ كَلِيلَةُ : وَمَا يُدْرِيكَ
 أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : بِالْحِسِّ وَالرَّأْيِ
 أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ : فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حَالَ صَاحِبِهِ
 وَبَاطِنَ أَمْرِهِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِيلِهِ وَشَكْلِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ : فَكَيْفَ
 تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ بِصَاحِبِ السُّلْطَانِ ، وَلَا لَكَ عِلْمٌ
 بِخِدْمَةِ السَّلَاطِينِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقُوَى لَا يُعْجِزُهُ
 الْحِمْلُ الثَقِيلُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الْحِمْلُ ، وَالرَّجُلُ الضَّعِيفُ
 لَا يَسْتَقِيلُ بِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ : فَإِنَّ
 السُّلْطَانَ لَا يَتَوَخَّى بِكَرَامَتِهِ فَضْلَاءَ مَنْ يَحْضُرَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُؤَثِّرُ
 الْأَذْنَى وَمَنْ قَرُبَ مِنْهُ . وَيُقَالُ : إِنَّ مَثَلَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ
 مَثَلُ شَجَرِ الْكَرْمِ الَّذِي لَا يَعْلُقُ إِلَّا بِأَقْرَبِ الشَّجَرِ . وَكَيْفَ
 تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ تَدْنُو مِنْهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ فَهِمْتُ
 كَلَامَكَ بِجَمِيعِهِ وَمَا ذَكَرْتَ ، وَأَنْتَ صَادِقٌ . لَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي
 هُوَ قَرِيبٌ مِنَ السُّلْطَانِ وَلَا ذَلِكَ مَوْضِعُهُ وَلَا تِلْكَ مَنْزِلَتُهُ ،

لَيْسَ كَمَنْ دَنَا مِنْهُ بَعْدَ الْبُعْدِ وَلَهُ حَقٌّ وَحُرْمَةٌ ، وَأَنَا مُلْتِمِسٌ بُلُوغَ
مَكَانَتِهِمْ بِجُهْدِي . وَقَدْ قِيلَ : لَا يَوَاطِبُ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ
إِلَّا مَنْ يَطْرَحُ الْأَنْفَ وَيَحْمِلُ الْأَذَى وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ وَيَرْفُقُ بِالنَّاسِ
وَيَكْتُمُ السِّرَّ ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرَادَهُ . قَالَ كَلِيلَةُ :
هَبْكَ وَصَلْتَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَمَا تَوْفِيقُكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ
تَسَالَ بِهِ الْمَنْزِلَةَ وَالْحُظُورَةَ لَدَيْهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لَوْ دَنَوْتُ مِنْهُ
وَعَرَفْتُ أَخْلَاقَهُ ، لَرَفَقْتُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَقِلَّةِ الْخِلَافِ لَهُ . وَإِذَا
أَرَادَ أَمْرًا هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ ، زَيْنَتْهُ لَهُ وَصَبَرَتْهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَفَتْهُ
بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ ، وَشَجَعَتْهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ،
حَتَّى يَزْدَادَ بِهِ سُورًا . وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَشَيْنُهُ ،
بَصَرَتْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرِّ وَالشَّيْنِ ، وَأَوْقَفَتْهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ
النَّفْعِ وَالزَّيْنِ ، بِحَسَبِ مَا أَجَدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ
أَزْدَادَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْأَسَدِ مَكَانَةً وَيَرَى مِنِّي مَا لَا يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي :
فَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شَاءَ أَنْ يُبْطَلَ حَقًّا أَوْ يُحَقَّ بِاطِلًا

لَفَعَلَ : كَالْمُصَوِّرِ الْمَاهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْحَيَاطَانِ صُورًا كَأَنَّهَا
خَارِجَةٌ وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ .
قَالَ كَلِيلَةُ : أَمَّا إِنْ قُلْتُ هَذَا أَوْ قُلْتَ هَذَا فَلِيَّ أَخَافُ عَلَيْكَ
مِنَ السُّلْطَانِ فَإِنَّ صُحْبَتَهُ خَطِرَةٌ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ أُمُورًا
ثَلَاثَةً لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إِلَّا أَهْوَجُ ، وَلَا يَسْلُمُ مِنْهُنَّ إِلَّا قَلِيلٌ ،
وَهِيَ : صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَائْتِمَانُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَشُرْبُ
السَّمِّ لِلتَّجَرِبَةِ . وَإِئْتِمَانُ شَبَّهِ الْعُلَمَاءِ السُّلْطَانِ بِالْجَبَلِ الصَّغِيرِ
الْمُرْتَقَى الَّذِي فِيهِ الثَّمَارُ الطَّيِّبَةُ وَالْجَوَاهِرُ النَّفِيسَةُ وَالْأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ .
وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدِنُ السَّبَاعِ وَالثَّمُورِ وَالذِّئَابِ وَكُلِّ ضَارٍ مُحْوِفٍ .
فَالْإِزْتِقَاءُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ ، وَالْمُقَامُ فِيهِ أَشَدُّ . قَالَ دِمْنَةُ : صَدَقْتَ
فِيمَا ذَكَرْتَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ ، لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ ،
وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ يَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعَلَّهُ
أَنْ يَتَوَقَّاهُ ، فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيمًا . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ خِصَالًا ثَلَاثًا
لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بِمَعُونَةٍ مِنْ عُلُوِّ هِمَّةٍ وَعَظِيمِ خَطَرٍ : مِنْهَا

عَمِلَ السُّلْطَانُ وَتِجَارَةُ الْبَحْرِ وَمُنَاجَزَةُ الْعَدُوِّ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ
 فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ : إِنَّهُ لَا يُرَى إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ ، وَلَا
 يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُمَا : إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَمًا ، وَإِمَّا مَعَ النَّسَاكِ مُتَعَبِّدًا ،
 كَالْفِيلِ إِمَّا جَمَالَهُ وَبِهَاوَهُ فِي مَكَانَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَرَاهُ وَخَشِيًّا وَإِمَّا
 مَرْجَبًا لِلْمُلُوكِ . قَالَ كَلِيلَةُ : خَارَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ انْطَلَقَتْ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ
 الْأَسَدُ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ .
 قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَبَاهُ . ثُمَّ سَأَلَهُ أَيْنَ تَكُونُ ؟ قَالَ :
 لَمْ أَزَلْ مُلَازِمًا بَابَ الْمَلِكِ ، رَجَاءً أَنْ يَحْضُرَ أَمْرًا فَأَعِينَ الْمَلِكَ
 فِيهِ بِنَفْسِي وَرَأْيِي : فَإِنَّ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ تَكْثُرُ فِيهَا الْأُمُورُ الَّتِي
 رُبَّمَا يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى الَّذِي لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ
 أَمْرَهُ إِلَّا وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ بَعْضُ الْغِنَاءِ وَالْمَنَافِعِ عَلَى قَدَرِهِ ،
 حَتَّى الْعُودُ الْمُلْتَقَى فِي الْأَرْضِ رُبَّمَا نَفَعَ ، فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ فَيَكُونُ
 عِدَّتُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ قَوْلَ دِمْنَةَ أَعْجَبَهُ ،

وَوَظَنَ أَنَّ عِنْدَهُ نَصِيحَةً وَرَأْيًا . فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقَالَ :
 إِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْعِلْمِ وَالْمُرُوءَةِ يَكُونُ حَامِلَ الذِّكْرِ خَافِضَ الْمَنْزِلَةِ ،
 فَتَأْتِي مَنْزِلَتُهُ إِلَّا أَنْ تَشِبَّ وَتَرْتَفِعَ ، كَالشَّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُهَا
 صَاحِبُهَا وَتَأْتِي إِلَّا أَنْ تَرْتَفِعَ . فَلَمَّا عَرَفَ دِمْنَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ
 عَجِبَ مِنْهُ قَالَ : إِنَّ رَعِيَّةَ الْمَلِكِ تَحْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، رَجَاءً
 أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَهَا مِنْ عِلْمٍ وَأَفْرِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْفَضْلَ
 فِي أَمْرَيْنِ : فَضْلُ الْمُقَاتِلِ عَلَى الْمُقَاتِلِ وَالْعَالِمِ عَلَى الْعَالِمِ .
 وَإِنْ كَثُرَ الْأَعْوَانُ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُحْتَبرِينَ رَبَّمَا تَكُونُ مَضَرَّةً عَلَى
 الْعَمَلِ : فَإِنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ رَجَاؤُهُ بِكَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَلَكِنْ بِصَالِحِي
 الْأَعْوَانِ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ ،
 فَيُثْقَلُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَلَا يَجِدُ لَهُ ثَمَنًا . وَالرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى
 الْحَذْوَعِ لَا يَجْزِيهِ الْقَصَبُ وَإِنْ كَثُرَ . فَأَنْتَ الْآنَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 حَقِيقٌ إِلَّا تَحْقِرَ مُرُوءَةً أَنْتَ تَجِدُهَا عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيرِ الْمَنْزِلَةِ :
 فَإِنَّ الصَّغِيرَ رُبَّمَا عَظُمَ ، كَالْعَصَبِ يُؤْخَذُ مِنَ الْمَيْتَةِ فَإِذَا عَمِلَ مِنْهُ
 الْقَوْسُ أَكْرَمَ ، فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْبَاسِ وَاللَّهْوِ .

وَأَحَبَّ دِمْنَةٌ أَنْ يُرَى الْقَوْمَ أَنَّ مَا نَالَهُ مِنْ كَرَامَةِ الْمَلِكِ إِنَّمَا
 هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَعَقْلِهِ : لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ
 لِمَعْرِفَتِهِ أَبَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّ السُّلْطَانَ لَا يُقَرِّبُ الرِّجَالَ لِقُرْبِ
 آبَائِهِمْ ، وَلَا يُبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِمْ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ
 رَجُلٍ بِمَا عِنْدَهُ : لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْرَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ جَسَدِهِ
 وَمِنْ جَسَدِهِ مَا يَدْوِي حَتَّى يُوْذِيَهُ وَلَا يُدْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا بِالْذَّوَاءِ
 الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِ .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةٌ مِنْ مَقَالَتِهِ هَذِهِ أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِهِ بِإِعْجَابٍ شَدِيدٍ ،
 وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِ ، وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ . ثُمَّ قَالَ لِجُلَسَائِهِ : يَنْبَغِي
 لِلسُّلْطَانِ أَلَّا يَلْجَأَ فِي تَضْيِيعِ حَقِّ ذَوِي الْحُقُوقِ . وَالنَّاسُ
 فِي ذَلِكَ رَجُلَانِ : رَجُلٌ طَبَعُهُ الشَّرَاسَةُ ، فَهُوَ كَالْحَيَّةِ إِنْ وَطَّنَهَا
 الْوَاطِئُ فَلَمْ تَلْدَغْهُ ، لَمْ يَكُنْ جَدِيرًا أَنْ يَغْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا ، فَيَعُودَ
 إِلَى وَطْنِهَا ثَانِيًا فَتَلْدَغْهُ ، وَرَجُلٌ أَصْلُ طَبَاعِهِ السُّهُولَةُ ، فَهُوَ
 كَالصَّنَدَلِ الْبَارِدِ الَّذِي إِذَا أَفْرِطَ فِي حَكِّهِ صَارَ حَارًّا مُؤْذِيًا .

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالْأَسَدِ وَخَلَا بِهِ . فَقَالَ لَهُ يَوْمًا : أَرَى الْمَلِكَ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لَا يَبْرَحُ مِنْهُ ، فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟ فَبَيْنَمَا هُمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِذْ خَارَ شَتْرِبَةٌ خُورًا شَدِيدًا : فَهَبَجَ الْأَسَدُ وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِمَا نَالَهُ ، وَعَلِمَ دِمْنَةُ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتَ قَدْ أَذْخَلَ عَلَى الْأَسَدِ رِيبةً وَهَيْبَةً ^(١) . فَسَأَلَهُ : هَلْ رَأَى الْمَلِكَ سَمَاعُ هَذَا الصَّوْتِ ؟ قَالَ لَمْ يَرِنِّي شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ . قَالَ دِمْنَةُ : لَيْسَ الْمَلِكُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَدَعَ مَكَانَهُ لِأَجْلِ صَوْتٍ . فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كُلِّ الْأَصْوَاتِ نَجِبُ الْهَيْبَةِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا مِثْلُ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجْمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ ، وَكَلَّمَا هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى قُضْبَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَكْتُهَا ، فَضَرَبَتِ الطَّبْلَ فَسَمِعَ لَهُ صَوْتُ عَظِيمٌ ، فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ نَحْوَهُ لِأَجْلِ مَا سَمِعَ مِنْ عَظَمِ صَوْتِهِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ ضَخْمًا ، فَأَيَّقَنَ

(١) ظنًا لما يخاف منه . (٢) الشجر الكثير الملتف .

فِي نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ . فَعَالَجَهُ حَتَّى شَقَّهِ . فَلَمَّا رَأَاهُ
 أَجُوفَ لَا شَيْءَ فِيهِ ، قَالَ : لَا أَذْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ الْأَشْيَاءِ
 أَجْهَرُهَا صَوْتًا وَأَعْظَمُهَا جُنَّةً . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ
 لِتَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ الَّذِي رَاعَنَا ، لَوْ وَصَلْنَا إِلَيْهِ ، لَوَجَدْنَاهُ
 أَيْسَرَ مِمَّا فِي أَنْفُسِنَا . فَإِنْ شَاءَ الْمَلِكُ بَعَثَنِي وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ
 حَتَّى آتِيَهُ بَيَانُ هَذَا الصَّوْتِ . فَوَافَقَ الْأَسَدَ قَوْلُهُ ، فَأَذِنَ لَهُ
 بِالذَّهَابِ نَحْوَ الصَّوْتِ . فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ
 شَرَبَةٌ . فَلَمَّا فَصَلَ دِمْنَةُ مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ، فَكَّرَ الْأَسَدُ فِي أَمْرِهِ ،
 وَنَدِمَ عَلَى إِرْسَالِ دِمْنَةَ . حَيْثُ أَرْسَلَهُ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :
 مَا أَصَبْتُ فِي اتِّمَّانِي دِمْنَةَ ، وَقَدْ كَانَ بِيَابِي مَطْرُوحًا ،
 فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ يَحْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أُبْطِلَتْ حُقُوقُهُ مِنْ
 غَيْرِ جُرْمٍ كَانَ مِنْهُ ، أَوْ كَانَ مَبْغِيًّا عَلَيْهِ عِنْدَ سُلْطَانِهِ ، أَوْ كَانَ
 عِنْدَهُ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ وَالْحَرِصِ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ ضَرٌّْ وَضِيقٌ
 فَلَمْ يُنْعِشْهُ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَجْتَرَمَ جُرْمًا فَهُوَ يَخَافُ الْعُقُوبَةَ مِنْهُ ، أَوْ
 كَانَ يَرْجُو شَيْئًا يَضُرُّ الْمَلِكَ وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ ، أَوْ يَخَافُ فِي شَيْءٍ

مِمَّا يَنْفَعُهُ ضُرًّا ، أَوْ كَانَ لَعْدُو الْمَلِكِ مُسَالِمًا ، وَلِمُسَالِمِهِ مُحَارِبًا ،
 فَلَيْسَ السُّلْطَانُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَعْجَلَ بِالِاسْتِرْسَالِ إِلَيْهِ . وَالثِّقَةُ بِهِ ،
 وَالِائْتِمَانُ لَهُ : فَإِنَّ دِمْنَةَ دَاهِيَةٍ أَرِيبٌ . وَقَدْ كَانَ بِبَابِي
 مَطْرُوحًا مَجْفُوفًا . وَلَعَلَّهُ قَدْ اخْتَمَلَ عَلَىٰ بِذَلِكَ ضِعْفًا ، وَلَعَلَّ
 ذَلِكَ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ خِيَانَتِي وَإِعَانَةِ عَدُوِّي وَنَقِصَتِي عِنْدَهُ ، وَلَعَلَّهُ
 صَادَفَ صَاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطَانًا مِنِّي فِيرَغَبَ بِهِ عَنِّي
 وَيَمِيلَ مَعَهُ عَلَىٰ . ثُمَّ قَامَ مِنْ مَكَانِهِ فَمَشَى غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَبَصُرَ
 بِدِمْنَةَ مُقْبِلًا نَحْوَهُ فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ ، وَرَجَعَ إِلَىٰ مَكَانِهِ ،
 وَدَخَلَ دِمْنَةَ عَلَى الْأَسَدِ فَقَالَ لَهُ : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ وَمَاذَا رَأَيْتَ ؟
 قَالَ : رَأَيْتُ ثَوْرًا هُوَ صَاحِبُ الْخَوَارِ وَالصَّوْتِ الَّذِي سَمِعْتَهُ .
 قَالَ : فَمَا قُوَّتُهُ ؟ قَالَ : لَا شَوْكَةَ لَهُ . وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَحَاوَرْتَهُ
 مُحَاوَرَةً الْأَكْفَاءِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئًا . قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَغُرُّكَ
 ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ : فَإِنَّ الرِّيحَ الشَّدِيدَةَ لَا تَغْبَأُ
 بِضَعِيفِ الْحَشِيشِ ، لَكِنَّهَا تُحْطِمُ طَوَالَ النَّخْلِ وَعَظِيمَ الشَّجَرِ .

قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَهَابَنَّ أَثِيهَا الْمَلِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ
أَمْرُهُ : فَأَنَا آتِيكَ بِهِ لِيَكُونَ لَكَ عَبْدًا سَامِعًا مُطِيعًا . قَالَ
الْأَسَدُ : دُونَكَ وَمَا بَدَا لَكَ .

فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ ، فَقَالَ لَهُ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُكْتَرِثٍ :
إِنَّ الْأَسَدَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِآتِيَهُ بِكَ . وَأَمْرِي ، إِنْ أَنْتَ عَجَلْتَ
إِلَيْهِ طَائِعًا ، أَنْ أُوْمِنَكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ فِي التَّأَخُّرِ
عَنْهُ وَتَرْكِكَ لِقَاءَهُ ، وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ عَنْهُ وَاجْتَمَعْتَ ، أَنْ
أُعِجِّلَ الرَّجْعَةَ إِلَيْهِ فَأُخْبِرُهُ . قَالَ لَهُ شَتْرَبَةُ : وَمَنْ هُوَ هَذَا
الْأَسَدُ الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَيَّ ؟ وَأَيْنَ هُوَ ؟ وَمَا حَالُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ :
هُوَ مَلِكُ السَّبَاعِ ، وَهُوَ بِمَكَانٍ كَذَا ، وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيرٌ مِنْ جَنْسِهِ
فَرُعِبَ شَتْرَبَةُ مِنْ ذِكْرِ الْأَسَدِ وَالسَّبَاعِ . وَقَالَ : إِنْ أَنْتَ
جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ عَلَى نَفْسِي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ . فَأَعْطَاهُ دِمْنَةُ
مِنَ الْأَمَانِ مَا وَثِقَ بِهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ وَالثَّوْرُ مَعَهُ ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى
الْأَسَدِ فَأَخْبَسَ الْأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ ، وَقَالَ لَهُ : مَتَى قَدِمْتَ
هَذِهِ الْبِلَادَ ؟ وَمَا أَقْدَمَكَهَا ؟ فَقَصَّ شَتْرَبَةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ
الْأَسَدُ أَصْحَبَنِي وَالزَّمَنِي : فَإِنِّي مُكْرِمُكَ . فَدَعَا لَهُ الثَّوْرُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ قَرَّبَ شَتْرَبَةً وَأَكْرَمَهُ وَأَنَسَ بِهِ وَأَتَمَّنَهُ عَلَى أَسْرَارِهِ
وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْإِيَّامُ إِلَّا عَجَبًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ
وَتَقَرُّبًا مِنْهُ ، حَتَّى صَارَ أَخَصَّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنَزَلَةً . فَلَمَّا رَأَى
دِمْنَةً أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ اخْتَصَّ بِالْأَسَدِ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ
صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخُلُوعَاتِهِ وَلَهْوِهِ ، حَسَدَهُ حَسَدًا عَظِيمًا ، وَبَلَغَ
مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ : فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِ كَلِيلَةَ ، وَقَالَ لَهُ :
أَلَا تَعْجَبُ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي ، وَصُنْعِي بِنَفْسِي ؟ وَنَظَرِي
فِيمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ ، وَأَغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي حَتَّى جَلَبْتُ إِلَى الْأَسَدِ
ثَوْرًا غَلَبَنِي عَلَى مَنَزِلَتِي .

قَالَ كَلِيلَةُ : أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَعْرِمَ عَلَيْهِ
فِي ذَلِكَ . قَالَ دِمْنَةُ : أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ الْيَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزْدَادَ
مَنَزِلَتِي عِنْدَ الْأَسَدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ أَلْتَمِسُ أَنْ أَعُودَ
إِلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ : فَإِنَّ أُمُورًا ثَلَاثَةً الْعَاقِلُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ فِيهَا ،
وَالْأَخْتِيَالُ لَهَا بِجُهْدِهِ : مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضَى مِنَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ،

فِيَحْتَرِسُ مِنَ الضَّرِّ الَّذِي أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ لَيْثًا يَعُودَ إِلَى ذَلِكَ
 الضَّرِّ ، وَيَلْتَمِسُ النَّفْعَ الَّذِي مَضَى وَيَحْتَالُ لِمُعَاوَدَتِهِ ، وَمِنْهَا
 النَّظَرُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، وَالِاسْتِثْنَاءُ بِمَا
 يَنْفَعُ وَالْهَرَبُ بِمَا يَضُرُّ ، وَمِنْهَا النَّظَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنْ
 قِبَلِ النَّفْعِ ، وَمَا يَخَافُ مِنْ قِبَلِ الضَّرِّ ، فَيَسْتَتِمُّ مَا يَرْجُو وَيَتَوَقَّى
 مَا يَخَافُ بِجُهْدِهِ . وَإِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو
 أَنْ تَعُودَ مَنَزِلَتِي ، وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، لَمْ أَجِدْ
 حِيلَةً وَلَا وَجْهًا إِلَّا الْإِحْتِيَالَ لَا كُلِّ الْعُشْبِ هَذَا ، حَتَّى أَفِرَّقَ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ : فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الْأَسَدَ عَادَتْ لِي مَنَزِلَتِي .
 وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ خَيْرًا لِلْأَسَدِ : فَإِنَّ إِفْرَاطَهُ فِي اقْتِرَابِ الثَّوْرِ
 خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كِيلَةُ : مَا أَرَى عَلَى
 الْأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنَزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْنًا وَلَا شَرًّا .
 قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّمَا يُؤْتِي السُّلْطَانَ وَيُفْسِدُ أَمْرَهُ مِنْ قَبْلِ سِتَّةِ
 أَشْيَاءَ : الْحَرَمَانَ وَالْفِتْنَةَ وَالْهَوَى وَالْفُظَاظَةَ وَالزَّمَانَ وَالْحَرْقَ .

فَأَمَّا الْحَرَمَانُ فَإِنْ يُحْرَمَ صَالِحُ الْأَعْوَانِ وَالنُّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ مِنْ
أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَتَرَكَ التَّفَقُّدَ لِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ . وَأَمَّا
الْفِتْنَةُ فَهِيَ تَحَارِبُ النَّاسِ وَوُقُوعُ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ . وَأَمَّا الْهُوَى
فَالْغَرَامُ بِالْحَدِيثِ وَاللَّهْوِ وَالشَّرَابِ وَالصَّيْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَأَمَّا
الْفَظَاطَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشَّدَّةِ حَتَّى يَجْمَحَ اللِّسَانُ بِالشَّتْمِ وَالْيَدُ
بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِمَا . وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيبُ النَّاسَ
مِنَ السِّنِينَ وَالْمَوْتِ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالْغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ .
وَأَمَّا الْخُرْقُ فَإِعْمَالُ الشَّدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ ، وَاللَّيْنُ فِي مَوْضِعِ
الشَّدَّةِ . وَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ أُغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرَامًا شَدِيدًا هُوَ الَّذِي
ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيُضْرَهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ :
وَكَيْفَ تُطِيقُ الثَّورَ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْكَ
وَأَكْثَرُ أَعْوَانًا ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِي وَضَعْفِي :
فَإِنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضَّعْفِ وَلَا الْقُوَّةَ وَلَا الصِّغَرِ وَلَا الْكِبَرِ
فِي الْجُشَّةِ : فَرُبَّ صَغِيرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِحِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ
مَا يَعْجِزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ . أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرَابًا ضَعِيفًا
اِخْتَالَ لَأَسْوَدَ حَتَّى قَتَلَهُ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ ،
وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ بَحْرٌ ثُعْبَانٍ أَسْوَدَ ، فَكَانَ الْغُرَابُ إِذَا فَرَّخَ عَمَدَ
الْأَسْوَدِ إِلَى فِرَاحِهِ فَأَكَلَهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْغُرَابِ وَأَحْزَنَهُ ،
فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوَى ، وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ
مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ
الْغُرَابُ : قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْأَسْوَدِ إِذَا نَامَ ، فَأَنْقُرَ
عَيْنَيْهِ ، فَأَفْقَاهُمَا ، لَعَلَّ اسْتَرْيَحُ مِنْهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : بِئْسَ
الْحِيلَةُ الَّتِي اخْتَلَتَ بِهَا ، فَالْتَمَسَ أَمْرًا يُصِيبُ فِيهِ بَغْيَتَكَ مِنَ
الْأَسْوَدِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِكَ وَتُخَاطَرِ بِهَا . وَإِيَّاكَ أَنْ
يَكُونَ مِثْلُكَ مِثْلَ الْعُلْجُومِ ^(١) الَّتِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرَطَانِ ^(٢) فَقَتَلَ
نَفْسَهُ . قَالَ الْغُرَابُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوَى : زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا عَشَّشَ فِي أَجْمَةٍ كَثِيرَةٍ
السَّمَكِ ، فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ ، ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ،
فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، فَجَلَسَ حَزِينًا يَلْتَمِسُ الْحِيلَةَ

(١) طائر أبيض . (٢) حيوان بحري معروف .

فِي أَمْرِهِ ، فَرَّ بِهِ سَرَطَانٌ ، فَرَأَى حَالَتَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَابَةِ
وَالْحُزْنِ ، فَدَنَا مِنْهُ وَقَالَ : مَا لِي أُرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هَكَذَا حَزِينًا
كَثِيبًا ؟ قَالَ الْعُلْجُومُ : وَكَيْفَ لَا أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ
صَيْدِ مَا هَاهُنَا مِنَ السَّمَكِ ؟ وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ
مَرَّ بِهَذَا الْمَكَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هَاهُنَا سَمَكًا
كَثِيرًا أَفَلَا نَصِيدُهُ أَوَّلًا ؟ فَقَالَ الْآخَرُ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانٍ
كَذَا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ ، فَلْنَبْدَأْ بِذَلِكَ ، فَإِذَا فَرَغْنَا
مِنْهُ جِئْنَا إِلَى هَذَا فَأَقْنِينَاهُ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا إِذَا فَرَّغَا مِمَّا
هُنَاكَ ، أَتَاهَا إِلَى هَذِهِ الْأَجْمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
فَهُوَ هَلَاكِي وَنَفَادُ مَدَّتِي . فَاَنْطَلَقَ السَّرَطَانُ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى
جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ ، فَأَقْبَلْنَ إِلَى الْعُلْجُومِ فَاسْتَشَرْنَهُ ،
وَقُلْنَ لَهُ : إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنَا : فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ لَا يَدْعُ مُشَاوَرَةَ
عَدُوِّهِ . قَالَ الْعُلْجُومُ : أَمَّا مَكَابِرَةُ الصَّيَّادَيْنِ فَلَا طَاقَةَ لِي بِهِمَا ،
وَلَا أَعْلَمُ حِيلَةً إِلَّا الْمَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ هَاهُنَا ، فِيهِ سَمَكٌ
وَمِيَاهُ عَظِيمَةٌ وَقَصَبٌ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُنَّ الْإِلْتِقَالَ إِلَيْهِ ، كَانَ فِيهِ

صَلَّاحُكُنَّ وَخَضْبُكُنَّ . فَقُلْنَ لَهُ : مَا يَمُنُّ عَلَيْنَا بِذَلِكَ غَيْرُكَ .
 بِجَعَلِ الْعُلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَتَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى
 بَعْضِ التَّلَالِ فَيَأْكُلُهُمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ لِأَخِذِ
 السَّمَكَتَيْنِ ، بِخَاءَهُ السَّرَطَانُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَيْضًا قَدْ أَشْفَقْتُ
 مِنْ مَكَانِي هَذَا وَاسْتَوَحَشْتُ مِنْهُ فَأَذْهَبُ بِي إِلَى ذَلِكَ الْغَدِيرِ ،
 فَاحْتَمَلَهُ وَطَارَ بِهِ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التَّلِّ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ
 السَّمَكَ فِيهِ نَظَرَ السَّرَطَانُ فَرَأَى عِظَامَ السَّمَكِ مَجْمُوعَةً هُنَاكَ ،
 فَعَلِمَ أَنَّ الْعُلْجُومَ هُوَ صَاحِبُهَا ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقَالَ
 فِي نَفْسِهِ : إِذَا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا
 هَالِكٌ ، سِوَاءَ قَاتِلٍ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ
 نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفَاطًا ، ثُمَّ أَهْوَى بِكَلْبَتَيْهِ عَلَى عُنُقِ الْعُلْجُومِ ،
 فَعَصَرَهُ فَمَاتَ ، وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ
 بِذَلِكَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِيلَةِ

(١) أفة . (٢) كليتا السرطان : هما قرنا اللذان يشبهان الأداة التي يأخذ بها

الحداد الحديد المحمى أم التي يخرج بها النجار المسامير من الخشب (الكاشة) .

مَهْلَكَةٌ لِلْمُخْتَالِ وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ ، إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ ،
كَانَ فِيهِ هَلَاكُ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ ، وَتَكُونَ
فِيهِ سَلَامَتُكَ . قَالَ الْغُرَابُ : وَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوَى : تَنْطَلِقُ فَتَبْصُرُ فِي طَيْرَانِكَ : لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ
بِشَيْءٍ مِنْ حُلِيِّ النِّسَاءِ فَتَخْطِفُهُ ، وَلَا تَزَالُ طَائِرًا وَاقِعًا ، بِحَيْثُ
لَا تَفُوتُ الْعُيُونُ ، حَتَّى تَأْتِيَ جُحْرَ الْأَسْوَدِ فَتَرْمِيَ بِالْحُلِيِّ عِنْدَهُ .
فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَخَذُوا حُلِيَهُمْ وَأَرَا حَوْكَ مِنَ الْأَسْوَدِ .
فَانْطَلَقَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا فِي السَّمَاءِ ، فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ الْعُظَمَاءِ
فَوْقَ سَطْحٍ تَغْتَسِلُ ، وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا وَحُلِيَهَا نَاحِيَةً ، فَانْقَضَ
وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّهَا عِقْدًا ، وَطَارَ بِهِ ، فَتَبِعَهُ النَّاسُ ، وَلَمْ يَزَلْ
طَائِرًا وَاقِعًا ، بِحَيْثُ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ
الْأَسْوَدِ ، فَأَلْقَى الْعِقْدَ عَلَيْهِ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا أَتَوْهُ
أَخَذُوا الْعِقْدَ وَقَتَلُوا الْأَسْوَدَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ
لِنَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْرِي مَالًا تُجْرِي الْقُوَّةُ . قَالَ كَلِيلَةُ : إِنَّ الثَّوْرَ

لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكَانَ كَمَا تَقُولُ . وَلَكِنَّ لَهُ مَعَ
شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ . فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ ؟ قَالَ
دِمْنَةُ : إِنَّ الثَّورَ لَكَمَا ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ وَرَأْيِهِ ، وَلَكِنَّهُ مُقَرَّرٌ لِي
بِالْفَضْلِ ، وَأَنَا خَلِيقٌ أَنْ أَضْرَعَهُ كَمَا صَرَعَتِ الْأَرْبُ الْأَسَدَ .
قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْمِيَاهِ
وَالْعُشْبِ ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْوُحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِيَاهِ
وَالْمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهَا ذَلِكَ لِخَوْفِهَا مِنَ
الْأَسَدِ ، فَاجْتَمَعَتْ وَأَتَتْ إِلَى الْأَسَدِ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ
لَتُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فِيهِ
صَلَاحٌ لَكَ وَأَمْنٌ لَنَا . فَإِنْ أَنْتَ أَمْنَتِنَا وَلَمْ تُخَفِّنَا ، فَلَكَ عَلَيْنَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ تُرْسَلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ : فَرَضَى الْأَسَدُ
بِذَلِكَ ، وَصَالِحَ الْوُحُوشِ عَلَيْهِ ، وَوَفِينَ لَهُ بِهِ . ثُمَّ إِنَّ أَرْبَابًا
أَصَابَتْهَا الْقُرْعَةُ ، وَصَارَتْ غَدَاءَ الْأَسَدِ ، فَقَالَتْ لِلْوُحُوشِ :
إِنْ أَنْتُمْ رَفَقْتُمْ بِي فِيمَا لَا يَضُرُّكُمْ ، رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنْ

الْأَسَدُ . فَقَالَتِ الْوُحُوشُ : وَمَا الَّذِي تُكَلِّفِينَا مِنَ الْأُمُورِ ؟
 قَالَتْ : تَأْمُرُنَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى الْأَسَدِ أَنْ يَمْهَلَنِي رَيْثَمَا
 أَبْطِئُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْإِبْطَاءِ . فَقُلْنَ لَهَا ذَلِكَ لَكَ . فَاَنْطَلَقَتْ
 الْأَرْنبُ مُتَبَاطِئَةً ، حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ يَتَغَدَّى فِيهِ
 الْأَسَدُ . ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَخَذَهَا رُوَيْدًا ، وَقَدْ جَاعَ ، فَغَضِبَ
 وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا ، فَقَالَ لَهَا : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ ؟ قَالَتْ :
 أَنَا رَسُولُ الْوُحُوشِ إِلَيْكَ : بَعَثَنِي وَمَعِيَ أَرْنبٌ لَكَ ، فَتَبِعَنِي
 أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ ، فَأَخَذَهَا مِنِّي ، وَقَالَ : أَنَا أُولَى
 بِهَذِهِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَحْشِ . فَقُلْتُ : إِنَّ هَذَا غَدَاءُ الْمَلِكِ
 أَرْسَلَنِي بِهِ الْوُحُوشُ إِلَيْهِ . فَلَا تَغْضِبْنَهُ ، فَسَبَّكَ وَشَتَمَكَ .
 فَأَقْبَلْتُ مُسْرِعَةً لِأَخْبِيرَكَ . فَقَالَ الْأَسَدُ : انْطَلِقِي مَعِيَ فَأَرِينِي
 مَوْضِعَ هَذَا الْأَسَدِ . فَاَنْطَلَقَتْ الْأَرْنبُ إِلَى جُبٍّ فِيهِ مَاءٌ غَامِرٌ
 صَافٍ ، فَاطْلَعَتْ فِيهِ ، وَقَالَتْ : هَذَا الْمَكَانُ . فَاطَّاعَ الْأَسَدُ ،
 فَرَأَى ظِلَّهُ وَظِلَّ الْأَرْنبِ فِي الْمَاءِ ، فَلَمْ يَشْكْ فِي قَوْلِهَا ، وَوَثَبَ
 إِلَيْهِ لِيُقَاتِلَهُ ، فَغَرِقَ فِي الْجُبِّ . فَاَنْقَلَبَتِ الْأَرْنبُ إِلَى الْوُحُوشِ

فَاعْلَمْتَهُنَّ صَنِيعَهَا بِالْأَسَدِ . قَالَ كَلِيلَةُ : إِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَلَاكِ
 الثَّوْرِ بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلْأَسَدِ فَشَانِكَ : فَإِنَّ الثَّوْرَ قَدْ أَضْرَبَ
 وَبِكَ وَبَعِيرِنَا مِنْ الْجُنْدِ ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِهَلَاكِ
 الْأَسَدِ ، فَلَا تُقَدِّمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ غَدَرُ مِنِّي وَمِنْكَ . ثُمَّ إِنْ دِمْنَةُ
 تَرَكَ الدُّخُولَ عَلَى الْأَسَدِ أَيَّامًا كَثِيرَةً ، ثُمَّ أَتَاهُ عَلَى خَلْوَةٍ مِنْهُ ،
 فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ أَرَكَ . إِلَّا لِحَبِيرٍ
 كَانَ انْقِطَاعُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : فَلْيَكُنْ خَيْرًا أَيُّهَا الْمَلِكُ . قَالَ الْأَسَدُ :
 وَهَلْ حَدَثَ أَمْرٌ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يُرِيدُهُ
 وَلَا أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : كَلَامٌ فَطِيعٌ .
 قَالَ : أَخْبِرْنِي بِهِ . قَالَ دِمْنَةُ إِنَّهُ كَلَامٌ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ ، وَلَا
 يَشْجَعُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ . وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَذُو فَضِيلَةٍ ، وَرَأْيُكَ يَدُلُّكَ
 عَلَى أَنْ يَوْجِعَنِي أَنْ أَقُولَ مَا تَكْرَهُ ، وَاثِقُ بِكَ أَنْ تَعْرِفَ نَصِيحِي
 وَإِثَارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي . وَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِي أَنَّكَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ
 فِيمَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ ، وَلَكِنِّي إِذَا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ أَنَّ نَفُوسَنَا ، مَعَاشِرَ
 الْوُحُوشِ ، مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ أَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يُلْزِمُنِي

وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي وَخِيفْتُ إِلَّا تَقْبَلُ مِنِّي فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ كَتَمَ
السُّلْطَانَ نَصِيحَتَهُ وَالْإِخْوَانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ . قَالَ الْأَسَدُ :
فَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْأَمِينُ الصَّدُوقُ عِنْدِي أَنَّ شَتْرِبَةَ خَلَا
بِرْءُوسَ جُنْدِكَ ، وَقَالَ : قَدْ خَبَرْتُ الْأَسَدَ وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيدَتَهُ
وَقُوَّتَهُ : فَاسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذَلِكَ يَتَوَلَّى مِنْهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ ،
وَسَيَكُونُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّيُونِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي ذَلِكَ عَلِمْتُ
أَنَّ شَتْرِبَةَ خَوَّانٌ غَدَّارٌ ، وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الْكَرَامَةَ كُلَّهَا ، وَجَعَلْتَهُ
نَظِيرَ نَفْسِكَ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ . وَأَنَّكَ مَتَى زِلْتَ عَنْ مَكَانِكَ
صَارَ لَهُ مَذْلُكَكَ ، وَلَا يَدْعُ جُهْدًا إِلَّا بَلَغَهُ فِيكَ . وَقَدْ كَانَ
يُقَالُ : إِذَا عَرَفَ الْمَلِكُ مِنَ الرَّجُلِ أَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي الْمَنْزِلَةِ
وَالْحَالِ ، فَلْيَصْرَعْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ ، كَانَ هُوَ الْمَصْرُوعَ .
وَشَتْرِبَةُ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيهَا ، وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ
قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوعِهِ : فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَلَا تَسْتَدْرِكُهُ .
فَإِنَّهُ يُقَالُ : الرَّجَالُ ثَلَاثَةٌ : حَازِمٌ وَأَحْزَمٌ مِنْهُ وَعَاجِزٌ ، فَأَحَدُ

الْحَازِمِينَ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ لَمْ يَدَّهَشْ لَهُ ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ
 شَعَاعًا ، وَلَمْ تَعْيَ بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ ،
 وَأَخْزَمَ مِنْ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ ذُو الْعُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِبْتِلَاءَ قَبْلَ
 وَقُوعِهِ ، فَيُعْظِمُهُ إِعْظَامًا ، وَيَحْتَالُ لَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ :

فَيَحْسِبُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ ، وَيَدْفَعُ الْأَمْرَ قَبْلَ وَقُوعِهِ .
 وَأَمَّا الْعَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ حَتَّى يَهْلِكَ . وَمِنْ أَمْثَالِ
 ذَلِكَ مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلَاثِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ فِيهِ ثَلَاثُ سَمَكَاتٍ : كَيْسَةُ
 وَأَكْسُسُ مِنْهَا وَعَاجِزَةٌ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْغَدِيرُ بِنَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ
 لَا يَكَادُ يَقْرِبُهُ أَحَدٌ ، وَيَقْرِبُهُ نَهْرٌ جَارٍ . فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتَازَ بِذَلِكَ
 النَّهْرِ صَيَّادَانِ ، فَأَبْصَرَ الْغَدِيرَ ، فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشَبَا كِلَيْهِمَا
 فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ . فَسَمِعَ السَّمَكَاتُ قَوْلَهُمَا : فَأَمَّا
 أَكْسُسُهُنَّ لَمَّا سَمِعَتِ قَوْلَهُمَا ، وَارْتَابَتْ بِهِمَا ، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا ،
 فَلَمْ تُعْرِجْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى نَحَرَجَتْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ

الماء من النهر إلى الغدير . وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ؛ فلما رأتهما ، وعرفت ما يريدان ، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ؛ فإذا بهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ قالت : فرطت^(١) ، وهذه عاقبة التفريط ؛ فكيف الحيلة على هذه الحال ؟ ولما تنجح حيلة العجالة والإرهاق^(٢) ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ولا يئس على حال ، ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة ، وتارة على بطنها ؛ فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير ؛ فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل في إقبان وإذبار حتى صيدت .

قال الأسد : قد فهمت ذلك ؛ ولا أظن الثور يغشني ويرجو لي الغوائل^(٣) . وكيف بفعل ذلك ولم ير مني سوءاً قط ؟ ولم أدع خيراً إلا فعلته معه ؟ ولا أمنيّة^(٤) إلا بلغته إياها ؟ . قال دمنه : إن اللئيم لا يزال نافعاً ناصحاً حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها

بِأَهْلٍ ، فَإِذَا بَلَغَهَا التَّمَسُّ مَا فَوْقَهَا ، وَلَا سِيَّأَ أَهْلُ الْخِيَانَةِ
وَالْفُجُورِ : فَإِنَّ اللَّئِيمَ الْفَاحِشَ لَا يَخْدُمُ السُّلْطَانَ وَلَا يَنْصَحُ لَهُ إِلَّا
مِنْ فَرْقٍ ^(١) . فَإِذَا اسْتَعْنَى وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ ؛ كَذَنِبَ
الْكَلْبُ الَّذِي يُرْبِطُ لِيَسْتَقِيمَ فَلَا يَزَالُ مُسْتَوِيًّا مَا دَامَ مُرْبُوطًا ؛
فَإِذَا حُلَّ الْخَنَى وَاعْوَجَّ كَمَا كَانَ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ
مِنْ نَصَحَاتِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ بِهِ ، لَمْ يُجِدْ رَأْيَهُ ؛
كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدْعُ مَا يَبْعَثُ لَهُ الطَّبِيبُ ؛ وَيَعْمِدُ إِلَى
مَا يَشْتَهِيهِ . وَحَقٌّ عَلَى مُوَازِرِ السُّلْطَانَ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّخَضُّعِ
لَهُ عَلَى مَا يَزِيدُ سُلْطَانَهُ قُوَّةً وَيَزِينُهُ ؛ وَالْكَفَّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَشِينُهُ ؛
وَحَيْرُ الْإِخْوَانِ وَالْأَعْوَانِ أَقْلَهُمْ مَدَاهِنَةً فِي النَّصِيحَةِ ؛ وَخَيْرُ
الْأَعْمَالِ أَحْلَاهَا عَاقِبَةً ؛ وَخَيْرُ النِّسَاءِ الْمُوَافِقَةُ لِبَعْلِهَا ؛ وَخَيْرُ
النِّسَاءِ مَا كَانَ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَخْيَارِ ؛ وَأَشْرَفُ الْمُلُوكِ مَنْ لَمْ يُخَالَطْهُ
بَطَرٌ ؛ وَخَيْرُ الْأَخْلَاقِ أَعْوَنُهَا عَلَى الْوَرَعِ . وَقَدْ قِيلَ : لَوْ أَنَّ
أَمْرًا تَوَسَّدَ النَّارَ وَافْتَرَشَ الْحَيَاتِ ، كَانَ أَحَقَّ أَلَّا يَهْنُئَهُ النَّوْمُ .

وَالرَّجُلُ إِذَا أَحَسَّ مِنْ صَاحِبِهِ بَعْدَاوَةً يُرِيدُهُ بِهَا ، لَا يَظْمَنُ
إِلَيْهِ ، وَأَنْجَزُ الْمُلُوكِ آخِذُهُمْ بِالْهُوْنِ ، وَأَقْلَهُمْ نَظْرًا فِي مُسْتَقْبَلِ
الْأُمُورِ ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْهَائِجِ الَّذِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ :
فَإِنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ تَهَاوَنَ بِهِ ، وَإِنْ أَضَاعَ الْأُمُورَ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى
قُرْنَانِهِ . قَالَ لَهُ الْأَسَدُ : لَقَدْ أَغْلَظْتَ فِي الْقَوْلِ ، وَقَوْلُ النَّاصِحِ
مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ . وَإِنْ كَانَ شَرِبَةً مُعَادِيًا لِي ، كَمَا تَقُولُ ، فَلِإِنَّهُ
لَا يَسْتَطِيعُ لِي ضَرًّا ، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ
وَأَنَا آكِلُ لَحْمٍ ؟ وَإِنَّمَا هُوَ لِي طَعَامٌ ، وَلَيْسَ عَلَى مِنْهُ مَخَافَةٌ .
ثُمَّ لَيْسَ إِلَى الْغَدْرِ بِهِ سَبِيلٌ بَعْدَ الْأَمَانِ الَّذِي جَعَلْتَهُ لَهُ ، وَبَعْدَ
إِكْرَامِي لَهُ ، وَثَنَائِي عَلَيْهِ . وَإِنْ غَيَّرْتُ مَا كَانَ مِنِّي وَبَدَّلْتُهُ ،
سَفَهْتُ رَأْيِي وَجَهَلْتُ نَفْسِي وَغَدَرْتُ بِذِمَّتِي . قَالَ دِمْنَةُ :
لَا يَغُرَّنَكَ قَوْلُكَ : هُوَ لِي طَعَامٌ وَلَيْسَ عَلَى مِنْهُ مَخَافَةٌ : فَإِنْ شَرِبَةً
إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْكَ بِنَفْسِهِ اخْتَالَ لَكَ مِنْ قَبْلِ غَيْرِهِ . وَيُقَالُ :
إِنْ اسْتَضَافَكَ ضَيْفٌ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ أَخْلَاقَهُ
فَلَا تَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا تَأْمَنُ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ
مَا أَصَابَ الْقَمَلَةَ مِنَ الْبُرْغُوثِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قَمَلَةً لَزِمَتْ فِرَاشَ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ
 دَهْرًا فَكَانَتْ تُصِيبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نَائِمٌ لَا يَشْعُرُ ، وَتَدْبُ
 دَيْبًا رَفِيقًا ، فَكَثُرَتْ كَذَلِكَ حِينًا حَتَّى اسْتَضَافَهَا لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي
 بُرْغُوثٌ ، فَقَالَتْ لَهُ : بَيْتَ اللَّيْلَةِ عِنْدَنَا فِي دَمٍ طَيِّبٍ وَفِرَاشٍ لَيِّنٍ ،
 فَأَقَامَ الْبُرْغُوثُ عِنْدَهَا حَتَّى إِذَا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ
 الْبُرْغُوثُ فَلَدَغَهُ لَدَغَةً أَيْقَظَتْهُ ، وَأَطَارَتِ النَّوْمَ عَنْهُ ، فَقَامَ الرَّجُلُ
 وَأَمَرَ أَنْ يُفْتَشَ فِرَاشُهُ ، فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ إِلَّا الْقَمَلَةَ ، فَأَخَذَتْ
 فَقُصِّعَتْ ^(١) وَفَرَّ الْبُرْغُوثُ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ
 أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لَا يَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ ، وَإِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنْ
 ذَلِكَ جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ . وَإِنْ كُنْتَ لَا تَخَافُ مِنْ شَرِّبَةٍ ، نَخَفَ
 غَيْرُهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِينَ قَدْ حَمَلَهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَى عِدَاوَتِكَ . فَوَقَعَ
 فِي نَفْسِ الْأَسَدِ كَلَامُ دِمْنَةَ . فَقَالَ : فَمَا الَّذِي تَرَى إِذَا ؟
 وَبِمَاذَا تُشِيرُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الضُّرْسَ لَا يَزَالُ مُتَأَكِّلًا ، وَلَا
 يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذَى حَتَّى يُفَارِقَهُ . وَالطَّعَامُ الَّذِي

قَدْ عَفِنَ فِي الْبَطْنِ ، الرَّاحَةُ فِي قَذْفِهِ . وَالْعَلِيُّوُ الْمَخُوفُ ، دَوَاؤُهُ
 قَتْلُهُ . قَالَ الْأَسَدُ : لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَكْرَهُ مَجَاوِرَةَ شَتْرَبَةٍ إِيَّايَ ،
 وَأَنَا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ ، وَذَا كَرُّهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ ، ثُمَّ أَمْرُهُ
 بِاللَّحَاقِ حَيْثُ أَحَبَّ . فَكَّرَهُ دِمْنَةُ ذَلِكَ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ مَتَى
 كَلَّمَ شَتْرَبَةَ فِي ذَلِكَ وَسَمِعَ مِنْهُ جَوَابًا عَرَفَ بِاطِلَ مَا أَتَى بِهِ ،
 وَاطَّلَعَ عَلَى غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ ، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرُهُ . فَقَالَ لِلْأَسَدِ :
 أَمَّا إِرسَالُكَ إِلَى شَتْرَبَةٍ فَلَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا وَلَا حَزْمًا ، فَلْيَنْظُرِ الْمَلِكُ
 فِي ذَلِكَ : فَإِنَّ شَتْرَبَةَ مَتَى شَعَرَ بِهَذَا الْأَمْرِ ، خِفَتْ أَنْ يُعَاجِلَ
 الْمَلِكُ بِالْمُكَابَرَةِ . وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ قَاتَلَكَ مُسْتَعِدًّا ، وَإِنْ
 فَارَقَكَ ، فَارَقَكَ فِرَاقًا يَلِيكَ مِنْهُ النَّقْصُ ، وَيَلْزَمُكَ مِنْهُ الْعَارُ .
 مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ الْمُلُوكِ لَا يُعْلِنُونَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُعْلِنِ
 ذَنْبَهُ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمْ عُقُوبَةٌ : فَلِذَنْبِ الْعَلَانِيَةِ عُقُوبَةٌ
 الْعَلَانِيَةُ ، وَلِذَنْبِ السِّرِّ عُقُوبَةُ السِّرِّ . قَالَ الْأَسَدُ : إِنْ الْمَلِكُ
 إِذَا عَاقَبَ أَحَدًا عَنْ ظَنَّةٍ ظَنَّهَا مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ بِجُرْمِهِ ، فَفَقَّسَهُ

عَاقَبَ وَإِيَّاهَا ظَلَمَ . قَالَ دِمْنَةُ : أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا رَأَى الْمَلِكِ ،
فَلَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شَرْبَةُ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَكَ
مِنْهُ غِرَّةٌ أَوْ غَفْلَةٌ : فَإِنِّي لَا أَحْسِبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا
سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمَةٍ . وَمِنْ عَلَامَاتِ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى
لَوْنَهُ مُتَغَيِّرًا ؛ وَتَرَى أَوْصَالَهُ تَرَعْدُ ؛ وَتَرَاهُ مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمَالًا ؛
وَتَرَاهُ يَهْزُقُ قَرْنَيْهِ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنِّطَاجِ وَالْقِتَالِ . قَالَ الْأَسَدُ :
سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ؛ وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتَ
عَلِمْتُ أَنَّ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ حَمْلِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ
وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ ، وَأَنَّ الْأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ الثَّوْرَ ،
وَيَتَهَيَّأُ لَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغَيِّرَهُ بِالْأَسَدِ ؛ وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ
إِتْيَانُهُ مِنْ قَبْلِ الْأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ . فَقَالَ :
أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَّا آتِيَ شَرْبَةً فَأَنْظُرَ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ ؛ وَأَسْمَعَ
كَلَامَهُ : لَعَلِّي أَطْلِعُ عَلَى سِرِّهِ ، فَأُطْلِعَ الْمَلِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَلَى
مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ ؟ فَأَذِنَ لَهُ الْأَسَدُ فِي ذَلِكَ . فَانْطَلَقَ قَدْخَلَ

عَلَى شَتْرَبَةٍ كَالْكُتَيْبِ الْحَزِينِ . فَلَمَّا رَأَاهُ الثَّورُ رَحَّبَ بِهِ ،
 وَقَالَ : مَا كَانَ سَبَبَ انْقِطَاعِكَ عَنِّي ؟ فَلِأَنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ ،
 وَلَعَلَّكَ فِي سَلَامَةٍ ! قَالَ دِمْنَةُ : وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامَةِ
 مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ ثُمَّ لَا يُوثِقُ بِهِ ، وَلَا
 يَنْفَكُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ . حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا
 عَلَى نَفْسِهِ . قَالَ شَتْرَبَةُ : وَمَا الَّذِي حَدَّثَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ :
 حَدَّثَ مَا قُدِّرَ وَهُوَ كَائِنٌ . وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ الْقَدَرَ ؟ وَمَنْ
 ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيًّا مِنَ الْأُمُورِ فَلَمْ يَبْطُرْ ؟ وَمَنْ
 ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنْهَا فَلَمْ يَغْتَرَّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي تَبِعَ هَوَاهُ فَلَمْ
 يَحْسَرْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللَّثَامِ فَلَمْ يُحْرَمْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي
 خَالَطَ الْأَشْرَارَ فَسَلِمَ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ
 مِنْهُ الْأَمْنُ وَالْإِحْسَانُ ؟ قَالَ شَتْرَبَةُ : إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلَامًا يَدُلُّ
 عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَأَيْتُكَ مِنَ الْأَسَدِ رَبِّ ، وَهَالِكَ مِنْهُ أَمْرٌ . قَالَ
 دِمْنَةُ : أَجَلٌ ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي مِنْهُ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي .
 قَالَ شَتْرَبَةُ : فِي نَفْسٍ مِنْ رَأَيْتُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ تَعَلَّمُ مَا بَيْنِي

وَبَيْنَكَ ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ
وَالْمِيثَاقِ أَيَّامًا أَرْسَلَنِي الْأَسَدُ إِلَيْكَ ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ حِفْظِكَ
وَإِطْلَاعِكَ عَلَيَّ مَا أَطْلَعْتَ عَلَيْهِ مِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ . قَالَ
شَرَبَةُ : وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْخَيْرُ الصَّدُوقُ
الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الْأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجُلَسَائِهِ :
قَدْ أُعْجِبَنِي سِمْنُ الثَّوْرِ ، وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ ، فَأَنَا آكِلُهُ
وَمُطْعِمُ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي هَذَا الْقَوْلُ ، وَعَرَفْتُ
غَدْرَهُ وَنَقْضَ عَهْدِهِ ، أَتَيْتُكَ لِأَقْضِيَ حَقَّكَ ، وَتَحْتَالَ
أَنْتَ لِأَمْرِكَ . فَلَمَّا سَمِعَ شَرَبَةُ كَلَامَ دِمْنَةَ ، وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ
دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَفَكَرَ فِي أَمْرِ الْأَسَدِ ، ظَنَّ
أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ وَنَصَحَ لَهُ ، وَرَأَى أَنَّ الْأَمْرَ شَبِيهُ بِمَا قَالَ
دِمْنَةُ . فَأَهَمَّهُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : مَا كَانَ لِلْأَسَدِ أَنْ يَغْدِرَ بِي وَلَمْ
آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ ، مُنْذُ صَحِبْتُهُ ، وَلَا
أُظُنُّ الْأَسَدَ إِلَّا قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ بِالْكَذِبِ وَشِبْهِ عَلَيْهِ أَمْرِي : فَإِنَّ
الْأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَوْمٌ سَوَاءٌ ، وَجَرَّبَ مِنْهُمْ الْكَذِبَ وَأُمُورًا هِيَ

تُصَدِّقُ عِنْدَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ : فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ رُبَّمَا
 أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُوءَ ظَنٍّ بِالْأَخْيَارِ ، وَحَمَلَتْهُ تَجَرِبَتُهُ عَلَى الْخَطَا
 كَخَطَا الْبَطَّةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا رَأَتْ فِي الْمَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ ، فَظَنَّتْهُ
 سَمَكَةً ، فَحَاوَلَتْ أَنْ تَصِيدَهَا ، فَلَمَّا جَرَّبَتْ ذَلِكَ مِرَارًا ،
 عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ فَتَرَكَتْهُ . ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدٍ ذَلِكَ
 الْيَوْمِ سَمَكَةً ، فَظَنَّتْ أَنَّهَا مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالْأَمْسِ ، فَتَرَكَتْهَا
 وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا . فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبُ فَصَدَقَهُ
 عَلَى وَجْمَعِهِ فِيَّ ، فَمَا جَرَى عَلَى غَيْرِي يَجْرِي عَلَى . وَإِنْ كَانَ
 لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ ، وَأَرَادَ السُّوءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ
 أُعْجِبَ الْأُمُورَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنْ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ
 الرَّجُلُ رِضًا صَاحِبِهِ وَلَا يَرْضَى . وَأُعْجِبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ
 رِضَاهُ فَيَسْخَطَ . فَإِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ عَنْ عِلَّةٍ ، كَانَ الرِّضَا
 مَوْجُودًا وَالْعَفْوُ مَأْمُولًا . وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، انْقَطَعَ
 الرَّجَاءُ : لِأَنَّ الْعِلَّةَ إِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةَ فِي وُرُودِهَا ، كَانَ الرِّضَا
 مَأْمُولًا فِي صُدُورِهَا .

قَدْ نَظَرْتُ : فَلَا أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَسَدِ جُرْمًا ، وَلَا صَغِيرَ
 ذَنْبٍ ، وَلَا كَبِيرَهُ . وَلَعَمْرِي مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ
 صَاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَلَا أَنْ يَحْفَظَ
 مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ صَغِيرَةٌ أَوْ كَبِيرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ ، وَلَكِنْ الرَّجُلُ
 ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْوَفَاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقَطَتْ نَظَرُفِيهَا ،
 وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطْئِهِ عَمْدًا كَانَ أَوْ خَطَأً . ثُمَّ يَنْظُرُ هَلْ
 فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يَخَافُ ضَرَرَهُ وَشَيْنَهُ ؟ فَلَا يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ
 بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيلًا . فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ قَدْ
 اعْتَقَدَ عَلَى ذَنْبٍ ، فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ ، إِلَّا أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ
 رَأْيِهِ نَصِيحَةً لَهُ ، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الْجَرَاءَةِ
 عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ ، وَلَا أَجِدُ لِي فِي هَذَا الْمُحْضِرِ إِثْمًا مَا : لِأَنِّي
 لَمْ أَخَالَفْهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا مَا قَدْ نَدَرْتُ مِنَ مُخَالَفَةِ الرَّشِدِ وَالْمَنْفَعَةِ
 وَالْدِّينِ ، وَلَمْ أَجَاهِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ جُنْدِهِ وَعِنْدَ
 أَصْحَابِهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخْلُو بِهِ وَأَكَلِمُهُ سِرًّا كَلَامَ الْهَائِبِ الْمَوْقُرِ .
 وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنَ التَّمِيسِ الرَّخِصِ مِنَ الْإِخْوَانِ عِنْدَ الْمَشَاوِرَةِ ،

وَمِنْ الْأَطِبَّاءِ عِنْدَ الْمَرِضِ ، وَمِنْ الْفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، أَخْطَأَ
 مَنَافِعَ الرَّأْيِ ، وَازْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَوَرُّطًا ^(١) ، وَحَمَلَ
 الْوِزَرَ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ
 سَكَرَاتِ السُّلْطَانِ : فَإِنَّ مُصَاحِبَةَ السُّلْطَانِ خَطَرَةٌ ، وَإِنْ
 صُوحِبَ بِالسَّلَامَةِ وَالثِّقَةِ وَالْمُودَّةِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ . وَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ هَذَا ، فَبَعْضُ مَا أُوتِيَتْ مِنَ الْفَضْلِ قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ
 الْهَلَاكُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا هَذَا ، فَهُوَ إِذَا مِنْ مَوَاقِعِ
 الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ ، وَالْقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الْأَسَدَ
 قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ ، وَيُدْخِلُهُ الْقَبْرَ ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ
 عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْهَائِجِ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَى الْحَيَّةِ ذَاتِ الْحُمَةِ ^(٢)
 مَنْ يَنْزِعُ حُمَتَهَا وَيَلْعَبُ بِهَا ، وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَاجِزَ حَازِمًا ،
 وَيُثَبِّطُ ^(٣) الشَّهْمَ ، وَيُوسِعُ ^(٤) عَلَى الْمُقْتِرِ ، وَيُشْجِعُ الْجَبَانَ ، وَيُجَبِّنُ
 الشُّجَاعَ عِنْدَ مَا تَعْتَرِيهِ الْمَقَادِيرُ مِنَ الْعِلَالِ الَّتِي وُضِعَتْ عَلَيْهَا
 الْأَقْدَارُ .

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ إِرَادَةَ الْأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْمِيلِ الْأَشْرَارِ وَلَا
 سَكْرَةِ السُّلْطَانِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهَا الْغَدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ :
 فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ : لِطَعَامِهِ حَلَاوَةٌ وَآخِرُهُ سَمٌ مُمِيتٌ . قَالَ
 شَتْرَبَةُ : فَأَرَانِي قَدْ اسْتَلْذَذْتُ الْحَلَاوَةَ إِذْ ذُقْتُهَا : وَقَدْ انْتَهَيْتُ
 إِلَى آخِرِهَا الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ ، وَلَوْ لَا الْحَيْنُ مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ
 الْأَسَدِ ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ فَأَنَا فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ
 كَالنَّحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلُوفِرِ إِذْ تَسْتَلِثُ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ ،
 فَتَحْبِسُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضُمُ عَلَيْهَا ، فَتَرْتَبِكُ فِيهِ
 وَتَمُوتُ . وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكَفَافِ الَّذِي يُغْنِيهِ
 وَطَمَحَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يَخَوْفْ عَاقِبَتَهَا ، كَانَ
 كَالذَّبَابِ الَّذِي لَا يَرْضَى بِالشَّجَرَةِ وَالرَّيَاحِينِ ، وَلَا يُقْنِعُهُ ذَلِكَ ،
 حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الْفِيلِ ، فَيَضْرِبُهُ الْفِيلُ
 بِأَذَانِهِ فَيُهْلِكُهُ . وَمَنْ يَبْذُلُ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لَا يَشْكُرُهُ ،
 فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّبَاخِ . وَمَنْ يُشِرُّ عَلَى الْمُعْجَبِ ، فَهُوَ كَمَنْ

يُسَاوِرُ الْمَيْتَ أَوْ يُسَارُّ الْأَصَمَّ . قَالَ دِمْنَةُ : دَعِ عَنْكَ هَذَا
 الْكَلَامَ وَاخْتَلِ لِنَفْسِكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : بِأَيِّ شَيْءٍ اخْتَالَ
 لِنَفْسِي ، إِذَا أَرَادَ الْأَسَدُ أَكْلِي ، مَعَ مَا عَرَفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الْأَسَدِ
 وَسُوءِ أَخْلَاقِهِ ؟ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُرِذْ بِي إِلَّا خَيْرًا ، ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابَهُ
 بِمَكْرِهِمْ وَبِخُورِهِمْ هَلَاقِي لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ
 الْمَكْرَةُ الظُّلْمَةُ عَلَى الْبَرِّ الصَّحِيحِ ، كَانُوا خُلُقَاءَ أَنْ يَهْلِكُوهُ ،
 وَإِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَهُوَ قَوِيٌّ ، كَمَا أَهْلَكَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ
 آوَى الْجَمَلِ ، حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْحِيَانَةِ .
 قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ شَتْرَبَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجْمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِمَطَرِي
 مِنْ طُرُقِ النَّاسِ ، وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ ثَلَاثَةٌ : ذِئْبٌ وَغُرَابٌ
 وَابْنُ آوَى ، وَأَنَّ رِعَاءَ مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ ، وَمَعَهُمْ جِمَالٌ ،
 فَتَخَلَّفَ مِنْهَا بَقْلٌ ، فَدَخَلَ تِلْكَ الْأَجْمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَسَدِ ،
 فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ مَوْضِعٍ كَذَا .
 قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : مَا يَأْمُرُنِي بِهِ الْمَلِكُ . قَالَ : تُقِيمُ

عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْخُصْبِ . فَأَقَامَ الْأَسَدُ وَالْجَمَلُ
مَعَهُ زَمَنًا طَوِيلًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِيَطْلُبَ
الصَّيْدَ ، فَلَقِيَ فِيلًا عَظِيمًا ، فَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَأَفْلَتَ
مِنْهُ مُثْقَلًا مُنْخَنًا بِالْجِرَاحِ ، يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ ، وَقَدْ خَدَشَهُ الْفِيلُ
بِأَنْيَابِهِ . فَلَهَا وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَقَعَ لَا يَسْتَطِيعُ حَرَاكًا ،
وَلَا يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ ، فَلَبِثَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَأَبْنُ آوَى
أَيَّامًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا : لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلَاتِ
الْأَسَدِ وَطَعَامِهِ ، فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ وَهَزَالٌ ، وَعَرَفَ
الْأَسَدُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : لَقَدْ جُهِدْتُمْ^(١) وَاحْتَجَمْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُونَ .
فَقَالُوا : لَا تَهْمُنَا أَنْفُسُنَا : لَكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ .
فَلَيْتَنَّا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُضِلُّهُ . قَالَ الْأَسَدُ : مَا أَشْكُ
فِي نَصِيحَتِكُمْ ، وَلَكِنْ انْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا تَأْتُونَنِي بِهِ ،
فِيُصِيبَنِي وَيُصِيبُكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ . نَخْرَجُ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ
وَأَبْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ، فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً ، وَتَشَاوَرُوا فِيمَا

(١) جهد : حصل له مشقة .

بَيْنَهُمْ ، وَقَالُوا : مَا لَنَا وَلِهَذَا أَلَا كُلِّ الْعُشْبِ الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ
 مِنْ شَأْنِنَا ، وَلَا رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا ؟ أَلَا نُزَيِّنُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلُهُ
 وَيُطْعِمُنَا مِنْ لَحْمِهِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : هَذَا مِمَّا لَا تَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ
 لِلْأَسَدِ : لِأَنَّهُ قَدْ آمَنَ الْجَمَلُ ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ عَهْدًا .
 قَالَ الْغُرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الْأَسَدِ . ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى
 الْأَسَدِ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا ؟ قَالَ الْغُرَابُ :
 إِنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ . وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا سَعَى لَنَا وَلَا
 بَصَرَ : لِمَا بَنَا مِنَ الْجُوعِ ، وَلَكِنْ قَدْ وَفَّقْنَا لِرَأْيٍ وَاجْتَمَعْنَا
 عَلَيْهِ ، إِنْ وَافَقْنَا الْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ . قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا
 ذَاكَ ؟ قَالَ الْغُرَابُ : هَذَا الْجَمَلُ آكَلَ الْعُشْبِ الْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنَا
 مِنْ غَيْرِ مَنَفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ ، وَلَا رَدِّ عَائِدَةٍ ، وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ
 مَصْلَحَةً . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذَلِكَ غَضِبَ وَقَالَ : مَا أَخْطَأَ
 رَأْيِكَ ، وَمَا أَعْجَزَ مَقَالِكَ ، وَأَبْعَدَكَ مِنَ الْوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ ! وَمَا
 كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِيَّ عَلَى بَهْدِهِ الْمَقَالَةِ ، وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهَذَا
 الْخَطَابِ ، مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ الْجَمَلَ ، وَجَعَلْتُ لَهُ

مِنْ ذِمَّتِي . أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ هِيَ
 أَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّنْ أَمَّنَ نَفْسًا خَائِفَةً ، وَحَقَنَ دَمًا مُهْدَرًا ؟ وَقَدْ
 أَمَّنْتَهُ وَلَكُنْتُ بِغَادِرِهِ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنِّي لَا أَعْرِفُ مَا يَقُولُ
 الْمَلِكُ ، وَلَكِنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ ، وَأَهْلُ
 الْبَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمُ الْقَبِيلَةُ ، وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْمِصْرِ ،
 وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَاءُ الْمَلِكِ . وَقَدْ نَزَلْتُ بِالْمَلِكِ الْحَاجَّةُ ، وَأَنَا
 أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجًا ، عَلَى أَلَّا يَتَكَلَّفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وَلَا
 يَلِيَهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَأْمُرُ بِهِ أَحَدًا ، وَلَكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلَهُ
 فِيهَا إِصْلَاحٌ وَظَفَرٌ . فَسَكَتَ الْأَسَدُ عَنْ جَوَابِ الْغُرَابِ عَنْ هَذَا
 الْخِطَابِ . فَلَمَّا عَرَفَ الْغُرَابُ إِقْرَارَ الْأَسَدِ أَتَى أَصْحَابَهُ ،
 فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ كَلَّمْتُ الْأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الْجَمَلِ ، عَلَى أَنْ يَجْتَمَعَ نَحْنُ
 وَالْجَمَلُ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَنَذْكُرُ مَا أَصَابَهُ ، وَنَتَوَجَّعَ لَهُ اهْتِمَامًا مِنَّا
 بِأَمْرِهِ ، وَخِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِ ، وَيَعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ
 عَلَيْهِ تَجْمُلًا لِيَأْكُلَهُ ، فَيَرُدُّ الْأَنْحِرَانَ عَلَيْهِ ، وَيُسَفِّهَانِ رَأْيَهُ ،
 وَيُبَيِّنَانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ . فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ، سَلِمْنَا كُلُّنَا وَرَضِيَ

الْأَسَدُ عَنَّا . فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْأَسَدِ ، فَقَالَ الْغُرَابُ :
 قَدْ اخْتَجَعْتُ إِلَيْهَا الْمَلِكُ إِلَى مَا يَقُوُّكَ ، وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ
 أَنْفُسَنَا لَكَ : فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ ، فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا
 بَقَاءٌ بَعْدَكَ ، وَلَا لَنَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ خَيْرٍ ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ :
 فَقَدْ طِبْتُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَأَجَابَهُ الذِّبُّ وَابْنُ آوَى أَنْ أَسْكُتَ ،
 فَلَا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ ، وَلَيْسَ فِيكَ شَيْعٌ . قَالَ ابْنُ آوَى
 لَكِنْ أَنَا أَشْبَعُ الْمَلِكُ ، فَلْيَأْكُلْنِي : فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ ،
 وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا . فَرَدَّ عَلَيْهِ الذِّبُّ وَالْغُرَابُ بِقَوْلِهِمَا : إِنَّكَ
 لَمُسْتَنْ قَدِيرٌ . قَالَ الذِّبُّ : إِنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ ،
 فَقَدْ سَمَخْتُ بِذَلِكَ ، وَطِبْتُ عَنْهُ نَفْسًا ، فَأَعْتَرَضَهُ الْغُرَابُ وَابْنُ
 آوَى وَقَالَا : قَدْ قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَإِنَّمَا كُلَّ
 لَحْمٍ ذَنْبٍ . فَظَنَّ الْجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْأَكْلِ ،
 التَّمَسُّوْا لَهُ عُذْرًا كَمَا التَّمَسُّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْأَعْدَارَ ، فَيَسْلَمُ
 وَيَرْضَى الْأَسَدُ عَنْهُ بِذَلِكَ ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَهَالِكِ . فَقَالَ :
 لَكِنْ أَنَا فِي لِلْمَلِكِ شَيْعٌ وَرَى ، وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ ، وَبَطْنِي

نَظِيفٌ ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ ، وَيُطْعِمِ أَصْحَابَهُ وَخَدَمَهُ : فَقَدْ رَضِيتُ
بِذَلِكَ ، وَطَابَتْ نَفْسِي عَنْهُ ، وَسَمَحَتْ بِهِ . فَقَالَ الذِّئْبُ
وَالْغُرَابُ وَأَبْنُ آوَى : لَقَدْ صَدَقَ الْجَمَلُ وَكَرَّمَ . وَقَالَ مَا عُرِفَ .
ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَّقُوهُ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَسَدِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى هَلَاكِ فَلَانِي لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتَنَعَ مِنْهُمْ ،
وَلَا أُحْتَرِسَ ؛ وَإِنْ كَانَ رَأَى الْأَسَدُ لِي عَلَى غَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ
فِي ، فَلَا يَنْفَعُنِي ذَلِكَ ، وَلَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا . وَقَدْ يُقَالُ : خَيْرُ
السَّلَاطِينِ مَنْ عَدَلَ فِي النَّاسِ . وَلَوْ أَنَّ الْأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ
لِي إِلَّا الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ ، لَغَيَّرْتُهُ كَثْرَةُ الْأَقَاوِيلِ : فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ
لَمْ تَلْبَثْ دُونَ أَنْ تُذْهِبَ الرِّقَّةَ وَالرَّافَةَ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ
كَالْقَوْلِ ؛ وَأَنَّ الْحَجَرَ أَشَدَّ مِنَ الْإِنْسَانِ ؟ فَالْمَاءُ إِذَا دَامَ
انْحِدَارُهُ عَلَى الْحَجَرِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى يَنْقُبَهُ وَيُوَثِّرَ فِيهِ . وَكَذَلِكَ
الْقَوْلُ فِي الْإِنْسَانِ . قَالَ دِمْنَةُ : فَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ الْآنَ ؟
قَالَ شَتْرَبَةُ : مَا أَرَى إِلَّا الْجَهَادَ وَالْمُجَاهَدَةَ بِالْقِتَالِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ

لِلْمُصَلِّي فِي صَلَاتِهِ ، وَلَا لِلْمُتَصَدِّقِ فِي صَدَقَتِهِ ، وَلَا لِلْوَرِيعِ فِي وَرَعِهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ ، إِذَا كَانَتْ مُجَاهَدَتُهُ عَلَى الْحَقِّ . قَالَ دِمْنَةُ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ وَلَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ جَاعِلُ الْقِتَالِ آخِرَ الْحِيلِ ، وَبَادِي قَبْلَ ذَلِكَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ رَفَقٍ وَتَمَحُّلٍ . وَقَدْ قِيلَ : لَا تَحْقِرَنَّ الْعَدُوَّ الضَّعِيفَ الْمُهِنَ ، وَلَا سِيمًا إِذَا كَانَ ذَا حِيلَةٍ وَيَقْدِرُ عَلَى الْأَعْوَانِ ؛ فَكَيْفَ بِالْأَسَدِ عَلَى جِرَائَتِهِ وَشِدَّتِهِ ؟ فَإِنَّ مَنْ حَقَرَ عَدُوَّهُ لِضَعْفِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ وَكِيلَ الْبَحْرِ مِنَ الطَّيْطَوَى ^(١) قَالَ شَتْرَبَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ طَائِرًا مِنْ طُيُورِ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ الطَّيْطَوَى كَانَ وَطَنُهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ ، فَلَمَّا جَاءَ أَوَانُ تَفْرِيحِهِمَا قَالَتِ الْأُنْثَى لِلذَّكَرِ : لَوْ التَّمَسْنَا مَكَانًا حَرِيْرًا نَفْرُخُ فِيهِ : فَلِئَنِّي أَخْشَى مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ إِذَا مَدَّ الْمَاءُ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاحِنَا . فَقَالَ لَهَا : أَفَرِحِي مَكَانَكَ : فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لَنَا ،

(١) الطيطوى : ضرب من القطا .

والماء والزهر منّا قريب . قَالَتْ لَهُ : يَا غَافِلُ لِيَحْسُنَ نَظْرُكَ :
فِيَّيْ أَخَافُ وَكِيلَ الْبَحْرِ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاحِنَا . فَقَالَ لَهَا : أَفَرِحِي
مَكَانَكَ : فَإِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَقَالَتْ لَهُ : مَا أَشَدَّ تَعَنُّتُكَ ^(١) !
أَمَّا تَذَكُّرُ وَعِيدِهِ وَتَهْدُدُهُ إِيَّاكَ ؟ أَلَا تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ ؟ فَإِنِّي
أَنْ يُطِيعَهَا . فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهَا ، قَالَتْ لَهُ :
إِنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ النَّاصِحِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ السُّلَحْفَاةَ حِينَ لَمْ
تَسْمَعْ قَوْلَ الْبَطَّيْنِ . قَالَ الذَّكْرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتِ الْأُنْثَى : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ ، وَكَانَ فِيهِ
بَطَّانٌ وَكَانَ فِي الْغَدِيرِ سُلَحْفَاةٌ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَطَّيْنِ مَوَدَّةٌ
وَصَدَاقَةٌ . فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ ذَلِكَ الْمَاءُ ، فَجَاءَتِ الْبَطَّانِ لَوْدَاعِ
السُّلَحْفَاةِ ، وَقَالَتَا : السَّلَامُ عَلَيْكَ فَإِنَّا ذَاهِبَتَانِ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ
لِأَجْلِ نُقْصَانِ الْمَاءِ عَنْهُ . فَقَالَتْ : إِنَّمَا يَبِينُ نُقْصَانُ الْمَاءِ
عَلَى مِثْلِي : فَإِنِّي كَأَنِّي السَّفِينَةُ لَا أَقْدِرُ عَلَى الْعَيْشِ إِلَّا بِالْمَاءِ .
فَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقْدِرَانِ عَلَى الْعَيْشِ حَيْثُ كُنْتُمَا . فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمْ .

قَالَتَا لَهَا : نَعَمْ . قَالَتْ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمَلِي ؟ قَالَتَا :
 نَأْخُذُ بِطَرْفِي عُودٍ ، وَتَتَعَلَّقِينَ بِوَسْطِهِ ، وَنَطِيرُ بِكَ فِي الْجَوِّ .
 وَإِيَّاكَ ، إِذَا سَمِعْتَ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ ، أَنْ تَنْطِقِي . ثُمَّ أَخَذَتَاهَا
 فَطَارَتَا بِهِمَا فِي الْجَوِّ . فَقَالَ النَّاسُ : عَجَبٌ : سُلْخَفَاءُ بَيْنَ
 بَطَّيْنٍ ، قَدْ حَمَلَتَاهَا . فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ : فَقَا اللَّهُ أَعْيُنَكُمْ
 أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاها بِالنُّطْقِ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ
 فَمَاتَتْ . قَالَ الذَّكَرُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ، فَلَا تَخَافِي وَكِيلَ
 الْبَحْرِ . فَلَمَّا مَدَّ الْمَاءُ ذَهَبَ بِفِرَاحِهِمَا . فَقَالَتِ الْأُنْثَى :
 قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ . قَالَ الذَّكَرُ : سَوْفَ
 أَنْتَقِمُ مِنْهُ . ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فَقَالَ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ أَخَوَاتِي
 وَثِقَاتِي : فَأَعِيتِي . قُلْنَ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ قَالَ :
 نَجْتَمِعْنَ وَتَذْهَبْنَ مَعِيَ إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ ، فَنَشْكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيتُ
 مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَقُولُ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنَا : فَأَعِيتَنَا .
 فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ : إِنَّ الْعَنْقَاءَ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا :
 فَاذْهَبِي بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصِيحَ بِهَا ، فَتَظْهَرَ لَنَا ، فَنَشْكُو إِلَيْهَا

مَا نَالَكَ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَسَأَلَهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا .
 ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطَّيْطَوَى ، فَاسْتَعَثَّنَهَا ، وَصَحْنَ بِهَا ،
 فَتَرَاءَتْ لَهُنَّ فَأَخْبَرْنَهَا بِقِصَّتِهِنَّ ، وَسَأَلْنَهَا أَنْ تَسِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى
 مُحَارَبَةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ
 الْبَحْرِ أَنَّ الْعَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ
 مَلِكٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ . فَرَدَّ فِرَاحَ الطَّيْطَوَى ، وَصَالِحَهُ
 فَرَجَعَتِ الْعَنْقَاءُ عَنْهُ .

وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْقِتَالَ مَعَ الْأَسَدِ
 لَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا . قَالَ شَرَبَةُ : فَمَا أَنَا بِمُقَاتِلِ الْأَسَدِ ،
 وَلَا نَاصِبٍ لَهُ الْعَدَاوَةَ سِرًّا وَلَا عَلَانِيَةً وَلَا مُتَغَيِّرٍ لَهُ عَمَّا كُنْتُ
 عَلَيْهِ ، حَتَّى يَبْدُو لِي مِنْهُ مَا أَتَخَوَّفُ فَأُعَالِيهِ . فَكَرِهَ دِمْنَةُ قَوْلَهُ ،
 وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ إِنْ لَمْ يَرِ مِنَ الثَّوْرِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي كَانَ ذَكَرَهَا لَهُ
 أَتَّهَمُهُ وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ . فَقَالَ دِمْنَةُ لِشَرَبَةَ : اذْهَبْ إِلَى الْأَسَدِ
 فَسَتَعْرِفُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَا يُرِيدُ مِنْكَ . قَالَ شَرَبَةُ : وَكَيْفَ
 أَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : سَتَرَى الْأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ

مُقْعِيًا عَلَى ذَنْبِهِ ، رَافِعًا صَدْرَهُ إِلَيْكَ ، مَاذَا بَصَرُهُ نَحْوَكَ ، قَدْ
صَرَ أذُنِيهِ ، وَفَغَرَ فَاهُ ، وَاسْتَوَى لِلْوُثْبَةِ . قَالَ شَتْرَبَةُ : إِنْ رَأَيْتُ
هَذِهِ الْعَلَامَاتِ مِنَ الْأَسَدِ عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ . ثُمَّ إِنْ دِمْنَةُ
لَمَّا فَرَّغَ مِنْ حَمْلِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ ، وَالثَّوْرُ عَلَى الْأَسَدِ تَوَجَّهَ
إِلَى كَلِيلَةَ . فَلَمَّا التَّقِيَا ، قَالَ كَلِيلَةُ : إِلَامَ انْتَهَى عَمَلُكَ
الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَرِيبٌ مِنَ الْفَرَاغِ عَلَى مَا أُحِبُّ
وُحِبُّ . ثُمَّ إِنْ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةُ انْطَلَقَا جَمِيعًا لِيَخْضُرَا قِتَالَ
الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ ، وَيَنْظُرَا مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا ، وَيُعَايِنَا مَا يَثُولُ إِلَيْهِ
أَمْرُهُمَا . وَجَاءَ شَتْرَبَةُ ، فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَرَأَاهُ مُقْعِيًا كَمَا
وَصَفَهُ لَهُ دِمْنَةُ ، فَقَالَ : مَا صَاحِبُ السُّلْطَانِ إِلَّا كَصَاحِبِ
الْحَيَّةِ الَّتِي فِي مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ ، فَلَا يَذَرِي مَتَى تَهِيجُ بِهِ .
ثُمَّ إِنْ الْأَسَدَ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرِ فَرَأَى الدَّلَالَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَهُ
دِمْنَةُ : فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ جَاءَ لِقِتَالِهِ . فَوَائِبُهُ ، وَنَشَأُ بَيْنَهُمَا الْحَرْبُ ،
وَأَشْتَدَّ قِتَالُ الثَّوْرِ وَالْأَسَدِ ، وَطَالَ ، وَسَالَتْ بَيْنَهُمَا الدَّمَاءُ .

فَلَمَّا رَأَى كَلِيلَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مَا قَدْ بَلَغَ . قَالَ لِدِمْنَةَ :
 أَيُّهَا الْفَسَلُ^(١) مَا أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ وَأَسْوَأَ عَاقِبَتِكَ فِي تَدْبِيرِكَ ! قَالَ
 دِمْنَةُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : جُرِحَ الْأَسَدُ وَهَلَكَ الثَّورُ . وَإِنَّ
 أَنْحَرَقَ الْخَرَقَ مَنْ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ ،
 وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَبِيلًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ يُدَبِّرُ الْأَشْيَاءَ وَيَقِيسُهَا
 قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا : فَكَارَجَا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْهَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ ، وَمَا خَافَ أَنْ
 يَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْهَا أَنْحَرَفَ عَنْهُ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ . وَإِنِّي لَا أَخَافُ
 عَلَيْكَ عَاقِبَةَ بَغْيِكَ هَذَا : فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ وَلَمْ تُحْسِنِ
 الْعَمَلَ . أَيْنَ مُعَاهَدَتُكَ إِيَّايَ أَنَّكَ لَا تَضُرُّ بِالْأَسَدِ فِي تَدْبِيرِكَ ؟
 وَقَدْ قِيلَ : لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ ، وَلَا فِي الْفِقْهِ إِلَّا
 مَعَ الْوَرَعِ ، وَلَا فِي الصَّدَقَةِ إِلَّا مَعَ النِّيَّةِ ، وَلَا فِي الْمَالِ إِلَّا
 مَعَ الْجُودِ ، وَلَا فِي الصِّدْقِ إِلَّا مَعَ الْوَفَاءِ ، وَلَا فِي الْحَيَاةِ إِلَّا
 مَعَ الصُّحَّةِ ، وَلَا فِي الْأَمْنِ إِلَّا مَعَ السُّرُورِ .

(١) الفسل : الرذل الذي لامرؤة له .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَدَبَ يُذْهِبُ عَنِ الْعَاقِلِ الطَّيْشَ ، وَيَزِيدُ الْأَخْمَقَ
طَيْشًا ، كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَزِيدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظْرًا ، وَيَزِيدُ الْخُفَّاشَ
سُوءَ النَّظَرِ .

وَقَدْ أَذْكَرَنِي أَمْرُكَ شَيْئًا سَمِعْتُهُ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ السُّلْطَانَ
إِذَا كَانَ صَالِحًا ، وَوُزَرَائِهِ وَوُزَرَائِهِ سُوءٍ ، مَنَعُوا خَيْرَهُ ، فَلَا يَقْدِرُ
أَحَدٌ أَنْ يَدْنُو مِنْهُ . وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ الْمَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيهِ
التَّمَّاسِيحُ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ ، وَإِنْ كَانَ إِلَى الْمَاءِ
مُحْتَاجًا . وَأَنْتَ يَا دِمْنَةُ أَرَدْتَ إِلَّا يَدْنُو مِنَ الْأَسَدِ أَحَدٌ سِوَاكَ .
وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَصِحُّ وَلَا يَتِمُّ أَبَدًا . وَذَلِكَ لِلْمِثْلِ الْمَضْرُوبِ :
إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ ، وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحَابِهِ . وَمِنَ الْخُتْمِ الْحِرْصُ
عَلَى التَّمَّاسِ الْإِخْوَانِ بِغَيْرِ الْوَفَاءِ لَهُمْ ، وَطَلَبُ الْآنَحَةِ بِالرِّيَاءِ ،
وَنَفْعُ النَّفْسِ بِضَرِّ الْغَيْرِ . وَمَا عِظَتِي وَتَأْدِيبِي إِيَّاكَ إِلَّا كَمَا قَالَ
الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ : لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ ، وَلَا تُعَالِجْ
تَأْدِيبَ مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعُمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ كَانُوا سُكَّانًا فِي جَبَلٍ ،
 فَالْتَمَسُوا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَّاحٍ وَأَمْطَارٍ نَارًا ، فَلَمْ يَجِدُوا ،
 فَرَأَوْا يَرَاعَةً ^(١) تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ نَارٍ ، فَظَنُّوْهَا نَارًا ، وَجَمَعُوا حَطَبًا
 كَثِيرًا فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا ، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ طَمَعًا أَنْ يُوقِدُوا نَارًا
 يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ ، يَنْظُرُ ^(٢)
 إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ
 لَا تَتَعَبُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنَارٍ . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ
 عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَعَرَفَ
 مَا عَزَمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ : لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ ^(٣)
 فَإِنَّ الْحَجَرَ الْمَانِعَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ لَا تُجَرَّبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ
 وَالْعُودَ الَّذِي لَا يَنْخَنِي لَا يُعْمَلُ مِنْهُ الْقَوْسُ : فَلَا تَتَعَبْ . فَأَجَابَ
 الطَّائِرُ أَنْ يُطِيعَهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ الْيَرَاعَةَ لَيْسَتْ
 بِنَارٍ . فَتَنَاوَلَهُ بَعْضُ الْقِرَدَةِ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَمَاتَ . فَهَذَا

(١) اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار . (٢) يستدفنون . (٣) الصَّئِدُ

مَثَلِي مَعَكَ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخُبُّ ^(١) وَالْفُجُورُ ، وَهُمَا
خَلَّتَا سُوءَ ، وَالْخُبُّ شَرُّهُمَا عَاقِبَةً . وَلِهَذَا مَثَلٌ . قَالَ دِمْنَةُ :
وَمَا ذَلِكَ الْمَثَلُ ؟

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ خَبًّا وَمُغْفَلًا اشْتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَافَرَا ،
فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الطَّرِيقِ ، إِذْ تَخَلَّفَ الْمُغْفَلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ ،
فَوَجَدَ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ ، فَأَخَذَهُ ، فَأَحْسَّ بِهِ الْخُبُّ ،
فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِمَا ، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعَدَا لِاقْتِسَامِ
الْمَالِ . فَقَالَ الْمُغْفَلُ : خُذْ نِصْفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ ، وَكَانَ
الْخُبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَلْفِ جَمِيعِهِ . فَقَالَ لَهُ :
لَا نَقْتَسِمُ ، فَإِنَّ الشَّرِكَةَ وَالْمُفَاوِضَةَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّفَاءِ وَالْخُطَايَةِ ،
وَلَكِنْ آخُذْ نَفَقَةً ، وَتَأْخُذْ مِثْلَهَا ، وَتَدْفِنُ الْبَاقِي فِي أَصْلِ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ : فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيرٌ . فَإِذَا اخْتَجْنَا جِئْنَا أَنَا وَأَنْتَ فَنَأْخُذْ
حَاجَتَنَا مِنْهُ ، وَلَا يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ . فَأَخَذَا مِنْهُ لِسِيرًا ، وَدَفَنَا

(١) الخُداع . . . (٢) الخُبُّ : المفسد الخُداع اللئيم .

(١) الْبَاقِي فِي أَصْلِ دَوْحَةٍ ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ . ثُمَّ إِنَّ الْخُبَّ خَالَفَ
 الْمُغْفَلَ إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا ، وَسَوَّى الْأَرْضَ كَمَا كَانَتْ .
 وَجَاءَ الْمُغْفَلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ فَقَالَ لِلْخُبِّ : قَدْ اخْتَجْتُ إِلَى
 نَفْقَةٍ فَاِنْطَلِقْ بِنَا نَأْخُذْ حَاجَتَنَا ، فَقَامَ الْخُبُّ مَعَهُ وَذَهَبَا
 إِلَى الْمَكَانِ فَحَفَرَا ، فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا . فَأَقْبَلَ الْخُبُّ عَلَى وَجْهِهِ
 يَأْطِمُهُ يَقُولُ : لَا تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صَاحِبٍ : خَالَفْتَنِي إِلَى الدَّنَانِيرِ
 فَأَخَذْتَهَا . فَجَعَلَ الْمُغْفَلُ يَخْلِفُ وَيَلْعَنُ آخِذَهَا وَلَا يَزْدَادُ
 الْخُبُّ إِلَّا شِدَّةً فِي اللَّظْمِ . وَقَالَ : مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ . وَهَلْ
 شَعَرَبَهَا أَحَدٌ سِوَاكَ ؟ ثُمَّ طَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمَا ، فَتَرَا فَعَا
 إِلَى الْقَاضِي ، فَاقْتَصَّ الْقَاضِي قِصَّتَهُمَا ، فَادَّعَى الْخُبُّ
 أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا ، وَجَحَّدَ الْمُغْفَلُ . فَقَالَ لِلْخُبِّ : أَلَيْكَ عَلَى
 دَعْوَاكَ بَيِّنَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتْ الدَّنَانِيرُ عِنْدَهَا
 تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا . وَكَانَ الْخُبُّ قَدْ أَمَرَ أَبَاهُ أَنْ يَذْهَبَ
 فَيَتَوَارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلْتَ أَجَابَ . فَذَهَبَ أَبُو الْخُبِّ

فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ . ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ
 الْخُبِّ أَكْبَرَهُ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْخُبُّ وَالْمُغْفَلُ مَعَهُ ، حَتَّى
 وَافَى الشَّجَرَةَ ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْخُبْرِ . فَقَالَ الشَّيْخُ مِنْ جَوْفِهَا :
 نَعَمْ الْمُغْفَلُ أَخَذَهَا . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِيَ ذَلِكَ اشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ .
 فَدَعَا بِحَطِيبٍ وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةُ . فَأُضْرِمَتْ حَوْلَهَا النَّيْرَانُ
 فَاسْتَغَاثَ أَبُو الْخُبِّ عِنْدَ ذَلِكَ . فَأُخْرِجَ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى
 الْهَلَاكِ . فَسَأَلَهُ الْقَاضِيَ عَنِ الْقِصَّةِ فَأَخْبَرَهُ بِالْخُبْرِ ، فَأَوْقَعَ
 بِالْخُبِّ ضَرْبًا ، وَبِأَيْبِهِ صَفْعًا ، وَأَرْكَبُهُ مَشْهُورًا ^(١) ، وَغَرَّمَ الْخُبَّ
 الدَّنَانِيرَ ، فَأَخَذَهَا وَأَعْطَاهَا الْمُغْفَلَ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْخُبَّ وَالْخَدِيعَةَ رُبَّمَا
 كَانَ صَاحِبَهُمَا هُوَ الْمَغْبُونُ . وَإِنَّكَ يَا دِمْنَةُ جَامِعٌ لِلْخُبِّ وَالْخَدِيعَةِ
 وَالْفُجُورِ . وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ ، مَعَ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَاجٍ
 مِنَ الْعُقُوبَةِ : لِأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلِسَانَيْنِ . وَإِنَّمَا عَذُوبَةُ مَاءِ
 الْأَنْهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْبَحَارِ . وَصَلَّاحُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ

(١) شهره كَشَّهَرَهُ أَظْهَرَهُ فِي شُنَّةٍ .

الْمُفْسِدُ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الْحَيَّةِ ذَاتِ اللِّسَانَيْنِ الَّتِي
فِيهَا السَّمُ : فَلِإِنَّهُ قَدْ يَجْرِي مِنْ لِسَانِكَ كَسِمَتِهَا . وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ
لِذَلِكَ السَّمِّ مِنْ لِسَانِكَ خَائِفًا ، وَلِمَا يَحِلُّ بِكَ مُتَوَقِّعًا ،
وَالْمُفْسِدُ بَيْنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ كَالْحَيَّةِ يُرَبِّيهَا الرَّجُلُ وَيُطْعِمُهَا
وَيُمَسِّحُهَا وَيُكْرِمُهَا ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّذِغِ . وَقَدْ
يُقَالُ : أَلَزِمَ ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْكَرَمِ ، وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِمَا ، وَإِيَّاكَ
وَمُفَارَقَتُهُمَا ، وَأَصْحَبِ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا أَوْ عَاقِلًا
غَيْرَ كَرِيمٍ : فَالْعَاقِلُ الْكَرِيمُ كَامِلٌ ، وَالْعَاقِلُ غَيْرُ الْكَرِيمِ أَصْحَبُهُ ،
وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ ، وَاحْذَرِ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِ وَانْتَفِعْ
بِعَقْلِهِ ، وَالْكَرِيمُ غَيْرُ الْعَاقِلِ ، أَلَزِمُهُ وَلَا تَدْغِ مُوَاصَلَتُهُ ، وَإِنْ
كُنْتَ لَا تَحْمَدُ عَقْلَهُ ، وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ ، وَانْفَعَهُ بِعَقْلِكَ ، وَالْفِرَارُ
كُلُّ الْفِرَارِ مِنَ اللَّئِيمِ الْأَتْحَقِ . وَإِنِّي بِالْفِرَارِ مِنْكَ بِلَحْدِيرٍ .
وَكَيْفَ يَرْجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَمًا وَوَدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمِلِكِكَ
الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ ؟ وَإِنْ مَثَلَكَ مِثْلُ التَّاجِرِ الَّذِي

قَالَ : إِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانُهَا مِائَةً مِنْ حديدًا ، لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى بُزَاتِهَا أَنْ تَحْتَطِفَ الْأَفْيَالَ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضٍ كَذَا تَاجِرٌ ، فَأَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ لِابْتِغَاءِ الرِّزْقِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِائَةٌ مِنْ حديدًا ، فَأَوْدَعَهَا رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِهِ ، وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ . ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ ، بِخَاءٍ وَالتَّمَسَ الْحَدِيدَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ أَكَلَتْهُ الْجِرْدَانُ . فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيدِ . فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَضَدِّيقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَأَدْعَى . ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ نَحَرَ ، فَلَقِيَ أَبْنَاءَ لِلرَّجُلِ ، فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِابْنِي ؟ فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ : إِنِّي لَمَّا نَحَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالْأَمْسِ ، رَأَيْتُ بَازِيًا قَدْ اخْتَطَفَ صَبِيًّا ، وَلَعَلَّهُ أَبْنُكَ . فَاطْمَ الرَّجُلُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ : يَا قَوْمِ هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْبُزَاةَ تَحْتَطِفُ الصُّبْيَانَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . وَإِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانُهَا مِائَةً مِنْ حديدًا لَيْسَ

(١) من نوع النمران مفردة جرد . (٢) المنز : رطلان .

بِعَجَبٍ أَنْ تَخْتِطِفَ بُرَاتَهَا الْفَيْلَةَ . قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَنَا أَكَلْتُ
 حَدِيدَكَ وَهَذَا ثَمَنُهُ . فَارْدُدْ عَلَيَّ ابْنِي . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ
 هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا غَدَرْتَ بِصَاحِبِكَ فَلَا شَكَ أَنَّكَ
 بِمَنْ سِوَاهُ أَغْدُرُ ، وَأَنَّهُ إِذَا صَاحَبَ أَحَدٌ صَاحِبًا وَغَدَرَ بِمَنْ
 سِوَاهُ فَقَدْ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ : فَلَا شَيْءَ
 أَضْيَعُ مِنْ مَوَدَّةٍ تُنَمَّحُ مَنْ لَا وِفَاءَ لَهُ ، وَحِبَاءٍ يُضْطَنَعُ عِنْدَ مَنْ
 لَا شُكْرَ لَهُ ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلَا يَسْمَعُهُ ،
 وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لَا يَحْفَظُهُ ، فَإِنَّ مُحِبَّةَ الْأَخْيَارِ تُورِثُ الْحَيَرَ ،
 وَمُحِبَّةَ الْأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ : كَالرَّيْحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطَّيِّبِ حَمَلَتْ
 طَيِّبًا ، وَإِذَا مَرَّتْ بِالسَّيِّئِ حَمَلَتْ نَجَسًا ، وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلَامِي عَلَيْكَ .

فَانْتَهَى كَلِيلُهُ مِنْ كَلَامِهِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ وَقَدْ فَرَغَ
 الْأَسَدُ مِنَ الثَّوْرِ . ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ وَذَهَبَ عَنْهُ
 الْغَضَبُ . وَقَالَ : لَقَدْ بَغَعَنِي شَرِّبَةُ بِنَفْسِهِ ، وَقَدْ كَانَ ذَا
 عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ ، وَلَا أَذْرِي لَعَلَّهُ كَانَ بَرِيئًا أَوْ مَكْذُوبًا
 عَلَيْهِ ، فَخَزَنَ وَنَدَّمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ،

وَبَصُرِيهِ دِمْنَةً ، فَتَرَكَ مُحَاوَرَةَ كُلَيْلَةَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسَدِ
فَقَالَ لَهُ : لِيَهْنُتَكَ الظَّفَرُ إِذْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَكَ . فَمَاذَا
يُحْزِنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟ قَالَ : أَنَا حَزِينٌ عَلَى عَقْلِ شَرَبَةِ وَرَأْيِهِ
وَأَدَبِهِ ؟ قَالَ لَهُ دِمْنَةٌ : لَا تَرَحَّمْهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ
لَا يَرْحَمُ مَنْ يَخَافُهُ . وَإِنَّ الرَّجُلَ الْحَازِمَ رُبَّمَا أَبْغَضَ الرَّجُلَ
وَكَرِهَهُ ، ثُمَّ قَرَبَهُ وَأَذْنَاهُ : لِمَا يَعْلَمُ عِنْدَهُ مِنَ الْغَنَاءِ وَالْكَفَايَةِ ،
فَفَعَلَ الرَّجُلُ الْمُتَكَارِهِ عَلَى الدَّوَاءِ الشَّنِيعِ رَجَاءً مَنْفَعَتِهِ . وَرُبَّمَا
أَحَبَّ الرَّجُلُ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ ، فَأَقْصَاهُ وَأَهْلَكَهُ ، مَخَافَةَ ضَرَرِهِ ،
كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الْحَيَّةُ فِي إِصْبَعِهِ فَيَقْطَعُهَا ، وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ
يَسْرِى شُمُّهَا إِلَى بَدَنِهِ . فَرَضِيَ الْأَسَدُ بِتَوَلِّ دِمْنَةَ . ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ
ذَلِكَ بِكَذِبِهِ وَغَدْرِهِ وَبُخُورِهِ فَقَتَلَهُ شَرَّ قَتْلَةٍ (انتهى باب الأسد والثور)

بَابُ الْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةٍ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ حَدَّثْتَنِي عَنِ الْوَاشِي
 الْمَاهِرِ الْمُحْتَالِ ، كَيْفَ يُفْسِدُ بِالْمَيْمَةِ الْمَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَايِينَ .
 فَحَدَّثَنِي حِينَئِذٍ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ دِمْنَةٍ وَمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ بَعْدَ
 قَتْلِ شَرَبَةٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ
 رَاجَعَ الْأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ ، وَتَحَقَّقَ الْمَيْمَةُ مِنْ دِمْنَةٍ ، وَمَا كَانَتْ
 حُجَّتُهُ الَّتِي اخْتَجَّ بِهَا ، قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : أَنَا وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ
 دِمْنَةٍ أَنَّ الْأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَرَبَةً نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ ، وَذَكَرَ قَدِيمَ
 صُحْبَتِهِ وَجَسِيمَ خِدْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ . وَأَخَصَّصَهُمْ
 مَنْزِلَةً لَدَيْهِ ، وَأَقْرَبَهُمْ وَأَذْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ يُوَاصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ
 دُونَ خَوَاصِهِ . وَكَانَ مِنْ أَخَصِّ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ الثَّمَرُ .
 فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى الثَّمَرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ
 جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مَنْزِلَهُ ، فَاجْتَاَزَ عَلَى مَنْزِلِ كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ .
 فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ ، سَمِعَ كَلِيلَةً يُعَاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ،

وَيَلُومُهُ عَلَى النَّمِيمَةِ وَاسْتِعْمَالِهَا ، خُصُوصًا مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ
فِي حَقِّ الْخَاصَّةِ . وَعَرَفَ النَّمِرُ عَضِيَّانَ دِمْنَةَ وَتَرَكَ الْقَبُولَ لَهُ .

فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا فَكَانَ فِيهَا قَالَ كَلِيلَةُ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ
أَرْتَكَبْتَ مَرَجًا صَغِيرًا ، وَدَخَلْتَ مَدْخَلًا ضَيِّقًا ، وَجَنَيْتَ عَلَى
نَفْسِكَ جِنَايَةً مُوبِقَةً ، وَعَاقِبَتَهَا وَخِيمَةٌ ، وَسَوْفَ يَكُونُ
مَضْرَعُكَ شَدِيدًا ، إِذَا أَنْكَشَفَ لِلْأَسَدِ أَمْرُكَ ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ ،
وَعَرَفَ غَدْرَكَ وَمِحَالَّكَ ، وَبَقِيَتْ لَا نَاصِرَ لَكَ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ
الْهَوَانُ وَالْقَتْلُ ، مَخَافَةَ شَرِّكَ ، وَحَذَرًا مِنْ غَوَائِلِكَ ، فَلَسْتُ
بِمُتَّخِذِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلًا ، وَلَا مُفِشٍ إِلَيْكَ سِرًّا ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ
قَدْ قَالُوا : تَبَاعَدُ عَمَّنْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ . وَأَنَا جَدِيرٌ بِمُبَاعَدَتِكَ ،
وَالْتِمَاسِ الْخَلَاصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ هَذَا مِنْ كَلَامِهِمَا قَفَلَ رَاجِعًا ، فَدَخَلَ عَلَى
أُمِّ الْأَسَدِ ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ أَنَّهَا لَا تُفْشِي مَا يُسِرُّ
إِلَيْهَا ، فَعَاهَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ فَأَخْبَرَهَا بِمَا سَمِعَ مِنْ كَلَامِ

كليلة ودمنة . فلما أصبحت دخلت على الأسد ، فوجدته كئيباً
 حزيناً مهموماً : لما ورد عليه من قتل شربة . فقالت له :
 ما هذا الهم الذي قد أخذ منك ، وغلب عليك ؟ قال : يحزنني
 قتل شربة ، إذ تذكرت صحبته ومواظبته على خدمتي ، وما
 كنت أسمع من نصيحته ، وأسكن إليهِ من مشاورته ، وأقبل
 من مناصحته . قالت أم الأسد : إن أشد ما شهد أمرؤ على
 نفسه ، وهذا خطأ عظيم ، كيف أقدمت على قتل الثور بلا
 علم ولا يقين ؟ ولولا ما قالت العلباء في إذاعة الأسرار ،
 وما فيها من الإثم ^{عيب} والشنار ، لذكرت لك وأخبرتكَ بما
 علمت . قال الأسد : إن أقوال العلباء لها وجوه كثيرة ،
 ومعانٍ مختلفة . وإني لأعلم صواب ما تقولين : وإن كان
 عندك رأى فلا تطويه عني ، وإن كان قد أسر إليك أحد سرّاً
 فأخبرني به ، وأطلعيني عليه ، وعلى جملة الأمر . فأخبرته
 بجميع ما ألقاه إليها النمر من غير أن تُخبره باسمه . وقالت :

إِنِّي لَمْ أَجْهَلْ قَوْلَ الْعُلَـَّاءِ فِي تَعْظِيمِ الْعُقُوبَةِ وَتَشْدِيدِهَا ،
وَمَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ الْعَارِ فِي إِذَاعَةِ الْأَسْرَارِ ؛ وَلَكِنِّي
أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَكَ ، وَإِنْ وَصَلَ خَطْوُهُ
وَضَرَرُهُ إِلَى الْعَامَّةِ فَأِضْرَارُهُمْ عَلَى خِيَانَةِ الْمَلِكِ مِمَّا لَا يَدْفَعُ
الشَّرَّ عَنْهُمْ ، وَبِهِ يَحْتَجُّ السُّفَهَاءُ ، وَيَسْتَخْسِنُونَ مَا يَكُونُ مِنْ
أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ . وَأَشَدُّ مَعَارِهِمْ إِقْدَامُهُمْ عَلَى ذِي الْحَزْمِ .
فَلَمَّا قَضَتْ أُمُّ الْأَسَدِ هَذَا الْكَلَامَ ، اسْتَدْعَى أَصْحَابَهُ وَجُنْدَهُ
فَأَذْخَلُوا عَلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةٍ . فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ
الْأَسَدِ ، وَرَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ ، أَلْتَفَتَ إِلَى بَعْضِ
الْحَاضِرِينَ فَقَالَ : مَا الَّذِي حَدَثَ ؟ وَمَا الَّذِي أَحْزَنَ الْمَلِكَ ؟
فَالْتَفَتَتْ أُمُّ الْأَسَدِ إِلَيْهِ وَقَالَتْ : قَدْ أَحْزَنَ الْمَلِكُ بِقَاوُكَ وَلَوْ
طَرَفَةً عَيْنٍ ؛ وَلَنْ يَدَعَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ حَيًّا ! قَالَ دِمْنَةُ : مَا تَرَكَ
الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ شَيْئًا : لِأَنَّهُ يُقَالُ : أَشَدُّ النَّاسِ فِي تَوْقِي الشَّرِّ ،
يُصِيبُهُ الشَّرُّ قَبْلَ الْمُسْتَسْلِمِ لَهُ . فَلَا يَكُونَنَّ الْمَلِكُ وَخَاصَّتُهُ
الْمُسْتَسْلِمِينَ

(١) المعاز : جمع معرة وهي الإثم والحياة والأذى .

وَجُنُودُهُ الْمِثْلَ السَّوِّءِ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ : مَنْ صَحِبَ
 الْأَشْرَارَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ ، كَانَ أَذَاهُ مِنْ نَفْسِهِ : وَلِذَلِكَ
 انْقَطَعَتِ النَّسَاكُ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الْخَلْقِ ، وَاخْتَارَتِ الْوَحْدَةَ
 عَلَى الْمُخَالَطَةِ ، وَحُبَّ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .
 وَمَنْ يَجْزِي بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَبِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا إِلَّا اللَّهُ ؟ وَمَنْ
 طَلَبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْخَيْرِ مِنَ النَّاسِ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَخْطِئَ
 بِالْحَرَمَانِ ؛ إِذْ يُخْطِئُ الصَّوَابَ فِي خُلُوصِ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَطَلَبِ الْجَزَاءِ مِنَ النَّاسِ . وَإِنَّ أَحَقَّ مَا رَغِبْتَ فِيهِ رَعِيَّةُ
 الْمَلِكِ هُوَ مُحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ وَمَوَاقِعُ الصَّوَابِ وَبَجْمِيلِ السَّيْرِ ؛
 وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : مَنْ صَدَّقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُكَذَّبَ . وَكَذَّبَ
 مَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَدَّقَ ، نَخَرَجَ مِنْ مَصَافِّ الْعُقَلَاءِ ، وَكَانَ جَدِيرًا
 بِالْإِزْدِرَاءِ . فَيَنْبَغِي أَلَّا يُعَجَّلَ الْمَلِكُ فِي أَمْرِي بِشُبْهَةٍ . وَلَسْتُ
 أَقُولُ هَذَا كَرَاهَةً لِلْمَوْتِ : فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَرِيهًا ، لَا مَنَاجِيَّ مِنْهُ .
 وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ . وَلَوْ كَانَتْ لِي مِائَةُ نَفْسٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ
 فِي إِتْلَافِهِنَّ ، لَطَبْتُ لَهُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَقَالَ بَعْضُ الْجُنُودِ :

لَمْ يَنْطِقْ بِهَذَا لِحُبِّهِ الْمَلِكَ ، وَلَكِنْ لِحَلَاصِ نَفْسِهِ ، وَالتَّمَّاسِ
 الْعُذْرَ لَهَا . فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ : وَيْلَكَ ! وَهَلْ عَلَى فِي التَّمَّاسِ الْعُذْرُ
 لِنَفْسِي عَيْبٌ ؟ وَهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ ؟
 وَإِذَا لَمْ يَلْتَمِسْ لَهَا الْعُذْرَ ، فَلِمَنْ يَلْتَمِسُهُ ؟ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ
 مَا لَمْ تَكُنْ تَحْكُمُكَ كِتْمَانُهُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ ؛ وَلَقَدْ عَرَفَ
 مَنْ سَمِعَ مِنْكَ ذَلِكَ أَنَّكَ لَا تُحِبُّ لِأَحَدٍ خَيْرًا ؛ وَأَنَّكَ عَدُوُّ
 نَفْسِكَ ، فَمَنْ سِوَاهَا بِالْأُولَى . فَمِثْلُكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ
 الْبَهَائِمِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَلِكِ ، وَأَنْ يَكُونَ بِبَابِهِ .
 فَلَمَّا أَجَابَهُ دِمْنَةُ بِذَلِكَ ، نَحَرَ جُكْتَيْبًا حَزِينًا مُسْتَحِيًّا . فَقَالَتْ
 أُمُّ الْأَسَدِ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ ، أَيُّهَا الْمُحْتَالُ ، فِي قِلَّةِ
 حَيَاةِكَ ، وَكَثْرَةِ وَقَاحَتِكَ ، وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ . قَالَ
 دِمْنَةُ : لِأَنَّكَ تَنْظُرِينَ إِلَى بَعَيْنٍ وَاحِدَةٍ ، وَتَسْمَعِينَ مِنِّي
 بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ ، مَعَ أَنَّ شَقَاوَةَ جُدِي قَدْ زَوَتْ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ ،
 حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ ، وَلَقَدْ صَارَ مِنْ بِيَابِ

الملك لا يستخفأ فيهم به ، وطول كرامته إياهم ، وما هم فيه من العيش والنعمة ، لا يذرون في أي وقت ينبغي لهم الكلام ، ولا متى يجب عليهم الشكوت . قالت : ألا تنظرون إلى هذا الشقي ، مع عظم ذنبه ، كيف يجعل نفسه بريئاً كمن لا ذنب له ؟ قال دمنة : إن الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على شيء ، كالذي يضع الرماد موضعاً ينبغي أن يضع فيه الرمل ، ويستعمل فيه السرجين^(١) ، والرجل الذي يلبس لباس المرأة ، والمرأة التي تلبس لباس الرجل ، والضيف الذي يقول : أنا رب البيت ، والذي ينطق بين الجماعة بما لا يسأل عنه . وإمّا الشقي من لا يعرف الأمور ولا أحوال الناس ولا يقدر على دفع الشر عن نفسه ، ولا يستطيع ذلك . قالت أم الأسد : أظن أيها الغادر المختال بقولك هذا أنك تحذع الملك ، ولا يسجنك ؟ قال دمنة : الغادر الذي لا يأمن عدوه مكره ، وإذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب .

(١) السرجين بكسر أوله : الزبل .

قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ ، أَتَظُنُّ أَنَّكَ نَاجٍ
 مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ ؟ وَأَنْ مَحَالْلَكَ هَذَا يَنْفَعُكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ : الْكَذُوبُ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ ، وَيَأْتِي بِمَا
 لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَفْعَلْ ، وَكَلَامِي وَاضِحٌ مُبِينٌ . قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ :
 الْعُتْبَاءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ يُوضِّحُونَ أَمْرَهُ بِفَضْلِ الْحِطَابِ .
 ثُمَّ نَهَضَتْ فَخَرَجَتْ . فَدَفَعَ الْأَسَدُ دِمْنَةَ إِلَى الْقَاضِي ، فَأَمَرَ
 الْقَاضِي بِحَبْسِهِ ، فَأُلْقِيَ فِي عُنْقِهِ حَبْلٌ ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى السُّجْنِ .
 فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَخْبَرَ كَلِيلَةَ أَنَّ دِمْنَةَ فِي الْحَبْسِ . فَأَتَاهُ
 مُسْتَخْفِيًا ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيقِ الْقَيْدِ ، وَحَرَجِ
 الْمَكَانِ ، بَكَى ، وَقَالَ لَهُ : مَا وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلَّا
 لِاسْتِعْمَالِكَ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ ، وَإِضْرَابِكَ عَنِ الْعِظَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ
 يَكُنْ لِي بَدْءٌ فِيمَا مَضَى مِنْ إِثْدَارِكَ وَالنَّصِيحَةِ لَكَ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْكَ
 فِي خُلُوصِ الرَّغْبَةِ فِيكَ : فَإِنَّهُ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ
 مَجَالٌ . وَلَوْ كُنْتُ قَصَرْتُ فِي عِظْمِكَ ^{كَيْفَ} حِينَ كُنْتُ فِي عَافِيَةٍ ،
 لَكُنْتُ الْيَوْمَ شَرِيكَكَ فِي ذَنْبِكَ ، غَيْرَ أَنَّ الْعُجْبَ دَخَلَ مِنْكَ

مَذْخَلًا قَهَرَّ رَأْيِكَ ، وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ ؛ وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ
 الْأَمْثَالَ كَثِيرًا ، وَأَذْكُرُكَ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ
 الْمُخْتَالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ ^{موت} . قَالَ دَمْنَةُ : قَدْ عَرَفْتُ صَدَقَ
 مَقَالَتِكَ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : لَا تَجْزَعُ ^{لغير} مِنَ الْعَذَابِ إِذَا وَقَفْتَ
 مِنْكَ عَلَى خَطِيئَةٍ ؛ وَلَآنَ تُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا بِجُرْمِكَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ
 تُعَذَّبَ فِي الْآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الْإِنَّمِ . قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ فَهَمْتُ
 كَلَامَكَ ؛ وَلَكِنَّ ذَنْبَكَ عَظِيمٌ ، وَعِقَابُ الْأَسَدِ شَدِيدٌ ^{الليد} أَلِيمٌ .
 وَكَانَ يَقْرَبُهُمَا فِي السِّجْنِ فَهَذَا مُعْتَقِلٌ ^(٢) يَسْمَعُ كَلَامَهُمَا ، وَلَا
 يَرِيَانِهِ ؛ فَعَرَفَ مُعَاتِبَةً كَلِيلَةَ لِدَمْنَةَ عَلَى سُوءِ فَعْلِهِ ، وَمَا كَانَ
 مِنْهُ ؛ وَأَنَّ دَمْنَةَ مُقَرَّرٌ بِسُوءِ عَمَلِهِ ، وَعَظِيمٌ ذَنْبِهِ ؛ فَحَفِظَ الْمُحَاوَرَةَ
 بَيْنَهُمَا ، وَكَتَمَهَا لِيَشْهَدَ بِهَا ^{بجها} إِنْ سُئِلَ عَنْهَا . ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ انْصَرَفَ
 إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الْأَسَدِ حِينَ أَصْبَحَتْ عَلَى الْأَسَدِ ؛
 وَقَالَتْ لَهُ : يَا سَيِّدَ الْوُحُوشِ ، حُوشِيْتُ أَنْ تَنْسَى مَا قُلْتَ ^{بجول} ^(٣) ،
 بِالْأَمْسِ ؛ وَأَنَّكَ أَمَرْتَ بِهِ لِقَوْتِهِ ؛ وَأَرْضَيْتَ بِهِ رَبَّ الْعِبَادِ .

وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَانَى فِي الْجُنْدِ لِلتَّقْوَى؛
بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَدَافِعَ عَنِ ذَنْبِ الْأَثِيمِ^(١). فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ
كَلَامَ أُمِّهِ، أَمَرَ أَنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَضَاءِ. فَلَمَّا
حَضَرَ قَالَ لَهُ وَبِجَوَّاسِ الْعَادِلِ^(٢): أَجْلِسَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ،
وَنَادِيَا فِي الْجُنْدِ صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ أَنْ يَحْضُرُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ
دِمْنَةَ، وَيَجْتَنُوا عَنْ شَأْنِهِ، وَيَقْضُوا عَنْ ذَنْبِهِ، وَيُثْبِتُوا
قَوْلَهُ وَعُذْرَهُ فِي كُتُبِ الْقَضَاءِ؛ وَأَرْفَعَا إِلَى ذَلِكَ يَوْمًا فَيَوْمًا.
فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّمِرُ وَابْجَوَّاسُ الْعَادِلِ وَكَانَ هَذَا ابْجَوَّاسُ عَمِّ
الْأَسَدِ، قَالَا: سَمْعًا وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ الْمَلِكُ. وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ؛
فَعَمِلَا بِمُقْتَضَى مَا أَمَرَهُمَا بِهِ؛ حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي
جَلَسُوا فِيهِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ، أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةَ؛
فَأُتِيَ بِهِ، فَأُوقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَابْجَمَاعَةُ حُضُورًا. فَلَمَّا
اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانُ نَادَى سَيِّدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا الْجَمْعُ.
إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السَّبَاعِ لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قُتِلَ شَرَبَةُ خَائِرًا^(٣)

النَّفْسَ ، كَثِيرَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ شَرِبَةً بِغَيْرِ ذَنْبٍ ،
وَأَنَّهُ أَخَذَهُ بِكَذِبِ دِمْنَةٍ وَنَمِيمَتِهِ . وَهَذَا الْقَاضِي قَدْ أَمَرَ أَنْ
يَجْلِسَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ ، وَيَبْتَثَّ عَنْ شَأْنِ دِمْنَةٍ . فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ
شَيْئًا فِي أَمْرِ دِمْنَةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فَلْيَقُلْ ذَلِكَ ، وَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ
عَلَى رُءُوسِ الْجَمْعِ وَالْأَشْهَادِ ، لِيَكُونَ الْقَضَاءُ فِي أَمْرِهِ بِحَسَبِ
ذَلِكَ ، فَإِذَا اسْتَوْجَبَ الْقَتْلَ فَالْبَتُّ فِي أَمْرِهِ أَوْلَى ، وَالْعَجَلَةُ
مِنَ الْهَوَى ، وَمُتَابَعَةُ الْأَصْحَابِ عَلَى الْبَاطِلِ ذُلٌّ . فَعِنْدَهَا قَالَ
الْقَاضِي : أَيُّهَا الْجَمْعُ اسْمَعُوا قَوْلَ سَيِّدِكُمْ ، وَلَا تَسْكُتُوا مَا عَرَفْتُمْ
مِنْ أَمْرِهِ ، وَاحْذَرُوا فِي السِّرِّ عَلَيْهِ ثَلَاثَ خِصَالٍ : إِحْدَاهُنَّ ،
وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ ، أَلَّا تَزْدَرُوا فِعْلَهُ ، وَلَا تَعُدُّوه يُسِيرًا : فَمَنْ
أَعْظَمَ الْخَطَايَا قَتْلَ الْبَرِيِّ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ بِالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ ،
وَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْكَذَّابِ الَّذِي أَتَاهُمُ الْبَرِيُّ بِكَذِبِهِ وَنَمِيمَتِهِ
شَيْئًا ، فَسَرَّ عَلَيْهِ فَهُوَ شَرِيكُهُ فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ . وَالثَّانِيَةُ إِذَا
اعْتَرَفَ الْمُذْنِبُ بِذَنْبِهِ ، كَانَ أَسْلَمَ لَهُ ، وَآخَرَى بِالْمَلِكِ وَجُنْدِهِ
أَنْ يَغْفُوا عَنْهُ وَيُضْفَحُوا . وَالثَّالِثَةُ تَرْكُ مُرَاعَاةِ أَهْلِ الدِّمِّ

وَالْفُجُورِ ، وَقَطَعَ أَسْبَابَ مُوَاصَلَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الْخَاصَّةِ
وَالْعَامَّةِ ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْمُحْتَالَ شَيْئًا ، فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى
رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مِمَّنْ حَضَرَ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ ، وَقَدْ
قِيلَ : إِنَّهُ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةَ مَيِّتٍ ، أُبْلِحَ بِلَجَائِمٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، فَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا عَلِمَ . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ
الْجَمْعُ كَلَامَهُ ، أَمْسَكُوا عَنِ الْقَوْلِ . فَقَالَ دِمْنَةُ : مَا يُسَكِّتُكُمْ ؟
تَكَلَّمُوا بِمَا عَلِمْتُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوَابًا . وَقَدْ قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ : مَنْ يَشْهَدْ بِمَا لَمْ يَرَ ، وَيَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ ، أَصَابَهُ
مَا أَصَابَ الطَّيِّبَ الَّذِي قَالَ لِمَا لَا يَعْلَمُهُ : إِنِّي أَغْلَمُهُ . قَالَتْ
الْجَمَاعَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ طَيِّبٌ لَهُ رِفْقٌ
وَعِلْمٌ ، وَكَانَ ذَا فِطْنَةٍ فِيمَا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعَالَجَاتِ ، فَكَبِرَ
ذَلِكَ الطَّيِّبُ وَضَعُفَ بَصَرُهُ . وَكَانَ لِمَلِكِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ ابْنَةٌ قَدْ
زَوَّجَهَا لِابْنِ أَخِي لَهُ ، فَعَرَضَ لَهَا مَا يَعْرِضُ لِلْحَوَامِلِ مِنْ

الْأَوْجَاعُ . فَجِيءَ بِهَذَا الطَّبِيبُ ، فَلَمَّا حَضَرَ ، سَأَلَ الْجَحَارِيَّةَ
 عَنْ وَجْعِهَا وَمَا تَجِدُ ، فَأَخْبَرَتْهُ ، فَعَرَفَ دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا ، وَقَالَ :
 لَوْ كُنْتُ أَبْصِرُ ، لَجَمَعْتُ الْأَخْلَاطَ عَلَى مَعْرِفَتِي بِأَجْناسِهَا ، وَلَا
 أَتَقَى فِي ذَلِكَ بِأَحَدٍ غَيْرِي . وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ سَفِيهٌ ،
 فَبَلَغَهُ الْخَبَرُ ، فَأَتَاهُمْ وَادَّعَى عِلْمَ الطِّبِّ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ
 بِمَعْرِفَةِ أَخْلَاطِ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ (١) ، عَارِفٌ بِطِبَائِعِ الْأَدْوِيَةِ
 الْمُرَكَّبَةِ وَالْمُفْرَدَةِ ، فَأَمَرَهُ الْمَلِكُ أَنْ يَدْخُلَ خِزَانَةَ الْأَدْوِيَةِ فَيَأْخُذَ
 مِنْ أَخْلَاطِ الدَّوَاءِ حَاجَتَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ السَّفِيهُ الْخِزَانَةَ ،
 وَعَرِضَتْ عَلَيْهِ الْأَدْوِيَةُ ، وَلَا يَذَرِي مَا هِيَ ، وَلَا لَهُ بِهَا
 مَعْرِفَةٌ ، أَخَذَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَخَذَ مِنْهَا صُرَّةً فِيهَا سُمٌّ قَاتِلٌ لَوْقَتِهِ ،
 وَخَلَطَهُ فِي الْأَدْوِيَةِ ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ بِجِنْسِهِ .
 فَلَمَّا تَمَّتْ أَخْلَاطُ الْأَدْوِيَةِ ، سَقَى الْجَحَارِيَّةَ مِنْهُ ، فَكَاتَتْ لَوْقَتَهَا .
 فَلَمَّا عَرَفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، دَعَا بِالسَّفِيهِ ، فَسَقَاهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّوَاءِ ،
 فَكَاتَتْ مِنْ سَاعَتِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكُمْ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمُوا

مَا يَدْخُلُ عَلَى الْقَائِلِ وَالْعَامِلِ مِنَ الزَّلَّةِ بِالشَّبَهَةِ فِي الْخُرُوجِ
عَنِ الْحَدِّ ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ
الْجَاهِلَ ، وَنَفْسُهُ الْمَلُومَةُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : رُبَّمَا جُرِيَ
الْمُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ . وَالْكَلَامُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ : فَانْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ .

فَتَكَلَّمَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ ، لِإِذْلَالِهِ وَتَيْبِنِهِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ ،
فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّرَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، أَسْمَعُوا مَقَالَتِي ، وَعُودُوا
بِأَحْلَامِكُمْ كَلَامِي ، فَالْعُلَمَاءُ قَالُوا فِي شَأْنِ الصَّالِحِينَ : إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ
بِسَيِّمَاهُمْ ، وَأَنْتُمْ ، مَعَاشِرَ ذَوِي الْإِقْتِدَارِ ، بِحَسَنِ صَنِيعِ اللَّهِ لَكُمْ ،
وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ لَدَيْكُمْ ، تَعْرِفُونَ الصَّالِحِينَ بِسَيِّمَاهُمْ وَصُورِهِمْ ،
وَتُخْبِرُونَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ بِالشَّيْءِ الصَّغِيرِ ، وَهَذَا هُنَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ
تَدُلُّ عَلَى هَذَا الشَّقِيِّ دِمْنَةً ، وَتُخْبِرُ عَنْ شَرِّهِ ، فَاطْلُبُوهَا عَلَى
ظَاهِرِ جِسْمِهِ : لَتَسْتَيَقِنُوا وَتَسْكُنُوا إِلَى ذَلِكَ . قَالَ الْقَاضِي
لِسَيِّدِ الْخَنَازِيرِ : قَدْ عَلِمْتُ ، وَعَلِمَ الْجَمَاعَةُ الْحَاضِرُونَ ، أَنَّكَ
عَازِفٌ بِمَا فِي الصُّورِ مِنْ عَلَامَاتِ الشَّوْءِ ، فَفَسِّرْ لَنَا مَا تَقُولُ ،
وَاطْلُعْنَا عَلَى مَا تَرَى فِي صُورَةِ هَذَا الشَّقِيِّ . فَأَخَذَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ

يَذْمُ دِمْنَةً ، وَقَالَ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ كَتَبُوا وَأَخْبَرُوا : أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ
عَيْنُهُ الْيُسْرَى أَصْغَرَ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى وَهِيَ لَا تَزَالُ تَحْتَلِجُ ،
وَكَانَ أَنْفَهُ مَائِلًا إِلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ ، فَهُوَ شَقِيٌّ خَبِيثٌ . قَالَ لَهُ
دِمْنَةُ : شَأْنُكَ عَجَبٌ ، أَيُّهَا الْقَدِيرُ ، ذُو الْعَلَامَاتِ الْفَاضِحَةِ
الْقَبِيحَةِ ، ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ جَرَأَتِكَ عَلَى طَعَامِ الْمَلِكِ ، وَقِيَامِكَ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَعَ مَا يَجْسِمُكَ مِنَ الْقَدْرِ وَالْقُبْحِ ، وَمَعَ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ
وَيَعْرِفُهُ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ ، أَفَتَتَكَلَّمُ فِي النَّقِيِّ الْجِسْمِ الَّذِي
لَا عَيْبَ فِيهِ ؟ وَلَسْتُ أَنَا وَحْدِي أَطْلِعُ عَلَى عَيْبِكَ ، لَكِنْ
جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ . وَقَدْ كَانَ يَحْجُزُنِي عَنْ
إِظْهَارِهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّدَاقَةِ . فَأَمَّا إِذْ قَدْ كَذَبْتَ عَلَى
وَبَهْتَنِي فِي وَجْهِهِ ، وَقُتْتَ بَعْدَاوَتِي ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ فِي بَغْيٍ
عَلِمَ عَلَى رُءُوسِ الْحَاضِرِينَ ، فَلِأَنِّي أَقْتَصِرُ عَلَى إِظْهَارِ مَا أَعْرِفُ
مِنْ عُيُوبِكَ ، وَتَعْرِفُ الْجَمَاعَةُ ، وَحَقٌّ عَلَى مَنْ عَرَفَكَ حَقَّ
مَعْرِفَتِكَ أَنْ يَمْنَعَ الْمَلِكُ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعَامِهِ ، فَلَوْ

كَلَّفْتِ أَنْ تَعْمَلَ الزَّرَاعَةَ لَكُنْتُ جَدِيرًا بِالْحِذْلَانِ فِيهَا .
 فَأَلْأَخَرَى بِكَ أَلَّا تَدْنُو إِلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَلَّا تَكُونَ
 دَبَاغًا وَلَا حَجَامًا لِعَامِي فَضْلًا عَنْ خَاصِّ خِدْمَةِ الْمَلِكِ . قَالَ
 سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ : أَتَقُولِ لِي هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَتَلْقَانِي بِهَذَا الْمَلَقِ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ ، نَعَمْ ، وَحَقًّا قُلْتُ فِيكَ ، وَإِيَّاكَ أَغْنِي ، أَيُّهَا
 الْأَعْرَجُ الْمَكْسُورُ الْأَفْدَعُ الرَّجُلِ ، الْمَنْفُوخُ الْبَطْنِ ، الْأَفْلَحُ
 الشَّفَتَيْنِ ، السَّيِّئُ الْمَنْظَرُ وَالْمَخْبِرُ . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ دِمْنَةُ ،
 تَغَيَّرَ وَجْهُ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ وَاسْتَعْبَرَ وَاسْتَحَى ، وَتَلَجَّلَجَلَ لِسَانُهُ ،
 وَاسْتَكَانَ وَفَتَرَ نَشَاطُهُ . فَقَالَ دِمْنَةُ ، حِينَ رَأَى انْكِسَارَهُ
 وَبُكَاءَهُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَطُولَ بُكَاءُكَ ، إِذَا اطَّلَعَ الْمَلِكُ
 عَلَى قَدْرِكَ وَعُيُوبِكَ فَعَزَلَكَ عَنْ طَعَامِهِ ، وَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
 خِدْمَتِهِ ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ شَغِيرًا كَانَ الْأَسَدُ قَدْ جَرَبَهُ
 فَوَجَدَ فِيهِ أَمَانَةً وَصِدْقًا ، فَرَتَّبَهُ فِي خِدْمَتِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْفَظَ
 مَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ ، وَيُظْلِعَهُ عَلَى ذَلِكَ . فَقَامَ الشَّغِيرُ فَدَخَلَ

عَلَى الْأَسَدِ حَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ كُلِّهِ عَلَى جَلِيلَتِهِ . فَأَمَرَ الْأَسَدُ
بِعَزْلِ سَيِّدِ الْحَنَازِيرِ عَنْ عَمَلِهِ ، وَأَمَرَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَرَى
وَجْهَهُ ، وَأَمَرَ بِدِمْنَةٍ أَنْ يُسَجَّنَ ، وَقَدْ مَضَى مِنَ النَّهَارِ
أَكْثَرُهُ ، وَجَمِيعُ مَا جَرَى وَقَالُوا وَقَالَ قَدْ كُتِبَ وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ
النَّمِرِ ، وَرَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ شَغْبِرًا (أَبْنَ آوَى) يُقَالُ لَهُ رَوْزِبَةُ ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
كَلِيلَةَ إِخَاءً وَمَوَدَّةً ، وَكَانَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَجِيهًا ، وَعَلَيْهِ كَرِيمًا ،
وَاتَّفَقَ أَنَّ كَلِيلَةَ أَخَذَهُ الْوَجْدُ إِشْفَاقًا وَحَذَرًا عَلَى نَفْسِهِ وَأَخِيهِ ،
فَمَرِضَ وَمَاتَ ، فَأَنْطَلَقَ هَذَا الشَّغْبِرُ إِلَى دِمْنَةٍ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ
كَلِيلَةَ فَبَكَى وَحَزِنَ ، وَقَالَ : مَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَخِ
الصَّفِيِّ ! وَلَكِنْ أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ لَمْ يَمُتْ كَلِيلَةُ حَتَّى أَبْقَى
لِي مِنْ ذَوَى قَرَابَتِي أَخًا مِثْلَكَ : فَلِإِنِّي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ إِلَى فِيمَا رَأَيْتُ مِنْ اِهْتِمَامِكَ بِي وَمُرَاعَاتِكَ لِي ،
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجَائِي وَرُكْنِي فِيمَا أَنَا فِيهِ ، فَأُرِيدُ مِنْ إِنْعَامِكَ
أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا ، فَتَنْظُرَ إِلَى مَا جَمَعْتُهُ أَنَا وَأَخِي بِحِيلَتِنَا

وَسَعِينَا وَمَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتَأْتِنِي بِهِ ، فَفَعَلَ الشَّغْبِرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ
 دِمْنَةُ . فَلَمَّا وَضَعَ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْطَاهُ شَطْرَهُ ، وَقَالَ لَهُ :
 إِنَّكَ عَلَى الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْأَسَدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ ،
 فَتَقَرَّغْ لِسَانِي ، وَأَصْرِفْ أَهْتِمَامَكَ إِلَيَّ ، وَاسْمَعْ مَا أَذْكُرُ بِهِ عِنْدَ
 الْأَسَدِ ، إِذَا رُفِعَ إِلَيْهِ مَا يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ ، وَمَا يَبْدُو
 مِنْ أُمِّ الْأَسَدِ فِي حَقِّي ، وَمَا تَرَى مِنْ مَتَابَعَةِ الْأَسَدِ لَهَا ،
 وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي ، وَاحْفَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ . فَأَخَذَ الشَّغْبِرُ
 مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هَذَا الْعَهْدِ . فَمَا نَظَلَ إِلَى
 مَنْزِلِهِ فَوَضَعَ الْمَالَ فِيهِ . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ بَكَرَ مِنَ الْغَدِ بِخَاسٍ ،
 حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ سَاعَتَانِ ، اسْتَأْذِنَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَأَذِنَ
 لَهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَوَضَعُوا الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَلَمَّا عَرَفَ
 قَوْلَهُمْ وَقَوْلَ دِمْنَةَ دَعَا أُمَّهُ فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذَلِكَ . فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي
 الْكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا : إِنَّ أَنَا أَغْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ فَلَا
 تَلُمْنِي : فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضُرَّكَ مِنْ نَفْعِكَ . أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا
 كُنْتُ أَنبَأُكَ عَنْ سَمَاعِهِ : لِأَنَّهُ كَلَامُ هَذَا الْمُجْرِمِ الْمُسِيءِ إِلَيْنَا ،

الغادر بذمتنا ؟ ثم إنها خرجت مغضبة ، وذلك بعين الشغب
الذي آخاه دمنة وبسمعه . فخرج في أثرها مسرعاً ، حتى أتى
دمنة ، فحدثه بالحديث . فبينما هو عنده إذ جاء رسول ،
فأنطلق بدمنة إلى الجمع عند القاضي . فلما مثل بين يدي
القاضي استفتح سيد المجلس فقال : يادمنة ، قد أنبأني بخبرك
الأمين الصادق ، وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك
أكثر من هذا : لأن العلماء قالوا : إن الله تعالى جعل الدنيا
سبباً ومضداً للآخرة : لأنها دار الرسل والأنبياء الدالين
على الخير ، الهادين إلى الجنة ، الداعين إلى معرفة الله تعالى .
وقد ثبت شأنك عندنا ، وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله ،
إلا أن سيدنا أمرنا بالعود في أمرك والفحص عن شأنك ،
وإن كان عندنا ظاهراً بيناً . قال دمنة : أراك أيها القاضي
لم تتعود العدل في القضاء ، وليس في عدل الملوك دفع
المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاض غير عادل ، بل المخاصمة
عنهم والدود . فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم ؟ وتعجل ذلك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُؤَافَقَةً لِهَوَاكَ ، وَلَمْ تَمْتَضِ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . وَلَكِنْ صَدَقَ
 الَّذِي قَالَ : إِنَّ الَّذِي تَعَوَّدَ عَمَلَ الْبِرِّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ ، وَإِنْ أَضَرَّ بِهِ .
 قَالَ الْقَاضِي : إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ : أَنَّ الْقَاضِيَ يَنْبَغِي لَهُ
 أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ ، لِيُجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ
 وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، فَلِذَا ذَهَبَ إِلَى هَذَا أَزْدَادُ الْمُحْسِنُونَ حِرْصًا
 عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَالْمُسِيئُونَ اجْتِنَابًا لِلذُّنُوبِ . وَالرَّأْيُ لَكَ ،
 يَا دِمْنَةُ ، أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعْتَ فِيهِ ، وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ ،
 وَتُقَرِّبَهُ ، وَتَتُوبَ . فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ : إِنِّي صَالِحِي الْقَضَاةِ
 لَا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ ، لَا فِي الْخَاصَّةِ وَلَا فِي
 الْعَامَّةِ : لِعَلَّيْهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . وَأَنْتُمْ إِنْ
 ظَنَنْتُمْ أَنِّي مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ ، فَلِأَنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ ، وَعَلَيَّ
 بِنَفْسِي يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَعَلَيْكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ ، وَإِنَّمَا قَبَحَ
 أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سَعَيْتُ بِغَيْرِي ، فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ
 بِنَفْسِي كَاذِبًا عَلَيْهَا ، فَأَسْلَمْتُهَا لِلْقَتْلِ وَالْعَطَبِ ، عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي

بِرَاءَتِي وَسَلَامَتِي مِمَّا قُرِفْتُ بِهِ ؟ وَنَفْسِي أَكْثَمُ (الْأَنْفُسِ عَلَى
 حُرْمَةٍ وَأَوْجِبَهَا حَقًّا . فَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَذْنَاكُمْ ، لَمَا
 وَسِعَنِي فِي دِينِي ، وَلَا حَسَنَ بِي فِي مُرُوءَتِي ، وَلَا حَقَّ لِي أَنْ
 أَفْعَلَهُ ، فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي ؟ فَأَكْفِفُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ هَذِهِ
 الْمَقَالَةِ : فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِنْكَ نَصِيحَةً ، فَقَدْ أَخْطَأْتَ
 مَوْضِعَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً ، فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِدَاعِ مَا نَظَرْتَهُ
 وَعَرَفْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الْخِدَاعَ وَالْمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ
 صَالِحِي الْقَضَاةِ ، وَلَا تُقَاةِ الْوَلَاةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَالُ وَالْأَشْرَارُ سُنَّةً يَقْتَدُونَ بِهَا :
 لِأَنَّ أُمُورَ الْقَضَاءِ يَأْخُذُ بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ ، وَبِخَطِئِهَا أَهْلُ
 الْخَطَا وَالْبَاطِلِ وَالْقَلِيلُ الْوَرَعُ ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي
 مِنْ مَقَالَتِكَ هَذِهِ أَكْثَمُ الرِّزَايَا وَالْبَلَايَا ، وَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ
 وَالْمُصِيبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ وَالْجُنْدِ وَالْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ
 فَاضِلًا فِي رَأْيِكَ ، مُقْنِعًا فِي عَدْلِكَ ، مُرْضِيًا فِي حُكْمِكَ وَعَفَافِكَ
 وَفَضْلِكَ ، وَإِنَّمَا الْبَلَاءُ كَيْفَ أُتْسِيتَ ذَلِكَ فِي أَمْرِي .

فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِيَ ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةٍ ، نَهَضَ فَرَفَعَهُ إِلَى
الْأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ فَنَظَرَ فِيهِ الْأَسَدُ ، ثُمَّ دَعَا أُمَّهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْهَا .
فَقَالَتْ حِينَ تَدَبَّرْتُ كَلَامَ دِمْنَةٍ لِلْأَسَدِ : لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا
أَتَخَوَّفُ مِنْ اخْتِيَالِ دِمْنَةٍ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ حَتَّى يَقْتُلَكَ أَوْ
يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ ، أَعْظَمَ مِنْ اهْتِمَامِي بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ
إِلَيْكَ فِي الْغِشِّ وَالسَّعَايَةِ ، حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ .
فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ . فَقَالَ لَهَا : أَخْبِرِينِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكَ
عَنْ دِمْنَةٍ بِمَا أَخْبَرَكَ ، فَيَكُونُ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةً . فَقَالَتْ :
إِنِّي لَا أَكْرَهُ أَنْ أَفْشِيَ سِرَّ مَنْ اسْتَكْتَمَنِيهِ ، فَلَا يَهْنِئُنِي سُرُورِي
بِقَتْلِ دِمْنَةٍ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنِّي اسْتَظْهَرْتُ عَلَيْهِ بِرُكُوبٍ مَا نَهَتْ
عَنْهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ ، وَلَكِنِّي أَطَالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعَنِيهِ
أَنْ يَجْعَلَنِي فِي حِلٍّ مِنْ ذِكْرِهِ لَكَ ، وَيَقُومَ هُوَ بِعَلْبِهِ وَمَا سَمِعَ
مِنْهُ . ثُمَّ انْصَرَفَتْ ، وَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّمِرِ ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يَحِقُّ
عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ الْأَسَدَ عَلَى الْحَقِّ ، وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ
الشَّهَادَةِ الَّتِي لَا يَكْتُمُهَا مِثْلُهُ ، مَعَ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِينَ ،

وَتَثْبِيتِ حُجَّةِ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ : فَإِنَّهُ قَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ :
 مَنْ كَتَمَ حُجَّةَ مَيِّتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَمْ تَزَلْ بِهِ ، حَتَّى
 قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةٍ .
 فَلَمَّا شَهِدَ النَّمِرُ بِذَلِكَ ، أَرْسَلَ النَّهْدُ الْمَحْبُوسُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ
 دِمْنَةٍ وَحَفِظَهُ إِلَى الْأَسَدِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً . فَأَنْحَرَبُوه .
 فَشَهِدَ عَلَى دِمْنَةٍ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِهِ . فَقَالَ لَهُمَا الْأَسَدُ :
 مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا بِشَهَادَتِكُمَا ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا وَاهْتِمَامَنَا
 بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةٍ ، فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : قَدْ عَلِمْنَا
 أَنَّ شَهَادَةَ الْوَاحِدِ لَا تُوجِبُ حُكْمًا فَكَّرْهُنَا التَّعَرُّضَ لِغَيْرِ مَا يَمْنَعُنِي
 بِهِ الْحُكْمُ ، حَتَّى إِذَا شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الْآخَرُ بِشَهَادَتِهِ ، فَقَبِلَ
 الْأَسَدُ قَوْلَهُمَا . وَأَمَرَ بِدِمْنَةٍ أَنْ يُقْتَلَ فِي حَبْسِهِ : فَقُتِلَ أَشْنَعَ
 قِتْلَةٍ . فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنَفْعَةً نَفْسِهِ
 بِضَرِّ غَيْرِهِ بِالْخِلَابَةِ وَالْمَكْرِ ، فَإِنَّهُ سَيُجْرَى عَلَى خِلَابَتِهِ وَمَكْرِهِ .
 (انقضى باب الفحص عن أمر دمنة)

الله

بَابُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا، الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ
 الْمُتَحَابِّينِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ ، وَإِلَى مَاذَا صَارَ عَاقِبَةُ
 أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . فَخَدِثْنِي ، إِنْ رَأَيْتَ ، عَنْ إِخْوَانِ الصِّفَاءِ
 كَيْفَ يُتَنَادُّ تَوَاصُلُهُمْ وَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ؟ قَالَ
 الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يُعْدِلُ بِالْإِخْوَانِ شَيْئًا . فَإِلَّا إِخْوَانُ
 هُمُ الْأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَنْوُبُ مِنْ
 الْمَكْرُوهِ . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ
 وَالظَّبْيِ وَالْغُرَابِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ سَكَاوَنْدَجِينَ ، عِنْدَ مَدِينَةِ
 دَاهَرٍ ، مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ ، يَنْتَابُهُ الصَّيَّادُونَ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ
 الْمَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيرَةُ الْأَغْصَانِ مُلْتَفَّةُ الْوَرَقِ . فِيهَا وَكْرٌ غُرَابٍ .
 فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ إِذْ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ ،

Net

سَيِّئِ الْخَلْقِ ، عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ ، وَفِي يَدِهِ عَصَا ، مُقْبِلًا نَحْوَ
 لَشَجَرَةٍ ، فَذَعِرَ مِنْهُ الْغُرَابُ ، وَقَالَ : لَقَدْ سَاقَ هَذَا الرَّجُلُ
 إِلَى هَذَا الْمَكَانِ : إِمَّا حِينِي وَإِمَّا حِينَ غَيْرِي . فَلَا تُبَيِّنَنَّ مَكَانِي
 حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ . ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ ، وَنَثَرَ
 عَلَيْهَا الْحَبَّ ، وَكَمَنَ قَرِيبًا مِنْهَا ، فَلَمْ يَنْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا ، حَتَّى
 مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يَقَالُ لَهَا الْمُطَوَّقَةُ ، وَكَانَتْ سَيِّدَةَ الْحَمَامِ ،
 وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيرٌ ، فَعَمِيَتْ هِيَ وَصَوَّاحِبُهَا عَنِ الشَّرِكِ ، فَوَقَعْنَ
 عَلَى الْحَبِّ يَلْتَقِظْنَهُ ، فَعَلِقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ ، وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ
 فَرِحًا مَسْرُورًا . فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَضْطَرِبُ فِي حَبَائِلِهَا ،
 وَتَلْتَمِسُ الْخَلَاصَ لِنَفْسِهَا . قَالَتِ الْمُطَوَّقَةُ : لَا تَخَازِلْنَ^(١)
 فِي الْمُعَالَجَةِ ، وَلَا تُكُنْ نَفْسٌ إِحْدَاكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ
 صَاحِبَتِهَا ، وَلَكِنْ تَتَعَاوَنُ جَمِيعًا ، فَتَقْلَعُ الشَّبَكَةَ ، فَيَنْجُو
 بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، فَقْلَعْنَ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَعَاوُنِهِنَّ ، وَعَلَوْنَ
 فِي الْجَوِّ ، وَلَمْ يَقْطَعْ الصَّيَّادُ رِجَاءَهُ مِنْهُنَّ وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لَا يُجَاوِزْنَ

(١) خاف . (٢) تواری . (٣) لا تترك مساعدا بعضكن بعضا .

إِلَّا قَرِيبًا وَيَقَعْنَ . فَقَالَ الْغُرَابُ : لَا تَتَّبِعِيهِنَّ وَأَنْظُرِي مَا يَكُونُ مِنْهُنَّ . فَالْتَفَتَتِ الْمُطَوَّقَةُ فَرَأَتْ الصَّيَّادَ يَتَّبِعُهُنَّ . فَقَالَتْ لِلْحَمَامِ : هَذَا الصَّيَّادُ مُجِدُّ فِي طَلَبِكُنَّ ، فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا فِي الْفَضَاءِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَّبِعُنَا ، وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنَا إِلَى الْعَمْرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، وَأَنْصَرَفَ . وَبِمَكَانٍ كَذَا جُرَذٌ هُوَ لِي أَخٌ ، فَلَوْ أَنْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هَذَا الشَّرَكَ . فَقَعَلْنَ ذَلِكَ . وَأَيْسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَأَنْصَرَفَ . وَتَبِعَهُنَّ الْغُرَابُ . فَلَمَّا انْتَهَتِ الْحَمَامَةُ الْمُطَوَّقَةُ إِلَى الْجُرَذِ ، أَمَرَتْ الْحَمَامَ أَنْ يَسْقُظْنَ ، فَوَقَعْنَ ، وَكَانَ لِلْجُرَذِ مِائَةٌ جُحْرٍ لِلْمَخَافِيفِ ، فَنَادَتْهُ الْمُطَوَّقَةُ بِأَنِّمِهِ ، وَكَانَ أَسْمُهُ زِيرَكَ ، فَأَجَابَهَا الْجُرَذُ مِنْ جُحْرِهِ : مَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرَذُ يَسْعَى ، فَقَالَ لَهَا : مَا أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ ؟ قَالَتْ لَهُ : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَيَّ مِنْ تَصْيِبِهِ الْمَقَادِيرُ ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعْتَنِي فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ ، فَقَدْ لَا يَمْتَنِعُ

مِنْ الْقَدْرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْرًا ، وَقَدْ تَنَكَّسَ الشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرْضِ
 الْعَقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّةُ . فَقَالَتْ لَهُ الْمُطَوَّةُ : أَبَدًا يَقْطَعُ
 عَقْدَ سَائِرِ الْجَمَامِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى عَقْدِي ، وَأَعَادَتْ
 ذَلِكَ عَلَيْهِ مِرَارًا ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا ، فَلَمَّا أَكْثَرَتْ
 عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَكَرَّرَتْ ، قَالَ لَهَا : لَقَدْ كَرَّرْتَ الْقَوْلَ عَلَى
 كَأَنَّكَ لَيْسَ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ ، وَلَا لَكَ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ ،
 وَلَا تَرَعِينَ لَهَا حَقًّا . قَالَتْ : إِنِّي أَخَافُ ، إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ
 بِقَطْعِ عَقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَتَكَسَّلَ عَنِ قَطْعِ مَا بَقِيَ ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ
 إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي ، وَكُنْتُ أَنَا الْأَخِيرَةَ ، لَمْ تَرْضَ ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ
 الْفُتُورُ ، أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرِكِ ، قَالَ الْجُرْدُ : هَذَا مِمَّا يَزِيدُ الرَّغْبَةَ
 وَالْمُودَّةَ فِيكَ . ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ حَتَّى فَرَغَ
 مِنْهَا ، فَأَنْطَلَقَتِ الْمُطَوَّةُ وَحَمَامُهَا مَعَهَا .

فَلَمَّا رَأَى الْغُرَابُ صُنْعَ الْجُرْدِ ، رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ ، بِخَاءٍ
 وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ ، فَأَخْرَجَ الْجُرْدُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟

قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ . قَالَ الْجُرَذُ : لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
 تَوَاصُلٌ ، وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ،
 وَيَتْرَكَ التِّمَاسَ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ ، فَإِنَّهَا أَنْتَ الْآكِلُ ،
 وَأَنَا طَعَامُكَ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ الْكَلْبَ إِذَا كَلَّكَ ، وَإِنْ كُنْتَ لِي
 طَعَامًا ، مِمَّا لَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا ، وَإِنْ مَوَدَّتْكَ آتِسُ لِي مِمَّا
 ذَكَرْتَ ، وَلَسْتُ بِحَقِيقٍ ، إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ ، أَنْ تُرَدَّنِي
 خَائِبًا . فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَا رَغِبَنِي فِيكَ ،
 وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهَارَ ذَلِكَ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ ،
 وَإِنْ هُوَ أَخْفَاهُ ، كَالْمِسْكِ الَّذِي يُسَكَّمُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النَّشْرِ
 الطَّيِّبِ وَالْأَرْجِ الْفَائِحِ . قَالَ الْجُرَذُ : إِنَّ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ عَدَاوَةُ
 الْجَوْهَرِ : وَهِيَ عَدَاوَتَانِ : مِنْهَا مَا هُوَ مُتَكَافٍ كَعَدَاوَةِ الْفِيلِ
 وَالْأَسَدِ . فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الْأَسَدُ الْفِيلَ أَوِ الْفِيلُ الْأَسَدَ ، وَمِنْهَا
 مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ كَعَدَاوَةِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّنَوَرِ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ : فَإِنَّ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ ، وَإِنَّمَا
 ضَرُّهَا عَائِدٌ عَلَيَّ : فَإِنَّ الْمَاءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْتِحْنَانُهُ لَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ

إِطْفَاءِ النَّارِ إِذَا صَبَّ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا مُصَاحِبُ الْعَدُوِّ وَمُصَاحِبُهُ
كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ يَحْمِلُهَا فِي كُمِّهِ ، وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَأْنِسُ إِلَى الْعَدُوِّ
الْأَرِيبِ !

قَالَ الْغُرَابُ : قَدْ فَهِمْتُ مَا تَقُولُ ، وَأَنْتَ خَلِيقٌ أَنْ تَأْخُذَ
بِفَضْلِ خَلِيقَتِكَ ، وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقَالَتِي ، وَلَا تُضْعِبَ عَلَى
الْأَمْرِ يَقُولَكَ : لَيْسَ إِلَى التَّوَاصُلِ بَيْنَنَا سَبِيلٌ : فَإِنَّ الْعُقَلَاءَ
الْكَرَامَ لَا يَتَنَبَّهُونَ عَلَى مَعْرُوفِ جَزَاءٍ ، وَالْمُودَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ
سَرِيعٌ اتِّصَالُهَا بِطَيِّئٍ انْقِطَاعُهَا . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْكُوزِ مِنْ
الذَّهَبِ : بَطِيءُ الْإِنْكَسَارِ ، سَرِيعُ الْإِعَادَةِ ، هَيْنُ الْإِضْلَاجِ ،
إِنْ أَصَابَهُ ثَلْمٌ أَوْ كَسْرٌ ، وَالْمُودَّةُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ سَرِيعٌ انْقِطَاعُهَا ،
بَطِيءٌ اتِّصَالُهَا . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْكُوزِ مِنَ الْفَخَّارِ ، سَرِيعُ
الْإِنْكَسَارِ ، يَنْكَسِرُ مِنْ أَدْنَى عَيْنٍ ، وَلَا وَصْلَ لَهُ أَبَدًا . وَالْكَرِيمُ
يُودُّ الْكَرِيمَ ، وَاللَّيِّمُ لَا يُودُّ أَحَدًا إِلَّا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ . وَأَنَا
إِلَى وَدِّكَ وَمَعْرُوفِكَ مُحْتَاجٌ : لِأَنَّكَ كَرِيمٌ ، وَأَنَا مُلَازِمٌ لِبَابِكَ ،
غَيْرَ ذَائِقٍ طَعَامًا ، حَتَّى تُوَاحِشَنِي . قَالَ الْجُرَذُ : قَدْ قَبِلْتُ إِخَاءَكَ :

فَإِنِّي لَمْ أَرُدُّ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ قَطُّ ، وَإِنَّمَا بَدَأْتُكَ بِمَا بَدَأْتُكَ بِهِ إِرَادَةَ التَّوْتُّقِ لِنَفْسِي ، فَإِنْ أَنْتَ غَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ : إِنِّي وَجَدْتُ الْجُرْدَ سَرِيعَ الْإِتِّخْدَاعِ . ثُمَّ نَحَرَ مِنْ جُحْرِهِ ، فَوَقَفَ عِنْدَ الْبَابِ . فَقَالَ لَهُ الْغُرَابُ : مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى ، وَالْإِسْتِنَاسِ بِي ؟ فَهَلْ فِي نَفْسِكَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ رِيْبَةٍ ؟ قَالَ الْجُرْدُ : إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطُونَ فِيْمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ ، وَيَتَوَاصِلُونَ عَلَيْهِمَا ، وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ ، وَذَاتُ الْيَدِ . فَالْمُتَبَاذِلُونَ ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِيَاءُ ، وَأَمَّا الْمُتَبَاذِلُونَ ذَاتَ الْيَدِ فَهُمْ الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِتِّفَاعَ بِبَعْضٍ . وَمَنْ كَانَ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا ، فَلِئَمَّا مَثَلَهُ فِيْمَا يَبْدُلُ وَيُعْطِي كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَالْقَانَةِ الْحَبِّ لِلطَّيْرِ ، لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ . فَتُعَاطَى ذَاتُ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ تَعَاطَى ذَاتِ الْيَدِ . وَإِنِّي وَثِقْتُ مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ ، وَمَنْحَتِكَ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذَلِكَ . وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنِّي بِكَ ، وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحَابًا جَوْهَرُهُمْ بِجَوْهَرِكَ ، وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِي كَرَائِيكَ .

قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ مِنْ عِلَامَةِ الصَّدِيقِ أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِ
 صَدِيقِهِ صَدِيقًا ، وَلِعَدُوِّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا ، وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبِ
 وَلَا صَدِيقٍ مَنْ لَا يَكُونُ لَكَ مُحِبًّا ، وَإِنَّهُ يَهْوَنُ عَلَى قِطِيعَةٍ مِنْ
 كَانَ كَذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِي . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ نَحَرَ إِلَى الْغُرَابِ ،
 فَتَصَافَحَا وَتَصَافَيَا ، وَأَيْسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، حَتَّى إِذَا
 مَضَتْ لهُمَا أَيَّامٌ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ
 النَّاسِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَرْمِيكَ بَعْضُ الصَّبْيَانِ بِحَجَرٍ ، وَلِي مَكَانٌ
 فِي عُرْلَةٍ ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلَاحِفِ ، وَهُوَ مُخَصَّبٌ مِنَ
 السَّمَكِ ، وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ ، فَأُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ
 إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنَيْنِ . قَالَ الْجُرَذُ : إِنَّ لِي أَنْخَبَارًا وَقِصَصًا
 سَاقِصَةً عَلَيْكَ إِذَا أَنْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ ، فَأَفْعَلُ مَا تَشَاءُ . فَأَخَذَ
 الْغُرَابُ بِذَنْبِ الْجُرَذِ ، وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ بِهِ حَيْثُ أَرَادَ . فَلَمَّا
 دَنَا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا السَّلَاحِفَةُ ، بَصُرَتْ السَّلَاحِفَةُ بِالْغُرَابِ وَمَعَهُ
 جُرَذٌ ، فَذَعِرَتْ مِنْهُ ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا ، فَنَادَاهَا ، فَخَرَجَتْ
 إِلَيْهِ ، وَسَأَلَتْهُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ حِينَ تَبِعَ

لِحَمَامٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْجُرَذِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا .
 فَلَمَّا سَمِعَتْ السَّلْحَفَةُ شَأْنَ الْجُرَذِ ، عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوَفَائِهِ ،
 وَرَحَّبَتْ بِهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : مَا سَأَلَكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ؟ قَالَ
 الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : اقْصُصْ عَلَيَّ الْأَخْبَارَ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّكَ تُحَدِّثُنِي
 بِهَا ، فَأَخْبِرْنِي بِهَا مَعَ جَوَابِ مَا سَأَلْتَ السَّلْحَفَةَ : فَإِنَّهَا
 عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي ، فَبَدَأَ الْجُرَذُ وَقَالَ :

كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِينَةِ مَارُوتَ فِي بَيْتِ رَجُلٍ نَاسِكٍ ،
 وَكَانَ خَالِيًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ ، وَكَانَ يَوْتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ بِسَلَّةٍ
 مِنَ الطَّعَامِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ وَيُعَلِّقُ الْبَاقِي ، وَكُنْتُ أَرْصِدُ
 النَّاسِكَ ، حَتَّى يَخْرُجَ وَائْتِبُ إِلَى السَّلَّةِ ، فَلَا أَدْعُ فِيهَا طَعَامًا إِلَّا
 أَكَلْتُهُ ، وَأَزِمِّي بِهِ إِلَى الْجُرَذَانِ . بِجَهْدِ النَّاسِكِ مِرَارًا أَنْ يُعَلِّقَ
 السَّلَّةَ مَكَانًا لَا أَنَالَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ
 ضَيْفٌ ، فَأَكَلَا جَمِيعًا ، ثُمَّ أَخَذَا فِي الْحَدِيثِ ، فَقَالَ النَّاسِكُ
 لِلضَّيْفِ : مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ ؟ وَآيْنَ تُرِيدُ الْآنَ ؟ وَكَانَ الرَّجُلُ
 قَدْ جَابَ الْآفَاقَ ، وَرَأَى عَجَائِبَ ، فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ النَّاسِكَ عَمَّا

عنه

وَطَىَّ مِنَ الْبِلَادِ ، وَرَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ ؛ وَجَعَلَ النَّاسُ خِلَالَ
 ذَلِكَ يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ ، لِيَنْفِرَنِي ^{بِمَا} عَنِ السَّلَةِ ؛ فَغَضِبَ الضَّيْفُ
 وَقَالَ : أَنَا أَحَدُكَ وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثِي ! فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ
 سَأَلْتَنِي ؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَصَفُّ بِيَدِي
 لِأَنْفَرُ جُرْدًا قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَسْتُ أَضَعُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا
 إِلَّا أَكَلَهُ ، فَقَالَ الضَّيْفُ : جُرْدٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَمْ جِرْدَانُ
 كَثِيرَةٌ ؟ فَقَالَ النَّاسُ : جِرْدَانُ الْبَيْتِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنْ فِيهَا جُرْدٌ
 وَاحِدٌ هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي ، فَمَا أَسْتَطِيعُ لَهُ حِيلَةً . قَالَ الضَّيْفُ :
 لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قَالَ : لِأَمْرِ مَا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْنَهَا
 مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ ! قَالَ النَّاسُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الضَّيْفُ : نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكَانٍ كَذَا ، فَتَعَشَيْتُ ،
 ثُمَّ فَرَشَ لِي . وَانْقَلَبَ الرَّجُلُ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي آخِرِ
 اللَّيْلِ لِامْرَأَتِهِ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو نَعْدًا رَهْطًا لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا ،
 فَاذْنَعِي لَهُمْ طَعَامًا . فَتَوَالَّتِ الْمَرْأَةُ : كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى

طَعَامِكَ ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِكَ فَضْلٌ عَنْ عِيَالِكَ ؟ وَأَنْتَ رَجُلٌ لَا تُبْقِي شَيْئًا وَلَا تَذَرُهُ . قَالَ الرَّجُلُ : لَا تَنْدِمِي عَلَى شَيْءٍ أَطْعَمْنَاهُ وَأَنْفَقْنَاهُ : فَإِنَّ الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ رُبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَةِ الذَّنْبِ .
قَالَتِ الْمَرْأَةُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : زَعَمُوا أَنَّهُ نَحَرَاجَ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ قَانِصٌ ، وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَنُشَابَهُ فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، حَتَّى رَمَى ظَبْيًا ، فَحَمَلَهُ وَرَجَعَ طَالِبًا مَنْزِلَهُ ، فَاعْتَرَضَهُ خَنْزِيرٌ بَرِيٌّ فَرَمَاهُ بِنُشَابَةٍ نَفَذَتْ فِيهِ ، فَأَدْرَكَهُ الْخَنْزِيرُ وَضَرَبَهُ بِأَنْيَابِهِ ضَرْبَةً أَطَارَتْ مِنْ يَدِهِ الْقَوْسُ ، وَوَقَعَ مَيِّتِينَ ، فَأَتَى عَلَيْهِمْ ذَنْبٌ فَقَالَ : هَذَا الرَّجُلُ وَالظَّبْيُ وَالْخَنْزِيرُ يَكْفِينِي أَكْلَهُمْ مَدَّةً ، وَلَكِنْ أَبْدَأُ بِهَذَا الْوَتَرِ فَأَكْلُهُ ، فَيَكُونُ قُوَّتَ يَوْمِي ، فَعَالَجَ الْوَتَرَ حَتَّى قَطَعَهُ ، فَلَمَّا انْقَطَعَ طَارَتْ سِيَةُ الْقَوْسِ (٢) ، فَضَرَبَتْ حَلْقَهُ فَاتَتْ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمِي أَنَّ الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ وَخِيَمُ الْعَاقِبَةِ . فَقَالَتْ

الْمَرْأَةُ: نِعَمَ مَا قُلْتَ ! وَعِنْدَنَا مِنَ الْأُرْزِ وَالسِّمِمْ مَا يَكْفِي سِتَّةَ
 زَهْرٍ أَوْ سَبْعَةً ، فَأَنَا غَادِيَةٌ عَلَى اضْطِنَاجِ الطَّعَامِ ، فَادْعُ مَنْ أَحَبَّيْتَ .
 وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ حِينَ أَصْبَحَتْ سِمِمًْا فَقَشَرَتْهُ ، وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ
 لِيَجْفَ ، وَقَالَتْ لِغُلَامٍ لَهُمْ : أَطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالْكِلَابَ ،
 وَتَفَرَّغْتَ الْمَرْأَةُ لِصُنْعِهَا ، وَتَغَافَلَ الْغُلَامُ عَنِ السِّمِمْ ، بِخَاءِ
 كَلْبٍ ، فَعَاثَ فِيهِ ، فَاسْتَقْدَرَتْهُ الْمَرْأَةُ ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْهُ
 طَعَامًا مَا ، فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ ، فَأَخَذَتْ بِهِ مُقَايِضَةً سِمِمًْا
 غَيْرَ مَقْشُورٍ : مِثْلًا بِمِثْلِ ، وَأَنَا وَاقِفٌ فِي السُّوقِ ، فَقَالَ رَجُلٌ :
 لِأَمْرِ مَا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سِمِمًْا مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ . وَكَذَلِكَ
 قَوْلِي فِي هَذَا الْجُرْدِ الَّذِي ذَكَرْتُ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ مَا يَقْدِرُ عَلَى
 مَا شَكُوتَ مِنْهُ . فَالْتِمَسَ لِي فَأَسَا لَعَلِّي أُحْتَفَرُ بِجُحْرِهِ فَأُطْلِعَ عَلَى
 بَعْضِ شَأْنِهِ ! فَاسْتَعَارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ جِيرَانِهِ فَأَسَا ، فَأَتَى
 بِهَا الضَّيْفَ ، وَأَنَا حِينئِذٍ فِي جُحْرٍ غَيْرِ جُحْرِي أُسْمِعُ كَلَامَهُمَا ،
 وَفِي جُحْرِي كَيْسٌ فِيهِ مِائَةُ دِينَارٍ ، لَا أَذْرِي مَنْ وَضَعَهَا ، فَاحْتَفَرَ

الضَّيْفُ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا وَقَالَ لِلنَّاسِكِ : مَا كَانَ
هَذَا الْجُرْدُ يَقْوَى عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ إِلَّا بِهَذِهِ
الدَّنَانِيرِ : فَإِنَّ الْمَالَ جَعَلَ لَهُ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي الرَّأْيِ وَالتَّمَكُّنِ .
وَسَتَرَى بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ .
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعَ الْجُرْدَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِيَ فَقَالَتْ :
قَدْ أَصَابَنَا الْجُوعُ ، وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا . فَانْطَلَقْتُ وَمَعِيَ الْجُرْدَانُ إِلَى
الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَثْبُ مِنْهُ إِلَى السَّلَّةِ ، فَحَاوَلْتُ ذَلِكَ مِرَارًا :
فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ . فَاسْتَبَانَ لِلْجُرْدَانِ نَقْصُ حَالِي ، فَسَمِعَتْهُنَّ يَقُلْنَ :
أَنْصَرِفْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَطْمَعْنَ فِيمَا عِنْدَهُ : فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالًا
لَا نَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ اخْتَجَعَ مَعَهَا إِلَى مَنْ يَعُولُهُ . فَتَرَكْنِي ، وَلَحِقْنَ
بِأَعْدَائِي وَجَفَوْنِي ، وَأَخَذْنَ فِي غِيْبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعَادِينِي وَيَحْسُدُنِي .
فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا الْإِخْوَانُ وَلَا الْأَعْوَانُ وَلَا الْأَصْدِقَاءُ إِلَّا
بِالْمَالِ وَوَجَدْتُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، إِذَا أَرَادَ أَمْرًا ، قَعَدَ بِهِ الْعُذْمُ
عَمَّا يُرِيدُهُ : كَالْمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشِّتَاءِ :
لَا يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ وَلَا يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ ، فَتَشْرَبُهُ أَرْضُهُ . وَوَجَدْتُ

مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ لَا أَهْلَ لَهُ ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ لَا ذِكْرَ لَهُ ، وَمَنْ لَا
 مَالَ لَهُ لَا عَقْلَ لَهُ ، وَلَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةَ لَهُ : لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ
 قَطَعَهُ أَقَارِبُهُ وَإِخْوَانُهُ : فَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السِّبَاخِ ، الْمَأْكُولَةَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، كَحَالِ الْفَقِيرِ الْمُحْتَاجِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ .
 وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَجَالِبًا إِلَى صَاحِبِهِ كُلِّ مَقْتٍ ،
 وَمَعْدَنَ النَّمِيمَةِ . وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ أَتَهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ
 مُؤْتَمِنٌ ، وَاسَاءَ بِهِ الظَّنُّ ^{بِرَأْسِهِ} مَنْ كَانَ يَظُنُّ فِيهِ حَسَنًا : فَإِنْ أَذْنَبَ
 غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتَّهْمَةِ مَوْضِعًا . وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ هِيَ لِلْغَنِيِّ مَذْحٌ
 إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقِيرِ ذَمٌّ ، فَإِنْ كَانَ شَجَاعًا قِيلَ : أَهْوَجُ ، وَإِنْ كَانَ
 جَوَادًا سُمِّيَ مُبَذِّرًا ، وَإِنْ كَانَ حَلِيمًا سُمِّيَ ضَعِيفًا ، وَإِنْ كَانَ
 وَقُورًا سُمِّيَ بَلِيدًا . فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي تُخَوِّجُ صَاحِبَهَا
 إِلَى الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا سِيَّامَسْأَلَةُ الْأَشْيَاءِ وَاللُّثَامِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ
 كُفِّ أَنْ يَدْخُلَ يَدُهُ فِي فَمِ الْأَفْقَى ، فَيُخْرِجَ مِنْهُ سَمًّا فَيَتَلَعَهُ ،
 كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّثِيمِ .
 وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّعِيفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنَانِيرَ فَقَاسَمَهَا النَّاسُكَ ،

فَجَعَلَ النَّاسِكُ نَصِيْبَهُ فِي نَحْرِيْطَةٍ عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ،
 فَطَمِعْتُ أَنَّ أُصِيبَ مِنْهَا شَيْئًا فَأَرَدَهُ إِلَى جُحْرِي ، وَرَجَوْتُ أَنْ
 يَزِيدَ ذَلِكَ فِي قُوَّتِي ، وَيُرَاجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقَائِي . فَاَنْطَلَقْتُ
 إِلَى النَّاسِكِ وَهُوَ نَائِمٌ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَوَجَدْتُ
 الضَّيْفَ يَقْظَانِ ، وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ ، فَضَرَبَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً
 مُوجِعَةً ، فَسَعَيْتُ إِلَى جُحْرِي . فَلَمَّا سَكَنَ عَنِّي الْأَلَمُ ، هَيَّجَنِي
 الْحِرْصُ وَالشَّرُّ ، فَخَرَجْتُ طَمَعًا كَطَمَعِي الْأَوَّلِ ، وَإِذَا الضَّيْفُ
 يَرُصُّنِي ، فَضَرَبَنِي ضَرْبَةً أُسْبَلَتْ مِنْهُ الدَّمُ ، فَتَقَلَّبْتُ ظَهْرًا
 لِبَطْنٍ إِلَى جُحْرِي ، فَخَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَى ، فَأَصَابَنِي مِنَ الْوَجَعِ
 مَا بَغَضَ إِلَى الْمَالِ ، حَتَّى لَا أَسْمَعَ بِذِكْرِهِ إِلَّا تَدَاخَلَنِي مِنْ ذِكْرِ
 الْمَالِ رَغْدَةٌ وَهَيْبَةٌ . ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا إِثْمًا
 يَسُوقُهُ الْحِرْصُ وَالشَّرُّ ، وَلَا يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ
 وَنَصَبٍ ، وَوَجَدْتُ تَجَشُّمَ الْأُسْفَارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا
 أَهْوَنَ عَلَى مَنْ بَسَطَ الْيَدَ إِلَى السَّخَى بِالْمَالِ ، وَلَمْ أَرَ كَالرُّضَا

شَيْئًا ، فَصَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ رَضِيتُ وَقِنَعْتُ ، وَانْتَقَلْتُ مِنْ
 بَيْتِ النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ، وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَمَامِ ، فَسِيقْتُ
 إِلَى بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةً . ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرَابُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ
 الْمَوَدَّةِ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِتْيَانَكَ ، فَأُحْبِيتُ أَنَّ آتِيكَ مَعَهُ ،
 فَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا يَعْدِلُ صُحْبَةَ
 الْإِخْوَانِ ، وَلَا غَمٌّ فِيهَا يَعْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ . وَجَرَّبْتُ : فَعَلِمْتُ
 أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَمَسَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي
 يَدْفَعُ بِهِ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ : وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ ،
 إِذَا اشْتَمَلَ عَلَى صِحَّةِ الْبَدَنِ وَرَفَاهَةِ الْبَالِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَهَبَتْ لَهُ
 الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، لَمْ يَكُ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي
 يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةَ : فَأَقْبَلْتُ مَعَ الْغُرَابِ إِلَيْكَ عَلَى هَذَا
 الرَّأْيِ ، وَأَنَا لَكَ أَخٌ ، فَلَتَكُنْ مَنَزِلَتِي عِنْدَكَ كَذَلِكَ .

فَلَمَّا فَرَغَ الْجُرْدُ مِنْ كَلَامِهِ أَجَابَتْهُ السَّلْحَفَةُ بِكَلَامٍ رَفِيقٍ
 عَذِيبٍ ، وَقَالَتْ : قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا تَحَدَّثْتَ بِهِ !
 إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بَقَايَا أُمُورِي فِي نَفْسِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ

حُسْنَ الْكَلَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ الْعَمَلِ ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي قَدْ
 عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوِ بِهِ ، لَمْ يَغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَجِدْ
 لِدَائِهِ رَاحَةً وَلَا خِفَةً . فَاسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ ، وَلَا تَحْزَنْ لِقِلَّةِ الْمَالِ :
 فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ : كَالْأَسَدِ الَّذِي
 يَهَابُ ، وَإِنْ كَانَ رَاضِيًا ، وَالْغَنِيِّ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يَهَانُ ،
 وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ : كَالْكَلْبِ لَا يُحْفَلُ بِهِ ، وَإِنْ طَوَّقَ
 وَخُلِخِلَ^(١) بِالذَّهَبِ . فَلَا تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ
 لَا غُرْبَةَ لَهُ : كَالْأَسَدِ الَّذِي لَا يَنْقَابُ إِلَّا وَمَعَهُ قُوَّتُهُ . فَلْتُحْسِنْ
 لِعَاهِدِكَ لِنَفْسِكَ : فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَاءَكَ الْخَيْرُ يَغَالِبُكَ
 كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءَ اتِّخَاذُهُ . وَإِنَّمَا جَعَلَ الْفَضْلُ لِلْحَازِمِ الْبَصِيرِ
 بِالْأُمُورِ ، وَمَا الْكَسْلَانُ الْمُتَرَدِّدَانِ^١ فَإِنَّ الْفَضْلَ لَا يَصْحَبُهُ . وَتَذْ
 قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا بَقَاءٌ : ظِلُّ الْغَمَامَةِ فِي الصَّيْفِ ،
 وَخُلَّةُ الْأَشْرَارِ ، وَالْبِنَاءُ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ، وَالْمَالُ الْكَثِيرُ :

(١) يمكن أن يكون مأخوذاً من المحلل وهو موضع الخلخال ولا فان كلمة خلخل لم ترد
 صريحاً إلا في معنى خلخل العظم أخذ ما عليه من اللحم والخلخل مشتق فهو يشعر بأن له فعلاً وإن لم
 تذكره المعاجم لأنها لا تعرض للقياس أو هو مما أميت من الكلام .

فَالْعَاقِلُ لَا يَحْزَنُ لِقَلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا مَالُ الْعَاقِلِ عَقْلُهُ ، وَمَا قَدَّمَ
 مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، فَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ لَا يَسْلُبُ مَا عَمِلَ ، وَلَا يُؤَاخِذُ
 بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ ، وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ : فَإِنَّ
 الْمَوْتَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً ، لَيْسَ لَهُ وَقْتُ مُعَيَّنٌ . وَأَنْتَ عَنْ
 مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ . وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنَّ أَقْصَى
 مَالِكَ مِنْ حَقِّ قَبْلَنَا : لِأَنَّكَ أَخُونَا ، وَمَا عِنْدَنَا مِنَ النَّصِيحِ
 مَبْدُولٌ لَكَ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرَابُ كَلَامَ السَّلْحَفَةِ لِلْجُرَذِ ، وَرَدَّهَا عَلَيْهِ ،
 وَمَلَأَ طَفَتَهَا إِيَّاهُ فَرِحَ بِذَلِكَ ، وَقَالَ : لَقَدْ سَرَرْتَنِي ، وَأَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ ، وَأَنْتَ جَدِيرٌ أَنْ تُسَرِّيَ نَفْسِي بِمِثْلِ مَا سَرَرْتَنِي بِهِ . وَإِنْ
 أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ الشُّرُورِ مَنْ لَا يَزَالُ رَبْعُهُ مِنْ إِخْوَانِهِ
 وَأَصْدِقَائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا ، وَلَا يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ
 يَسْرُهُمْ وَيُسْرُونَهُ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ
 بِالْمِرْصَادِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَصَرَ لَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكَرَامُ :
 كَالْفِيلِ إِذَا وَحَلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفِئْلَةُ .

فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ فِي كَلَامِهِ ، إِذَا أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَنِيٌّ يَسْعَى ،
 فَذَعِرَتْ مِنْهُ السَّلْحَفَةُ ، فَغَاضَتْ فِي الْمَاءِ ، وَنَحَرَ الْجُرْدُ
 إِلَى بُحْرِهِ ، وَطَارَ الْغُرَابُ ، فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ . ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ حَلَقَ
 فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّنِيِّ طَالِبٌ ؟ فَظَرَ فَلَمْ يَرْ شَيْئًا ، فَنَادَى
 الْجُرْدَ وَالسَّلْحَفَةَ ، وَنَحَرَ جَا ، فَقَالَتِ السَّلْحَفَةُ لِلظَّنِيِّ ، حِينَ
 رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ : أَشْرَبَ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ ، وَلَا تَخَفْ :
 فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْكَ . فَدَنَا الظَّنِيُّ ، فَرَحِبَتْ بِهِ السَّلْحَفَةُ
 وَحَيْثُ ، وَقَالَتْ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أُسْنَحُ^(١)
 بِهَذِهِ الصَّحَارَى ، فَلَمْ تَزَلِ الْأَسَاوِرَةُ تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى
 مَكَانٍ . حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَعًا . نَحِيفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصًا .
 قَالَتْ : لَا تَخَفْ : فَإِنَّا لَمْ نَرْ هَاهُنَا قَانِصًا قَطُّ ، وَنَحْنُ نَبْذُلُ
 لَكَ وَدَنًا وَمَكَانًا ، وَالْمَاءَ وَالْمَرْعَى كَثِيرًا عِنْدَنَا : فَارْغَبْ
 فِي صُحْبَتِنَا . فَأَقَامَ الظَّنِيُّ مَعَهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ^(٢) يَجْتَمِعُونَ^(٣)

(١) اسنح من الصيد : مامر من المياسر الى المياسر . والبارح صده ، والمراد هنا مطلق الرتوع .

(٢) جمع إسوار وهو الرامى بالسهم .

(٣) مكان يستظل به .

فِيهِ ، وَيَتَذَكَّرُونَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ . فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ وَالْجُرْدُ
وَالسُّلْحَفَاءُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ ، غَابَ الظَّيُّ ، فَتَوَقَّعُوهُ سَاعَةً ،
فَلَمْ يَأْتِ . فَلَمَّا أَبْطَأَ أَشْفَقُوا ^(١) أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ ^(٢) ،
فَقَالَ الْجُرْدُ وَالسُّلْحَفَاءُ لِلْغُرَابِ : أَنْظِرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا شَيْئًا ؟
فَخَلَقَ الْغُرَابُ فِي السَّمَاءِ فَنَظَرَ : فَإِذَا الظَّيُّ فِي الْحَبَائِلِ مُقْتَنَصًا ،
فَانْقَضَ مُسِرًّا ، فَأَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ ، فَقَالَتِ السُّلْحَفَاءُ وَالْغُرَابُ
لِلْجُرْدِ : هَذَا أَمْرٌ لَا يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ ، فَأَغِثْ أَخَاكَ . فَسَعَى
الْجُرْدُ مُسِرًّا ، فَأَتَى الظَّيُّ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هَذِهِ
النَّوْرَظَةِ وَأَنْتَ مِنَ الْأَنْكِيَاسِ ^(٣) ؟ قَالَ الظَّيُّ : هَلْ يُعْنِي الْكَيْسُ
مَعَ الْمَقَادِيرِ شَيْئًا ، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الْحَدِيثِ إِذْ وَافَتْهُمَا السُّلْحَفَاءُ ،
فَقَالَ لَهَا الظَّيُّ . مَا أَصَبْتَ بِمَجِيئِكَ إِلَيْنَا : فَإِنَّ الْقَانِصَ لَوْ
انْتَهَى إِلَيْنَا وَقَدْ قَطَعَ الْجُرْدُ الْحَبَائِلَ اسْتَبَقْتُهُ عَدُوًّا ، وَلِلْجُرْدِ
أَنْجَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَالْغُرَابُ يَطِيرُ ، وَأَنْتَ ثَقِيلَةٌ : لَا سَعَى لَكَ
وَلَا حَرَكَةٍ ، وَأَخَافُ عَلَيْكَ الْقَانِصَ . قَالَتْ : لَا عَيْشَ مَعَ

(١) خافوا . (٢) وقوع في أمر شاق . (٣) جمع كَيْسٍ وهو الفطن الظريف .

فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ ، وَإِذَا فَارَقَ الْأَلِيفُ الْأَيْفَهُ فَقَدْ سُلِبَ قُوَادَهُ ،
وَحَرِمَ سُرُورَهُ ، وَغُشِيَ بَصَرُهُ . فَلَمْ يَنْتَهِ كَلَامُهَا حَتَّى وَافَى
الْقَانِصُ ، وَوَافَقَ ذَلِكَ فَرَاغَ الْجُرْدِ مِنْ قَطْعِ الشَّرِكِ ، فَنَجَا
الظَّبْيُ بِنَفْسِهِ ، وَطَارَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ
الْأُجْحَارِ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السَّلْحَفَةِ ، وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ
مُقَطَّعَةً ، فَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السَّلْحَفَةِ تَدْبُ ، فَأَخَذَهَا
وَرَبَطَهَا ، فَلَمْ يَلْبَثِ الْغُرَابُ وَالْجُرْدُ وَالظَّبْيُ أَنْ اجْتَمَعُوا فَنَظَرُوا
الْقَانِصَ قَدْ رَبَطَ السَّلْحَفَةَ ، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ ، وَقَالَ الْجُرْدُ :
مَا أَرَانَا نُبْجَاوُزُ عَقَبَةً مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا صِرْنَا فِي أَشَدِّ مِنْهَا . وَلَقَدْ
صَدَقَ الَّذِي قَالَ : لَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَغْتَرْ ،
فَإِذَا عَثَرَ بِه الْعِثَارُ ، وَإِنْ مَشَى فِي جَدِّ الْأَرْضِ . وَحَذَرِي
عَلَى السَّلْحَفَةِ خَيْرِ الْأُصْدِقَاءِ الَّتِي خَلَّتْهَا لَيْسَتْ لِلْمُجَازَاةِ وَلَا
لِلنِّمَاسِ مُكَافَأَةٌ ، وَلَكِنَّهَا خُلَّةُ الْكَرَمِ وَالشَّرَفِ ، خُلَّةٌ هِيَ

أَفْضَلُ مِنْ خُلَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ ، خُلَّةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْمَوْتُ . وَيُحِبُّ
 لِهَذَا الْجَسَدِ الْمُوَكَّلِ بِهِ الْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ وَتَقَلُّبٍ ،
 وَلَا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ : كَمَا لَا يَدُومُ لِلطَّالِعِ
 مِنَ النُّجُومِ طُلُوعٌ ، وَلَا لِلْآفِلِ مِنْهَا أَفُولٌ ، لَكِنْ لَا يَزَالُ الطَّالِعُ
 مِنْهَا آفِلًا ، وَالْآفِلُ طَالِعًا ، وَكَمَا تَكُونُ آلَامُ الْكُلُومِ ^(١) وَانْتِقَاضُ
 الْجَرَاحَاتِ ، كَذَلِكَ مَنْ قَرِحَتْ كُلُّومُهُ بِفَقْدِ إِخْوَانِهِ بَعْدَ
 اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ . فَقَالَ الظُّبِّيُّ وَالْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : إِنَّ حَذَرَنَا وَحَذَرَكَ
 وَكَلَامَكَ ، وَإِنْ كَانَ بَلِيغًا ، كُلُّ مِنْهَا لَا يُغْنِي عَنِ السَّلَخَفَةِ
 شَيْئًا . وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ : إِنَّمَا يُخْتَبَرُ النَّاسُ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَذُو
 الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ، وَالْأَهْلُ وَالْوَلَدُ عِنْدَ الْفَاقَةِ ، كَذَلِكَ
 يُخْتَبَرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ . قَالَ الْجُرَذُ : أَرَى مِنَ الْحِيلَةِ أَنْ
 تَذَهَبَ ، أَيُّهَا الظُّبِّيُّ ، فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ : كَأَنَّكَ جَرِيحٌ ،
 وَيَقَعُ الْغُرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ ، وَأَسْعَى أَنَا فَأَكُونُ قَرِيبًا
 مِنَ الْقَانِصِ ، مُرَاقِبًا لَهُ ، فَعَلَّهُ أَنْ يَرِي مَا مَعَهُ مِنَ الْآلَةِ ،

(١) جمع كلم وهو الجرح .

وَيَضَعُ السَّلْحَفَاةَ ، وَيَقْصِدُكَ طَامِعًا فِيكَ ، رَاجِيًا تَحْصِيلَكَ .
فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَفِرَّ عَنْهُ رُويْدًا : بِحَيْثُ لَا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ مِنْكَ ،
وَمَكَئِنُّهُ مِنْ أَخَذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، حَتَّى يَبْعُدَ عَنَّا ، وَأَنْحُ مِنْهُ
هَذَا النَّخْوَ مَا اسْتَطَعْتَ : فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا وَقَدْ
قَطَعْتُ الْحَبَائِلَ عَنِ السَّلْحَفَاةِ ، وَأَنْجُو بِهَا . فَفَعَلَ الْغُرَابُ
وَالظُّبْيُ مَا أَمَرَهُمَا بِهِ الْجُرْدُ ، وَتَبِعَهُمَا الْقَانِصُ ، فَاسْتَجَرَّهُ الظُّبْيُ ،
حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْجُرْدِ وَالسَّلْحَفَاةِ ، وَالْجُرْدُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ
الْحَبَائِلِ ، حَتَّى قَطَعَهَا ، وَنَجَا بِالسَّلْحَفَاةِ ، وَعَادَ الْقَانِصُ
مَجْهُودًا لَا غِبًّا فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ مُقْطَعَةً . فَفَكَرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظُّبْيِ
الْمُتَظَالِعِ^(٢) ، فَظَنَّ أَنَّهُ خُوِلِطَ فِي عَقْلِهِ ، وَفَكَرَ فِي أَمْرِ الظُّبْيِ
وَالْغُرَابِ الَّذِي كَانَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ ، وَقَرِضَ حِبَالَتَيْهِ ، فَاسْتَوْحَشَ
مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ : هَذِهِ أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ . فَرَجَعَ مُوَلِّيًا
لَا يَلْتَمِسُ شَيْئًا ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ . وَاجْتَمَعَ الْغُرَابُ وَالظُّبْيُ
وَالْجُرْدُ وَالسَّلْحَفَاةُ إِلَى عَرِيشِهِمْ سَا لِمِينَ آمِنِينَ كَأَحْسَنِ
مَا كَانُوا عَلَيْهِ .

(٢) المتظالِعُ بالظَّلْع وهو مشى شبيه بالمرج .

(١) تبع .

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْخَلْقُ مَعَ صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ قَدْ قَدَرَ عَلَى التَّخَلُّصِ
 مِنْ مَرَابِطِ الْمَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ وَخُلُوصِهَا ، وَثَبَاتِ
 قَلْبِهِ عَلَيْهَا ، وَاسْتِمْتَاعِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ؛ فَالْإِنْسَانُ
 الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ . وَالْهَمَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَمُنِحَ
 التَّمْيِيزَ وَالْمَعْرِفَةَ ، أَوْلَى وَأُخْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاوُدِ . فَهَذَا مَثَلُ
 إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَأَتِلَافِهِمْ فِي الصَّخْبَةِ .

(افصى باب الحامة المطوقة)

بَابُ الْبُومِ وَالْغُرَبَانِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلُ إِخْوَانِ
 الصَّفَاءِ وَتَعَاوُنِهِمْ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلُ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ
 يُغْتَرَّ بِهِ ، وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعًا وَمَلَقًا . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : مَنْ آغْتَرَّ
 بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَدُوًّا ، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْبُومَ مِنَ الْغُرَبَانِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ
 الدَّوَجِ^(١) ، فِيهَا وَكْرُ أَلْفِ غُرَابٍ ، وَعَلَيْهِنَّ وَاِلٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ؛

(١) جمع دوجة وهي الشجرة العظيمة .

وَكَانَ عِنْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيهِ أَلْفُ بَوْمَةٍ ، وَعَلَيْهِنَّ وَالِ
 مِنْهُنَّ . فَخَرَجَ مَلِكُ الْبُومِ لِبَعْضِ غُدُوَاتِهِ وَرَوْحَاتِهِ ؛ وَفِي نَفْسِهِ
 الْعَدَاوَةُ لِلْمَلِكِ الْغَرِبَانِ ؛ وَفِي نَفْسِ الْغَرِبَانِ وَمَلِكِهَا مِثْلُ ذَلِكَ
 لِلْبُومِ ؛ فَأَغَارَ مَلِكُ الْبُومِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى الْغَرِبَانِ فِي أَوْكَارِهَا ،
 فَقَتَلَ وَسَبَى مِنْهَا خَلْقًا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ الْغَارَةُ لَيْلًا ؛ فَلَمَّا
 أَصْبَحَتِ الْغَرِبَانُ اجْتَمَعَتِ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ
 مَا لَقِينَا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ الْبُومِ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ أَصْبَحَ قَتِيلًا
 أَوْ جَرِيحًا أَوْ مَكْسُورَ الْجَنَاحِ أَوْ مَشْتُوفَ الرِّيشِ أَوْ مَقْطُوفَ الذَّنَبِ
 وَأَشَدَّ مِمَّا أَصَابَنَا ضَرًّا عَلَيْنَا جَرَاءَتُهُنَّ عَلَيْنَا ، وَعِلْمُهُنَّ بِمَكَانِنَا ،
 وَهُنَّ عَائِدَاتٌ إِلَيْنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَاتٍ عَنَّا : لِعِلْمِهِنَّ بِمَكَانِنَا : فَلِئِمَّا
 نَحْنُ لَكَ ، وَلَكَ الرَّأْيُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَانْظُرْ لَنَا وَلِنَفْسِكَ .
 وَكَانَ فِي الْغَرِبَانِ نَحْمَسَةٌ مُعْتَرِفٌ لَهُنَّ بِحُسْنِ الرَّأْيِ ، يُسَنِّدُ إِلَيْهِنَّ
 فِي الْأُمُورِ ، وَيُلْقِي عَلَيْهِنَّ أَرْمَةً الْأُخْوَالِ . وَكَانَ الْمَلِكُ كَثِيرًا
 مَا يُشَاوِرُهُنَّ فِي الْأُمُورِ ، وَيَأْخُذُ آرَاءَهُنَّ فِي الْحَوَادِثِ
 وَالنَّوَازِلِ .

فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْأَوَّلِ مِنَ الْخَمْسَةِ : مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟
 قَالَ : رَأَيْي قَدْ سَبَقْتَنَا إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ
 لِلْعَدُوِّ الْحَقِيقُ^(١) إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ . قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّانِي : مَا رَأَيْكَ
 أَنْتَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟ قَالَ : رَأَيْي مَا رَأَى هَذَا مِنَ الْهَرَبِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : لَا أَرَى لَكُمْ ذَلِكَ رَأْيًا ، أَنْ نَرْحَلَ عَنْ أَوْطَانِنَا
 وَنُخْلِيهَا لِعَدُونِنَا مِنْ أَوَّلِ نَكْبَةٍ أَصَابَتْنَا مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ ،
 وَلَكِنْ نُنْجِعُ أَمْرَنَا ، وَنَسْتَعِدُّ لِعَدُونِنَا ، وَنُذَكِّي نَارَ الْحَرْبِ فِيمَا^(٢)
 بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُونِنَا ، وَنُخْتَرِسُ مِنَ الْغِرَةِ إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْنَا ، فَنَلْقَاهُ^(٣)
 مُسْتَعِدِّينَ ، وَنُقَاتِلُهُ قِتَالًا غَيْرَ مُرَاجِعِينَ فِيهِ ، وَلَا مُقْصِرِينَ
 عَنْهُ ، وَتَلْقَى أَطْرَافُنَا أَطْرَافَ الْعَدُوِّ ، وَنُحَرِّزُ بِحُصُونِنَا ، وَنُدَافِعُ
 عَدُونَنَا : بِالْأَنَاءِ مَرَّةً ، وَبِالْجَلَادِ أُخْرَى ، حَيْثُ نُصِيبُ فُرْصَتَنَا^(٤)
 وَبُغْيَتَنَا ، وَقَدْ ثَنَيْنَا عَدُونَنَا عَنَّا .

ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّلَاثِ : مَا رَأَيْكَ أَنْتَ ؟ قَالَ : مَا أَرَى مَا قَالَا
 رَأْيًا . وَلَكِنْ نَبُثُ الْعُيُونَ ، وَنَبْعَثُ الْخَوَاسِيسَ ، وَنُرْسِلُ

الطَّلَائِعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُونَا ؛ فَتَعْلَمُ أَيْرِيدُ صَلَاحَنَا أَمْ يُرِيدُ حَرْبَنَا
 أَمْ يُرِيدُ الْفِذْيَةَ ؟ فَإِنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ أَمَرَ طَامِجٌ فِي مَالٍ ، لَمْ نَكْرَهُ
 الصُّلْحَ عَلَى نَحْرَاجٍ نُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا .
 وَنَظْمِنُ فِي أَوْطَانِنَا : فَإِنْ مِنْ آرَاءِ الْمُلُوكِ إِذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ
 عَدُوِّهِمْ ، نَخَافُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ ، أَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْوَالَ
 جُنَّةَ الْبِلَادِ وَالْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ . قَالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ : فَمَا رَأَيْكَ
 فِي هَذَا الصُّلْحِ ؟ قَالَ لَا أَرَاهُ رَأْيًا ؛ بَلْ أَنْ تُفَارِقَ أَوْطَانَنَا
 وَنَضْبِرَ عَلَى الْغُرْبَةِ وَشِدَّةِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ أَحْسَابَنَا
 وَنَخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ ؛ مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْ عَرَضْنَا
 ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لَمَا رَضِينَ مِنَّا إِلَّا بِالشَّطِطِ^(١) . وَيُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ :
 قَارِبَ عَدُوِّكَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ : لِتَنَالَ حَاجَتَكَ . وَلَا تُقَارِبُهُ
 كُلَّ الْمُقَارَبَةِ : فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ ، وَيُضْعِفَ جُنْدَكَ ، وَتَذَلَّ
 نَفْسُكَ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَشَبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ : إِذَا

أَمَلَتْهَا قَلِيلًا زَادَ ظِلُّهَا ، وَإِذَا جَاوَزَتْ بِهَا الْحَدَّ فِي إِمَالَتِهَا نَقَصَ
الظِّلُّ . وَلَيْسَ عَدُوْنَا رَاضِيًا مِنَّا بِالذُّونِ فِي الْمُقَارَبَةِ . فَالرَّأْيُ
لَنَا وَلَكَ الْمُحَارَبَةُ .

قَالَ الْمَلِكُ لِلْخَامِسِ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ وَمَاذَا تَرَى : الْقِتَالَ
أَمْ الصُّلْحَ أَمْ الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ ؟ قَالَ : أَمَّا الْقِتَالُ فَلَا سَبِيلَ
لِلْمَرْءِ إِلَى قِتَالٍ مَن لَا يَقْوَى عَلَيْهِ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُ مَن لَا يَعْرِفُ
نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ ، وَقَاتَلَ مَن لَا يَقْوَى عَلَيْهِ ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى
حَتْفِهَا ، مَعَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَسْتَضَعِرُ عَدُوًّا : فَإِنَّ مَن اسْتَضَعَرَ
عَدُوَّهُ اغْتَرَبَ بِهِ ، وَمَن اغْتَرَبَ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ . وَأَنَا لِلْبُومِ شَدِيدُ
الْهَيْبَةِ ، وَإِنْ أَضْرَبَنَ عَنِ قِتَالِنَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ ،
فَإِنَّ الْحَازِمَ لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِنْ كَانَ بَعِيدًا
لَمْ يَأْمَنُ سَطَوَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَسِبًا^(١) لَمْ يَأْمَنُ وَثْبَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ وَحِيدًا
لَمْ يَأْمَنُ مَكْرَهُ . وَأَحْزَمُ الْأَقْوَامِ وَأَكْيَسُهُمْ مَن كَرِهَ الْقِتَالَ لِأَجْلِ
النَّفَقَةِ فِيهِ : فَإِنَّ مَا دُونَ الْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْقَوْلِ

وَالْعَمَلِ ، وَالْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْإِنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ . فَلَا
يَكُونَنَّ الْقِتَالُ لِلْبُومِ مِنْ رَأْيِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ
مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِهِ ^(١) . فَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ مُحَصَّنًا
لِلْأَسْرَارِ ، مُتَخَيِّرًا لِلْوُزَرَاءِ ، مَهِيَّبًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، بَعِيدًا مِنْ
أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ ، كَانَ خَلِيقًا إِلَّا يُسَلَّبَ صَحِيحَ مَا أُوتِيَ مِنْ
الْخَيْرِ . وَأَنْتَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كَذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرِ
جَوَابِكَ مِنِّي عَنْهُ ، فِي بَعْضِهِ عَلَانِيَةً ، وَفِي بَعْضِهِ سِرًّا
وَلِلْأَسْرَارِ مَنَازِلُ : مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرَّهْطُ ^(٢) ، وَمِنْهَا مَا يُسْتَعَانُ
فِيهِ بِالْقَوْمِ ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرَّجُلَانِ . وَلَسْتُ أَرَى لِهَذَا
السَّرِّ عَلَى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشَارَكَ فِيهِ إِلَّا أَرْبَعُ آذَانٍ وَلِسَانَانِ .
فَنَهَضَ الْمَلِكُ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَخَلَا بِهِ ، فَاسْتَشَارَهُ ، فَكَانَ أَوَّلَ
مَا سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ أَنَّهُ قَالَ : هَلْ تَعْلَمُ ابْتِدَاءَ عَدَاوَةِ مَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْبُومِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : كَلِمَةً تَكَلَّمَ بِهَا غُرَابٌ . قَالَ
الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) عرضها للهلكة . (٢) قوم الرجل وقيلته .

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْكَرَّاكِيِّ لَمْ يَكُنْ لَهَا
 مَلِكٌ ، فَأَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى أَنْ يُمْلِكُنَ عَلَيْهِنَّ مَلِكَ الْيَوْمِ ،
 فَبَيْنَمَا هِيَ فِي جَمْعِهَا إِذْ وَقَعَ لَهَا غُرَابٌ ، فَقَالَتْ : لَوْ جَاءَنَا
 هَذَا الْغُرَابُ لَأَسْتَشِرَّنَاهُ فِي أَمْرِنَا ، فَلَمْ يَلْبَثَنَّ دُونَ أَنْ جَاءَهُنَّ
 الْغُرَابُ . فَاسْتَشَرَّنَهُ ، فَقَالَ : لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ مِنَ الْأَقَالِيمِ ،
 وَفُقِدَ الطَّاوُسُ وَالْبَطُّ وَالنَّعَامُ وَالْحَمَامُ مِنَ الْعَالَمِ لَمَا اضْطُرَرْتُ
 إِلَى أَنْ تُمْلِكُنَ عَلَيْكِنَّ الْيَوْمَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنَظَرًا ،
 وَأَسْوَأُهَا خُلُقًا ، وَأَقْلَبُهَا عَقْلًا ، وَأَشَدَّهَا غَضَبًا ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ
 كُلِّ رَحْمَةٍ ، مَعَ عَمَاهَا وَمَا بِيهَا مِنَ الْعِشَاءِ بِالنَّهَارِ ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ
 وَأَقْبَحُ أُمُورِهَا سَفَهُهَا وَسُوءُ أَخْلَاقِهَا ، إِلَّا أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُمْلِكَنَّهَا
 وَتَكُنَّ أَنْتِ تَدَبِّرِينَ الْأُمُورَ دُونَهَا بِرَأْيِكُنَّ وَعُقُولِكُنَّ ، كَمَا فَعَلْتِ
 الْأَرْنبُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ الْقَمَرَ مَلِكُهَا ، ثُمَّ عَمِلَتْ بِرَأْيِهَا . قَالَ
 الطَّيْرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْضًا مِنْ أَرْضِي الْفِيلَةِ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا
 السُّنُونُ ، وَأَجْدَبَتْ ، وَقَلَّ مَاوُهَا ، وَغَارَتْ عُيُونُهَا ، وَذَوَى
 نَبْتُهَا ، وَيَبِسَ شَجَرُهَا ، فَأَصَابَ الْفِيلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ : فَشَكَّوْنَ
 ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِنَّ ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ رُسُلَهُ وَرُؤَادَهُ فِي طَلَبِ
 الْمَاءِ ، فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ . فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ ، فَأَخْبَرَهُ
 إِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانٍ كَذَا عَيْنًا يُقَالُ لَهَا عَيْنُ الْقَمَرِ ، كَثِيرَةُ
 الْمَاءِ . فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الْفِيلَةِ بِأَصْحَابِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَيْنِ لِيَشْرَبَ مِنْهَا
 هُوَ وَفِيلَتُهُ . وَكَانَتِ الْعَيْنُ فِي أَرْضٍ لِلْأَرَانِبِ ، فَوَطِئْنَ
 الْأَرَانِبُ فِي أَجْحَارِهِنَّ ، فَأَهْلَكْنَ مِنْهُنَّ كَثِيرًا . فَاجْتَمَعَتِ
 الْأَرَانِبُ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْفِيلَةِ
 فَقَالَ : لِيُخْضِرْ مِنْكُنَّ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيَهُ . فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ
 مِنَ الْأَرَانِبِ يُقَالُ لَهَا فَيْرُوزُ . وَكَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُهَا بِحُسْنِ
 الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ ، فَقَالَتْ : إِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَبْعَثَنِي إِلَى الْفِيلَةِ
 وَيُرْسِلَ مَعِيَ أَمِينًا ، لِيرَى وَيَسْمَعَ مَا أَقُولُ ، وَيَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ .
 فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ : أَنْتَ أَمِينَةٌ ، وَنَرْضَى بِقَوْلِكَ ، فَانْطَلِقِي إِلَى

الْفِيلَةَ ، وَبَلَغِي عَنِّي مَا تُرِيدِينَ . وَاعْلَمِي أَنَّ الرَّسُولَ بِرَأْيِهِ
وَعَقْلِهِ ، وَلِينِهِ وَفَضْلِهِ ، يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ الْمُرْسِلِ . فَعَلَيْكَ بِاللِّينِ
وَالرِّفْقِ ، وَالْحِلْمِ وَالتَّائِي : فَإِنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلِينُ الصُّدُورَ
إِذَا رَفَقَ ، وَيُخَشِّنُ الصُّدُورَ إِذَا نَحَرُقَ^(١) . ثُمَّ إِنَّ الْأَرْزَبَ
انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الْفِيلَةِ ، وَكَرِهَتْ أَنْ
تَدْنُو مِنْهُمْ : مَخَافَةَ أَنْ يَطَّائِفَهَا بِأَرْجُلِهِمْ ، فَيَقْتُلْنَهَا ، وَإِنْ كُنَّ
غَيْرَ مُتَعَمِّدَاتٍ . ثُمَّ أَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، وَنَادَتْ مَلِكَ الْفِيلَةِ ،
وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ ، وَالرَّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيمَا
يُبَلِّغُ ، وَإِنْ أَغْلَظَ فِي الْقَوْلِ . قَالَ مَلِكُ الْفِيلَةِ : فَمَا الرِّسَالَةُ ؟
قَالَتْ : يَقُولُ لَكَ : إِنَّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّعْفَاءِ ،
فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ فِي شَأْنِ الْأَقْوِيَاءِ ، قِيَاسًا لَهُمْ عَلَى الضُّعْفَاءِ ، كَانَتْ
قُوَّتُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ . وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوَابِّ ،
فَغَرَّكَ ذَلِكَ ، فَعَمَدْتَ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي ، فَشَرِبْتَ
مِنْهَا ، وَكَدَّرْتَهَا . فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ : فَأَنْذِرُكَ إِلَّا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ

ذَلِكَ . وَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أَغْشَى بَصْرَكَ ، وَأَتْلَفَ نَفْسَكَ .
وإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي ، فَهَلُمَّ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ :
فَلِإِنِّي مُوَافِيكَ بِهَا . فَعَجِبَ مَلِكَ الْفِيلَةِ مِنْ قَوْلِ الْأَرْنَبِ ،
فَانْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيْرُوزِ الرَّسُولِ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا ، رَأَى
ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهَا . فَقَالَتْ لَهُ فَيْرُوزُ الرَّسُولِ : خُذْ خُرْطُومَكَ
مِنَ الْمَاءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ ، وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ . فَأَدْخَلَ الْفِيلُ
خُرْطُومَهُ فِي الْمَاءِ ، فَتَحَرَّكَ نَحِيلٌ لِلْفِيلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ .
فَقَالَ : مَا شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ ؟ أَتَرَاهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخَالِ
الْخُرْطُومِ فِي الْمَاءِ ؟ قَالَتْ فَيْرُوزُ الْأَرْنَبِ : نَعَمْ . فَسَجَدَ الْفِيلُ
لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ ، وَشَرَطَ لَأَلَّا يَعُودَ
إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ فِيلَتِهِ . قَالَ الْغُرَابُ : وَمَعَ
مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ إِنْ فِيهَا الْخُبِّ وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ ، وَشَرُّ
الْمُلُوكِ الْخَادِعُ ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانٍ مُخَادِعٍ ، وَخَدَمَهُ ، أَصَابَهُ
مَا أَصَابَ الْأَرْنَبَ وَالصِّفْرَدَ^(١) حِينَ اخْتَكَمَا إِلَى السَّنُورِ . قَالَتْ
الْكِرَاكِيُّ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْغُرَابُ : كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الصَّفَارِدَةِ ، فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ وَكْرِي ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُوَاصَلَتِي ، ثُمَّ فَقَدْتُهُ ، فَلَمْ أَعْلَمْ أَيْنَ غَابَ ، وَطَلَّاتُ غَيْبَتُهُ عَنِّي . فَخَافْتُ أَنْزُبَ إِلَى مَكَانِ الصِّفْرِدِ . فَسَكَنْتُهُ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَخَاصِمَ الْأَرْنبَ ، فَلَبِثْتُ فِيهِ زَمَانًا . ثُمَّ إِنَّ الصِّفْرِدَ عَادَ بَعْدَ زَمَانٍ ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ ، فَوَجَدَ فِيهِ الْأَرْنبَ . فَقَالَ لَهَا : هَذَا الْمَسْكَنُ لِي ، فَانْتَقِلِي عَنْهُ . قَالَتِ الْأَرْنبُ : الْمَسْكَنُ لِي ، وَتَحْتَ يَدِي ، وَأَنْتَ مُدْعٍ لَهُ . فَإِنْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فَاسْتَعِدَّ بِإثْبَاتِهِ عَلَيَّ . قَالَ الصِّفْرِدُ : الْقَاضِي مِنَّا قَرِيبٌ : فَهَلُمَّيْنِي إِلَيْهِ . قَالَتِ الْأَرْنبُ : وَمَنِ الْقَاضِي ؟ قَالَ الصِّفْرِدُ : إِنَّ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ سَنُورًا مُتَعَبِّدًا ، يَصُومُ النَّهَارَ ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ ، وَلَا يُؤْذِي دَابَّةً ، وَلَا يُهْرِيقُ دَمًا ، عَيْشُهُ مِنَ الْحَشِيشِ وَمِمَّا يَقْدِفُهُ إِلَيْهِ الْبَحْرُ . فَإِنْ أَحْبَبْتَ تَحَاكُمَنَا إِلَيْهِ ، وَرَضِينَا بِهِ . قَالَتِ الْأَرْنبُ : مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا وَصَفْتَ ! فَانْطَلَقَا إِلَيْهِ ، فَتَبِعَتْهُمَا لِأَنْظُرَ إِلَى حُكُومَةِ الصَّوَامِ الْقَوَامِ . ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا بَصُرَا السَّنُورَ بِالْأَرْنبِ وَالصِّفْرِدِ

مُقْبِلِينَ نَحْوَهُ ، انْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي ، وَأَظْهَرَ الْخُشُوعَ
وَالْتَّنَسُّكَ . فَعَجِبَا لِمَا رَأَيَا مِنْ حَالِهِ ، وَدَنَوَا مِنْهُ هَائِنِينَ لَهُ ،
وَسَلَّمَا عَلَيْهِ ، وَسَأَلَاهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا . فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقْضَا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَفَعَلَا . فَقَالَ لَهُمَا : قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ، وَثَقُلَتْ
أُذُنَايَ : فَادْنُوا مِنِّي ، فَأَسْمِعَانِي مَا تَقُولَانِ . فَدَنَوَا مِنْهُ ، وَأَعَادَا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، وَسَأَلَاهُ الْحُكْمَ . فَقَالَ قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا ، وَأَنَا
مُبْتَدِئُكُمَا بِالنَّصِيحَةِ قَبْلَ الْحُكُومَةِ بَيْنَكُمَا : فَإِنَّا أَمْرُكُمَا بِتَقْوَى
اللَّهِ وَأَلَّا تَطْلُبَا إِلَّا الْحَقَّ : فَإِنَّ طَالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ ،
وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ ، وَطَالِبَ الْبَاطِلِ مَخْصُومٌ ، وَإِنْ قُضِيَ لَهُ .
وَلَيْسَ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ ، لَا مَالٌ وَلَا صَدِيقٌ
سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ ، فَذُو الْعَقْلِ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ
سَعْيُهُ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَدًا ، وَأَنْ يُمَقِّتَ
بِسَعْيِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا : فَإِنَّ مَنَزِلَةَ الْمَالِ عِنْدَ
الْعَاقِلِ بِمَنَزِلَةِ الْمَدَرِ^(١) ، وَمَنَزِلَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيمَا يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ
وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنَزِلَةِ نَفْسِهِ . ثُمَّ إِنَّ السُّنُورَ لَمْ يَزَلْ يَقْضِ

(١) واحدة مدرة وهو قطع العطين اليابس والحجارة .

عَلَيْهِمَا مِنْ جِنْسٍ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ ، حَتَّى أَنْسَا إِلَيْهِ ، وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ ،
وَدَنُوا مِنْهُ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا .

قَالَ الْغُرَابُ : ثُمَّ إِنَّ الْيَوْمَ تَجْمَعُ — مَعَ مَا وَصَفْتُ لَكُنَّ
مِنَ الشُّومِ — سَائِرَ الْعُيُوبِ : فَلَا يَكُونَنَّ تَمْلِيكَ الْيَوْمِ مِنْ
رَأْيِكُنَّ . فَلَمَّا سَمِعَ الْكَرَاكِي ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْغُرَابِ أَضْرَبَنَّ
عَنْ تَمْلِيكَ الْيَوْمِ . وَكَانَ هُنَاكَ يَوْمٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا ،
فَقَالَ لِلْغُرَابِ : لَقَدْ وَتَرْتَنِي أَعْظَمَ التِّرَةِ ، وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي
إِلَيْكَ سُوءٌ أَوْجَبَ هَذَا . وَبَعْدُ فَاَعْلَمْ أَنَّ الْفَأْسَ يَقْطَعُ بِهِ الشَّجَرُ ،
فَيَعُودُ يَنْبُتُ ، وَالسَّيْفُ يَقْطَعُ اللَّحْمَ ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْدَمِلُ ، وَاللِّسَانَ
لَا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ وَلَا تُوسِنِي ^(١) مَقَاطِعُهُ . وَالنَّضْلَ مِنَ السَّهْمِ
يَغِيبُ فِي اللَّحْمِ ، ثُمَّ يُنْزَعُ فَيُخْرِجُ ، وَأَشْبَاهُ النَّضْلِ مِنَ الْكَلَامِ
إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ تُنْزَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرِجْ . وَلِكُلِّ حَرِيقٍ
مُطْفِئٌ : فَلِلنَّارِ الْمَاءُ ، وَلِلسَّمِّ الدَّوَاءُ ، وَلِلْحَزَنِ الصَّبْرُ ، وَنَارُ
الْحَقْدِ لَا تَحْبُو أَبَدًا . وَقَدْ غَرَسْتُمْ ، مَعَاشِرَ الْغُرَبَانِ ، بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ .

(١) أصبغى بأذى عظيم : جعل لك في قلبي عداوة لا تمحى وحقدا لا يزول . (٢) تداوى .

فَلَمَّا قَضَى الْيَوْمَ مَقَالَتَهُ ، وَلَّى مُغْضِبًا ، فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْيَوْمِ
بِمَا جَرَى وَبِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْغُرَابِ ؛ ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ تَدِمَ
عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ نَحَرْتُ فِي قَوْلِي الَّذِي
جَلَبْتُ بِهِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ عَلَى نَفْسِي وَقَوْمِي ! وَلَيْتَنِي لَمْ أَخْبِرِ
الْكِرَاكِي بِهَذِهِ الْحَالِ ! وَلَا أَغْلَبْتُهَا بِهَذَا الْأَمْرِ ! وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ
قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ ، وَعَلِمَ أَضْعَافَ مَا عَلِمْتُ ، فَمَنْعَهَا
مِنَ الْكَلَامِ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُ اتِّقَاءَ مَا لَمْ آتِنِي ، وَالنَّظَرَ فِيمَا
لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ مِنْ حِذَارِ الْعَوَاقِبِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ أَفْظَعَ
كَلَامٍ ، يَلْتَقِي مِنْهُ سَامِعُهُ وَقَائِلُهُ الْمَكْرُوهَ مِمَّا يُورِثُ الْحِقْدَ
وَالضَّغِينَةَ ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَشْبَاهِ هَذَا الْكَلَامِ أَنْ تُسَمَّى كَلَامًا ،
وَلَكِنْ سِهَامًا . وَالْعَاقِلُ ، وَإِنْ كَانَ وَائِقًا بِقُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ ،
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلِبَ الْعَدَاوَةَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّكَالًا
عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ ؛ كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ التَّرْيَاقُ^(١)
لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ السَّمَّ اتِّكَالًا عَلَى مَا عِنْدَهُ . وَصَاحِبُ

حُسْنِ الْعَمَلِ ، وَإِنْ قَصَّرَ بِهِ الْقَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ ، كَانَ فَضْلُهُ
 بَيْنًا وَاضِحًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْإِخْتِبَارِ ، وَصَاحِبُ حُسْنِ الْقَوْلِ ،
 وَإِنْ أُعْجِبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْنُ صِفَتِهِ لِلْأُمُورِ ، لَمْ يُنْجِزْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ .
 وَأَنَا صَاحِبُ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عَاقِبَةَ لَهُ مُخْمُودَةٌ . أَلَيْسَ مِنْ
 سَفَهِي اجْتِرَائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ لَا اسْتِشِيرُ فِيهِ
 أَحَدًا ، وَلَمْ أَعْمَلْ فِيهِ رَأْيًا ؟ وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرِ النَّصَحَاءَ الْأَوْلِيَاءَ ،
 وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَرُّارِ النَّظَرِ وَالرَّوْيَةِ ، لَمْ يَغْتَبِطْ بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ .
 فَمَا كَانَ أَغْنَانِي عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هَذَا ، وَمَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ الْهَمِّ !
 وَعَاتَبَ الْغُرَابُ نَفْسَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ وَذَهَبَ . فَهَذَا
 مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْ ابْتِدَاءِ الْعِدَاوَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ .

وَأَمَّا الْقِتَالُ فَقَدْ عَلِمْتُ رَأْيِي فِيهِ ، وَكَرَاهَتِي لَهُ ، وَلَكِنْ عِنْدِي
 مِنَ الرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ غَيْرَ الْقِتَالِ مَا يَكُونُ فِيهِ الْفَرْجُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 تَعَالَى : فَإِنَّهُ رَبُّ قَوْمٍ قَدْ اخْتَالُوا بِأَرَائِهِمْ حَتَّى ظَفَرُوا بِمَا
 أَرَادُوا . وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ ظَفَرُوا بِالنَّاسِكِ ،
 وَأَخَذُوا عَرِيضَهُ .^(١) قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) اعرجى من العز : ما أتى عليه سنة .

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا اشْتَرَى عَرِيضًا ضَخْمًا لِيَجْعَلَهُ
 قُرْبَانًا ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ يَقُودُهُ . فَبَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ الْمَكْرَةِ ، فَأَتَمَرُوا
 بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنَ النَّاسِكِ . فَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُ :
 أَيُّهَا النَّاسِكُ ، مَا هَذَا الْكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ ؟ ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الْآخَرُ
 فَقَالَ لَصَاحِبِهِ : مَا هَذَا نَاسِكٌ ، لِأَنَّ النَّاسِكَ لَا يَقُودُ كَلْبًا .
 فَلَمْ يَزَالُوا مَعَ النَّاسِكِ عَلَى هَذَا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشْكُ أَنَّ الَّذِي
 يَقُودُهُ كَلْبٌ ، وَأَنَّ الَّذِي بَاعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَ عَيْنَهُ ، فَأَطْلَقَهُ مِنْ يَدِهِ ،
 فَأَخَذَهُ الْجَمَاعَةُ الْمُخْتَالُونَ وَمَضَوْا بِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا
 الْمَثَلَ لِمَا أَرَجُو أَنْ نُصِيبَ مِنْ حَاجَتِنَا بِالرَّفِيقِ وَالْحِيلَةِ . وَإِذَا
 أُرِيدُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَنْقُرَنِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَيَنْتِفَ رِيشِي
 وَذَنَبِي ، ثُمَّ يَطْرَحَنِي فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَيَرْتَحِلَ الْمَلِكُ هُوَ
 وَجُنُودُهُ إِلَى مَكَانٍ كَذَا . فَأَرْجُو أَنِّي أَصِيرُ وَأُطْلِعُ عَلَى أَخَوَاهُمِ
 وَمَوَاضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ ، فَأُخَادِعُهُمْ وَأَتِي إِلَيْكُمْ لِنَهْجِ
 عَلَيْهِمْ ، وَنَنَالَ مِنْهُمْ غَرَضَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ الْمَلِكُ : أَتَطِيبُ نَفْسُكَ لِذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَكَيْفَ
 لَا تَطِيبُ نَفْسِي لِذَلِكَ وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ ؟
 فَفَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغُرَابِ مَا ذَكَرَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ . بِحَعَلِ الْغُرَابِ
 يَتْنُ وَيَهْمِسُ حَتَّى رَأَتْهُ الْبُومُ وَسَمِعَتْهُ يَتْنُ ، فَأَخْبَرَتْ مَلِكَهُنَّ
 بِذَلِكَ ، فَقَصَدَتْ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الْغُرَبَانِ . فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ بَوْمًا
 أَنْ يَسْأَلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَأَيْنَ الْغُرَبَانُ ؟ فَقَالَ : أَمَّا اسْمِي
 فَقُلَانٌ ، وَأَمَّا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ فَلِيَانِي أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حَالِي حَالُ
 مَنْ لَا يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ . فَقِيلَ لِمَلِكِ الْبُومِ : هَذَا وَزِيرُ مَلِكِ الْغُرَبَانِ
 وَصَاحِبُ رَأْيِهِ ، فَسَأَلَهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعَ ؟ فَسُئِلَ
 الْغُرَابُ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ : إِنَّ مَلِكَنَا اسْتَبْشَارَ جَمَاعَتَنَا فَيَكُنْ :
 وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِحَضْرٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْغُرَبَانُ ، مَا تَرَوْنَ
 فِي ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ الْبُومِ : لِأَنَّهُنَّ
 أَشَدُّ بَطْشًا ، وَأَحَدُ قَلْبًا مِنَّا . وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ ،
 ثُمَّ نَبْذُلَ الْفِدْيَةَ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ قَبِلَتْ الْبُومُ ذَلِكَ مِنَّا ، وَإِلَّا

هَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ . وَإِذَا كَانَ الْقِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ كَانَ
 خَيْرًا لَّهْنٍ وَشَرًّا لَنَا ، فَالْصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومَةِ . وَأَمَرْتُهُنَّ
 بِالرُّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ ، وَضَرَبْتُ لَهْنُ الْأَمْثَالِ فِي ذَلِكَ ، وَقُلْتُ
 لَهْنُ : إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لَا يَرُدُّ بِأَسُهُ وَغَضَبُهُ مِثْلُ الْخُضُوعِ لَهُ :
 أَلَا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عَاصِفِ الرِّيحِ لِلْيَنَةِ وَمِثْلِهِ
 مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ . فَعَصَيْتَنِي فِي ذَلِكَ ، وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يُرَدْنَ
 الْقِتَالَ وَاتَّهَمَنِي فِيمَا قُلْتُ ، وَقُلْنَ : إِنَّكَ قَدْ مَالَأْتَ الْيَوْمَ
 عَلَيْنَا ، وَرَدَدْتَ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي ، وَعَذَّبَانِي بِهَذَا الْعَذَابِ ، وَتَرَكْتَنِي
 الْمَلِكُ وَجُنُودَهُ وَارْتَحَلَ . وَلَا عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ :
 فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكَ الْيَوْمِ مَقَالَةَ الْغُرَابِ قَالَ لِبَعْضِ وَزَرَانِهِ :
 مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ ؟ وَمَا تَرَى فِيهِ ؟ قَالَ : مَا أَرَى إِلَّا الْمُعَاجِلَةَ
 لَهُ بِالْقَتْلِ : فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ عُدَدِ الْغُرَبَانِ ، وَفِي قَتْلِهِ لَنَا رَاحَةٌ
 مِنْ مَكْرِهِ ، وَفَقْدُهُ عَلَى الْغُرَبَانِ شَدِيدٌ . وَيُقَالُ : مَنْ ظَفَرَ
 بِالسَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا يَنْجَحُ الْعَمَلُ ، ثُمَّ لَا يُعَاجِلُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ ،

فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ . وَمَنْ طَلَبَ الْأَمْرَ الْحَسِيمَ ، فَأَمَكَّنَهُ ذَلِكَ فَأَغْفَلَهُ .
 فَاتَهُ الْأَمْرُ ؛ وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا تَعُودَ لَهُ الْفُرْصَةُ ثَانِيَةً . وَمَنْ وَجَدَ
 عَدُوَّهُ ضَعِيفًا وَلَمْ يُنْجِزْ قَتْلَهُ ، نَدِمَ إِذَا اسْتَقْوَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ .
 قَالَ الْمَلِكُ لِرَازِي آخَرٍ : مَا تَرَى أَنْتَ فِي هَذَا الْغُرَابِ ؟ قَالَ :
 أَرَى إِلَّا تَقْتُلَهُ : فَإِنَّ الْعَدُوَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَا نَاصِرَ لَهُ أَهْلٌ لِأَنَّ
 يُسْتَبَقَ وَيُرْحَمَ وَيُصْفَحَ عَنْهُ ، لَا سِيَّيَا الْمُسْتَجِيرُ الْخَائِفُ :
 فَإِنَّهُ أَهْلٌ لِأَنَّ يُؤْمَنَ .

قَالَ مَلِكُ الْيَوْمِ لِرَازِي آخَرٍ مِنْ وَزَرَائِهِ : مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ ؟
 قَالَ : أَرَى أَنَّ تَسْتَبْقِيَهُ وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ : فَإِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ .
 وَالْعَاقِلُ يَرَى مُعَادَاةَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بَعْضًا ظَفَرًا حَسَنًا ؛ وَيَرَى
 اشْتِغَالَ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ بِبَعْضِ خَلَاصًا لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَنَجَاةَ
 كُنْجَاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللَّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِينَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ .
 قَالَ الْمَلِكُ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْوَزِيرُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا أَصَابَ مِنْ رَجُلٍ بَقَرَةً حَلُوبًا ،
 فَأَنْطَلَقَ بِهَا يَقُودُهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَعَرَضَ لَهُ لِيَصُّ أَرَادَ سِرْقَتَهَا ،

وَاتَّبَعَهُ شَيْطَانٌ يُرِيدُ اخْتِطَافَهُ . فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلصَّ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا اللَّصُّ ، أُرِيدُ أَنْ أَسْرِقَ هَذِهِ الْبَقْرَةَ مِنَ النَّاسِكِ إِذَا نَامَ . فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ أُرِيدُ اخْتِطَافَهُ إِذَا نَامَ وَأَذْهَبُ بِهِ . فَأَنْتَهَيَا عَلَى هَذَا إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ ، وَدَخَلَ خَلْفَهُ ، وَأَدْخَلَ الْبَقْرَةَ فَرَبَطَهَا فِي زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ ، وَتَعَشَّى وَنَامَ . فَأَقْبَلَ اللَّصُّ وَالشَّيْطَانُ يَأْتُمِرَانِ فِيهِ ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ يَبْدَأُ بِسُغْلِهِ أَوَّلًا ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلصَّ : إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ الْبَقْرَةِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقِظَ وَصَاحَ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ : فَلَا أَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ . فَأَنْظِرْنِي رَيْثَمَا أَخْذُهُ ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ . فَأَشْفَقَ اللَّصُّ إِنْ بَدَأَ الشَّيْطَانُ بِاخْتِطَافِهِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقِظَ ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَخْذِ الْبَقْرَةِ ، فَقَالَ : لَا ، بَلْ أَنْظِرْنِي أَنْتَ حَتَّى أَخْذَ الْبَقْرَةَ ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ . فَلَمْ يَزَالَا فِي الْمُجَادَلَةِ هَكَذَا ، حَتَّى نَادَى اللَّصُّ : أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ : فَهَذَا الشَّيْطَانُ يُرِيدُ اخْتِطَافَكَ ، وَنَادَى الشَّيْطَانُ : أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ : فَهَذَا اللَّصُّ يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ بِقَرَّتِكَ . فَأَنْتَبَهَ النَّاسِكُ وَجِيرَانُهُ بِأَصْوَاتِهِمَا ،

وَهَرَبَ الْحَبِيثَانِ . قَالَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِ
الْغُرَابِ : أَظُنُّ أَنَّ الْغُرَابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ ، وَوَقَعَ كَلَامُهُ فِي نَفْسِ
الْغَيْبِيِّ مِنْكُنَّ مَوْقِعَهُ ، فَتَرَدَّدْنَا أَنْ تَضَعَنَّ الرَّأْيَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .
فَمَهْلًا مَهْلًا أَيُّهَا الْمَلِكُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْمَلِكُ
إِلَى قَوْلِهِ وَأَمَرَ بِالْغُرَابِ أَنْ يُنْحَلَ إِلَى مَنَازِلِ الْبُيُوتِ ، وَيُكْرَمَ
وَيُسْتَوْصَى بِهِ خَيْرًا

ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ قَالَ لِلْمَلِكِ يَوْمًا ، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْبُيُوتِ ،
وَفِيهِنَّ الْوَزِيرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَدْ عَلِمْتَ مَا جَرَى
عَلَيَّ مِنَ الْغُرَبَانِ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَرِيحُ قَلْبِي دُونَ أَخَذِي بِشَأْرِي
مِنْهُنَّ ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذَلِكَ ، فَإِذَا بِي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا
رُمْتُ : لِأَنِّي غُرَابٌ . وَقَدْ رَوَى عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا :
مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يَحْرِقَهَا ، فَقَدْ قَرَّبَ لِلَّهِ أَكْثَرَ الْقُرْبَانِ .
لَا يَدْعُو عِنْدَ ذَلِكَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ ^(١) . فَإِنْ رَأَى الْمَلِكُ
أَنْ يَأْمُرَنِي فَأَحْرِقَ نَفْسِي ، وَأَدْعُو رَبِّي أَنْ يُحَوِّلَنِي يَوْمًا ، فَأَكُونَ

(١) هذا في اعتقاد الهندوس الذين لم يستضيئوا بنور الإسلام .

أَشَدَّ عَدَاوَةً وَأَقْوَى بَأْسًا عَلَى الْغُرَبَانِ ، لَعَلِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُنَّ ! قَالَ
الْوَزِيرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ : مَا أَشْبَهَكَ فِي خَيْرٍ مَا تُظْهَرُ وَشَرٍّ مَا
تُخْفِي إِلَّا بِالنَّخْمَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعِيمِ وَالرَّيْحِ الْمُنَقَّعِ فِيهَا السَّمُّ . أَرَأَيْتَ
لَوْ أَحْرَقْنَا جِسْمَكَ بِالنَّارِ كَانَ جَوْهَرُكَ وَطِبَاعُكَ مُتَغَيِّرَةً ! أَلَيْسَتْ
أَخْلَاقُكَ تَدُورُ مَعَكَ حَيْثُمَا دُرْتَ ، وَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْلِكَ
وَطَوِيلَتِكَ ؟ كَالْفَأْرَةِ الَّتِي خَيْرَتْ فِي الْأَزْوَاجِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالرَّيْحِ
وَالسَّحَابِ وَالْجَبَلِ فَلَمْ يَقَعْ اخْتِيَارُهَا إِلَّا عَلَى الْجُرَذِ . قِيلَ لَهُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ نَاسِكٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ
يَوْمٍ جَالِسٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ إِذْ مَرَّتْ بِهِ حَدَاةٌ فِي رِجْلِهَا
دِرْصٌ فَارَةٌ ^(١) . فَوَقَعَتْ مِنْهَا عِنْدَ النَّاسِكِ ، وَادْرَكَتْهُ لَهَا رَحْمَةٌ ،
فَأَخَذَهَا وَلَفَّهَا فِي وَرْقَةٍ ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ خَافَ أَنْ
تَسُقَى عَلَى أَهْلِهِ تَرْبِيَّتُهَا ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا جَارِيَةً : فَتَحَوَّلَتْ
جَارِيَةً حَسَنَاءً . فَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ لَهَا : هَذِهِ ابْنَتِي ،

(١) ولد الفأرة .

فَاضْنَعِي مَعَهَا صَنِيعَكَ بِوَلَدِي . فَلَمَّا كَبُرَتْ قَالَ لَهَا النَّاسِكُ :
يَا بُنَيَّةُ اخْتَارِي مَنْ أَحْبَبْتَ حَتَّى أَزُوجَكَ بِهِ . فَقَالَتْ ، أَمَّا إِذَا
خَيَّرْتَنِي فَإِنِّي اخْتَارُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ . فَقَالَ النَّاسِكُ
لَعَلَّكَ تُرِيدِينَ الشَّمْسَ ! ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الشَّمْسِ فَقَالَ : أَيُّهَا
الْخَلْقُ الْعَظِيمُ ، لِي جَارِيَةٌ ، وَقَدْ طَلَبْتُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى
الْأَشْيَاءِ ، فَهَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجُهَا ؟ فَقَالَتِ الشَّمْسُ : أَنَا أَدُلُّكَ
عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي : السَّحَابُ الَّذِي يُغَطِّيَنِي ، وَيُرْدَحُ
شُعَاعِي ، وَيَكْسِفُ أَشْعَةَ أَنْوَارِي . فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّحَابِ
فَقَالَ لَهُ مَا قَالِ لِلشَّمْسِ ، فَقَالَ السَّحَابُ : وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ
هُوَ أَقْوَى مِنِّي : فَادْهَبْ إِلَى الرِّيحِ الَّتِي تُقْبِلُ بِي وَتَذْبِرُ ، وَتَذْهَبُ
بِي شَرْقًا وَغَرْبًا . فَخَاءَ النَّاسِكُ إِلَى الرِّيحِ فَقَالَ لَهَا كَقَوْلِ
لِلسَّحَابِ . فَقَالَتْ : وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي ، وَهُوَ
الْجَبَلُ الَّذِي لَا أَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيكِهِ . فَمَضَى إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ لَهُ
الْقَوْلَ الْمَذْكُورَ . فَأَجَابَهُ الْجَبَلُ وَقَالَ لَهُ : أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ
أَقْوَى مِنِّي : الْجُرْدُ الَّذِي لَا أُسْتَطِيعُ الْإِمْتِنَاعَ مِنْهُ إِذَا ثَقَبَنِي .

وَاتَّخَذَنِي مَسْكًا . فَانْطَلَقَ النَّاسِكُ إِلَى الْجُرْدِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ
 أَنْتَ مُتَزَوِّجٌ هَذِهِ الْجَارِيَّةُ ؟ فَقَالَ : وَكَيْفَ أَتَزَوَّجُهَا وَبُحْرَى
 ضَيْقٌ ؟ وَإِنَّمَا يَتَزَوَّجُ الْجُرْدُ الْفَأْرَةَ . فَدَعَا النَّاسِكُ رَبَّهُ أَنْ
 يُحَوِّلَهَا فَأَرَةً كَمَا كَانَتْ وَذَلِكَ بِرِضَا الْجَارِيَّةِ ؛ فَأَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى
 عُنْصُرِهَا الْأَوَّلِ فَانْطَلَقَتْ مَعَ الْجُرْدِ . فَهَذَا مَثَلُكَ : أَيُّهَا الْمُخَادِعُ .
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ مَلِكُ الْيَوْمِ إِلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَرَفَقَ بِالْغُرَابِ ، وَلَمْ
 يَزِدْ لَهُ إِلَّا إِكْرَامًا ، حَتَّى إِذَا طَابَ عَيْشُهُ ، وَنَبَتَ رِيشُهُ ،
 وَاطَّلَعَ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ ، رَاغَ رَوْغَةً . فَأَتَى أَصْحَابَهُ
 بِمَا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِمَّا كُنْتُ
 أُرِيدُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ ، قَالَ لَهُ : أَنَا وَالْجُنْدُ
 تَحْتَ أَمْرِكَ ، فَأَحْتَكِمْ كَيْفَ شِئْتَ .

قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ الْيَوْمَ بِمَكَانٍ كَذَا ، فِي جَبَلٍ كَثِيرِ الْخَطَبِ ،
 وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَطِيعٌ مِنَ الْغَنَمِ ، مَعَ رَجُلٍ رَاغٍ ؛ وَنَحْنُ
 مُصِيبُونَ هُنَاكَ نَارًا ، وَنُلْقِيهَا فِي أَنْقَابِ^(١) الْيَوْمِ ، وَنَقْدِفُ عَلَيْهَا

(١) جمع نقب أو نقب بمعنى الثقب أو الطريق ، والمراد بها مساكن اليوم .

مِنْ يَابِسِ الْحَطَبِ ، وَنَتَرَاوَحُ عَلَيْهَا ضَرْبًا بِأَجْنَحَتَيْنَا ، حَتَّى تَضْطَرَّمَ النَّارُ فِي الْحَطَبِ : فَمَنْ نَحْرَجَ مِنْهُنَّ احْتَرَقَ وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ مَاتَ بِالدُّخَانِ مَوْضِعَهُ . فَفَعَلَ الْغُرَبَانُ ذَلِكَ : فَأَهْلَكَنَ الْيَوْمَ قَاطِبَةً ، وَرَجَعْنَ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ آمِنَاتٍ .

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الْغُرَبَانِ قَالَ لِذَلِكَ الْغُرَابِ : كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى صُحْبَةِ الْيَوْمِ ، وَلَا صَبَرَ لِلْأَخْيَارِ عَلَى صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ؟ فَقَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ مَا قُلْتَهُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ لَكَذَلِكَ . وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَتَاهُ الْأَمْرُ الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ تَحْمُلِهِ الْجَائِحَةُ ^(١) عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ ، لِمَا يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ صَبْرُهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ وَكَثِيرَ الْخَيْرِ فَلَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ الْمَا ، وَلَمْ تَكْرَهُ نَفْسُهُ الْخُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ ، حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ . فَيَغْتَبِطَ بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ ، وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ . فَقَالَ الْمَلِكُ : أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ الْيَوْمِ : قَالَ الْغُرَابُ : لَمْ أَجِدْ فِيهِنَّ عَاقِلًا إِلَّا الَّذِي كَانَ يُحْشِنُ عَلَى قَتْلِي ، وَكَانَ حَرَضَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ مِرَارًا ، فَكُنَّ أَضْعَفَ شَيْءٍ

رَأْيَا ! فَلَمْ يَنْظُرَنَّ فِي أَمْرِي ، وَيَذْكُرَنَّ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مَنْزِلَةٍ
 فِي الْغُرَبَانِ ، وَأَنِّي أُعِدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ ، وَلَمْ يَخَوْفَنَّ مَكْرِي
 وَحِيلَتِي ، وَلَا قِيلَنَّ مِنَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ، وَلَا أَخْفَيْنَ دُونِي
 أَسْرَارَهُنَّ . وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ : يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحَصِّنَ أُمُورَهُ
 مِنْ أَهْلِ النَّمِيمَةِ ، وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ سِرِّهِ .
 فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا أَهْلَكَ الْيَوْمَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْبَغْيُ ، وَضَعُفُ رَأْيِ
 الْمَلِكِ ، وَمُوَافَقَتُهُ وَزَرَءِ الشُّوءِ . فَقَالَ الْغُرَابُ : صَدَقْتَ أَيُّهَا
 الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَلَمَا ظَفَرَ أَحَدٌ بِبَغْيٍ وَلَمْ يُطْعَمْ ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ
 مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا مَرِضَ . وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَرَءِ الشُّوءِ وَسَلِمَ مِنْ
 أَنْ يَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ . وَكَانَ يُقَالُ : لَا يَظْمَعَنَّ ذُو الْكِبَرِ
 فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ ، وَلَا الْخُبُّ فِي كَثَرَةِ الصَّدِيقِ ، وَلَا السَّيِّئُ
 الْأَدَبِ فِي الشَّرَفِ ، وَلَا الشَّحِيحُ فِي الْبِرِّ ، وَلَا الْحَرِيصُ
 فِي قِلَّةِ الذُّنُوبِ ، وَلَا الْمَلِكُ الْمُحْتَالُ ، الْمُتَهَاوِنُ بِالْأُمُورِ ،
 الضَّعِيفُ الْوُزَرَءِ فِي ثَبَاتِ مُلْكِهِ ، وَصَلَاحُ رَعِيَّتِهِ . قَالَ
 الْمَلِكُ : لَقَدْ اخْتَمَلْتُ مَشَقَّةً شَدِيدَةً فِي تَصْنِيعِكَ لِلْيَوْمِ ،

وَتَضَرَّعَكَ لَهْنٌ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّهُ مِنْ اِحْتِمَلٍ مَشَقَّةٍ يَرْجُو
 نَفْعَهَا ، وَنَحَى عَنْ نَفْسِهِ الْأَنْفَةَ وَالْحِمِيَّةَ ، وَوَطَّنَهَا عَلَى الصَّبْرِ
 حَمْدَ غِبٍّ رَأْيِيهِ ^(١) ، كَمَا صَبَرَ الْأَسْوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّفَادِعِ عَلَى
 ظَهْرِهِ ، وَشَبِعَ بِذَلِكَ وَعَاشَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
 قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسْوَدَ مِنَ الْحَيَاتِ كَبَرَ ، وَضَعَفَ
 بَصَرُهُ . وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ : فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعَامٍ ،
 وَأَنَّهُ انْسَابَ يَلْتَمِسُ شَيْئًا يَعِيشُ بِهِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنٍ كَثِيرَةِ
 الضَّفَادِعِ ، قَدْ كَانَ يَأْتِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَيُصِيبُ مِنْ ضَفَادِعِهَا
 رِزْقَهُ ، فَرَمَى نَفْسَهُ قَرِيبًا مِنْهُنَّ مُظْهِرًا لِلْكَابَةِ وَالْحُزْنِ . فَقَالَ لَهُ
 ضِفْدَعٌ ^(٢) : مَا لِي أَرَاكَ ، أَيُّهَا الْأَسْوَدُ ، كَثِيبًا حَزِينًا ؟ قَالَ : وَمَنْ
 أُخْرَى بِطُولِ الْحُزْنِ مِنِّي ! وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُ مَعِيشَتِي مِمَّا كُنْتُ
 أَصِيبُ مِنَ الضَّفَادِعِ ، فَابْتُلَيْتُ بِبِلَالٍ ، وَحُرِمْتُ عَلَى الضَّفَادِعِ
 مِنْ أَجْلِهِ ، حَتَّى إِنِّي إِذَا التَّقَيْتُ بِبَعْضِهَا ، لَا أَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهَا .

(١) عاقبة . (٢) بكسر أوله وثالثه أو فتحهما أو ضم الأول وفتح الثالث الواحدة بها .

فَانْطَلَقَ الضَّفَدِيعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفَادِعِ ، فَبَشَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ
الْأَسْوَدِ . فَأَتَى مَلِكُ الضَّفَادِعِ إِلَى الْأَسْوَدِ . فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ
كَانَ أَمْرُكَ ؟ قَالَ : سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي طَلَبِ ضَفَدِيعٍ . وَذَلِكَ
عِنْدَ الْمَسَاءِ ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى بَيْتِ نَاسِكٍ ، وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ
فِي الظُّلْمَةِ وَفِي الْبَيْتِ ابْنٌ لِلنَّاسِكِ ، فَأَصَبْتُ إِصْبَعَهُ ، فَظَنَنْتُ
أَنَّهَا الضَّفَدِيعُ ، فَلَدَغْتُهُ فَمَاتَ . تَخَرَّجْتُ هَارِبًا ، فَتَبِعَنِي
النَّاسِكُ فِي أَثَرِي ، وَدَعَا عَلَيَّ ، وَلَعَنَنِي . وَقَالَ : كَمَا قَتَلْتَ ابْنِي
الْبَرِيءَ ظُلْمًا وَتَعَدِّيًا ، أَذْعُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيرَ مَرْجَبًا
لِمَلِكِ الضَّفَادِعِ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ اخْذَهَا ، وَلَا أَكُلَ شَيْءٍ مِنْهَا ،
إِلَّا مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ مَلِكُهَا . فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَرْكَبَنِي ، مُقِرًّا
بِذَلِكَ ، رَاضِيًا بِهِ . فَرَغِبَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ فِي رُكُوبِ الْأَسْوَدِ ،
وَوَظَنَ أَنَّ ذَلِكَ نَحْرُ لَهُ وَشَرَفٌ ، وَرِفْعَةٌ ، فَرَكِبَهُ وَاسْتَطَابَ ذَلِكَ .
فَقَالَ لَهُ الْأَسْوَدُ ، قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنِّي مُحْرُومٌ ، فَاجْعَلْ لِي
رِزْقًا أَعِيشُ بِهِ . قَالَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ : لَعَمْرِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ
رِزْقٍ يَقُومُ بِكَ ، إِذْ كُنْتَ مَرْكَبِي . فَأَمَرَ لَهُ بِضَفَدِعَيْنِ

يُؤْخَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَيُدْفَعَانِ إِلَيْهِ . فَعَاشَ بِذَلِكَ ، وَلَمْ
يُضِرَّهُ خُضُوعُهُ لِلْعَدُوِّ وَالذَّلِيلِ ؛ بَلِ انْتَفَعَ بِذَلِكَ ، وَصَارَ لَهُ رِزْقًا
وَمَعِيشَةً . وَكَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي عَلَى مَا صَبَرْتُ عَلَيْهِ ، التِمَاسًا
لِهَذَا النَّفْعِ الْعَظِيمِ الَّذِي اجْتَمَعَ لَنَا فِيهِ الْأَمْنُ وَالظَّفَرُ ، وَهَلَاكُ
الْعَدُوِّ وَالرَّاحَةُ مِنْهُ . وَوَجَدْتُ صَرْعَةَ اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ
اسْتِئْصَالًا لِلْعَدُوِّ مِنْ صَرْعَةِ الْمُسْكَابَرَةِ : فَإِنَّ النَّارَ لَا تَزِيدُ بِحِدَّتِهَا
وَحَرَّهَا إِذَا أَصَابَتْ الشَّجَرَةَ عَلَى أَنْ تُحْرِقَ مَا فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْهَا .
وَالْمَاءُ يَبْرِدُهُ وَلِيْنِهِ يَسْتَأْصِلُ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْهَا . وَيُقَالُ
أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لَا يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا : النَّارُ وَالْمَرَضُ وَالْعَدُوُّ وَالذَّنُّ .
قَالَ الْغُرَابُ : وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَدْبِهِ وَسَعَادَةِ
جَدِّهِ . وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : إِذَا طَلَبَ اثْنَانِ أَمْرًا ظَفَرِيَهُ مِنْهُمَا
أَفْضَلُهُمَا مُرُوءَةً . فَإِنْ اعْتَدَلَا فِي الْمُرُوءَةِ ، فَأَشَدُّهُمَا عَزْمًا .
فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي الْعَزْمِ ، فَأَسْعَدُهُمَا جَدًّا . وَكَانَ يُقَالُ : مَنْ
خَارَبَ الْمَلِكََ الْحَازِمَ الْأَرِيْبَ الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لَا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ ،
وَلَا تُدْهِشُهُ الضَّرَّاءُ ، كَانَ هُوَ دَاعِي الْحَتَفِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا سِيَّمَا

إِذَا كَانَ مِثْلَكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَالِمُ بِفُرُوضِ الْأَعْمَالِ ، وَمَوَاضِعِ
 الشَّدَّةِ وَاللَّيْنِ ، وَالْغَضَبِ وَالرَّضَا ، وَالْمُعَاجَلَةِ وَالْأَنَاءَةِ ، النَّاطِرُ
 فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَغَدِهِ ، وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ . قَالَ الْمَلِكُ لِلْغُرَابِ :
 بَلْ بَرَأَيْكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيحَتِكَ وَيُمْنِ طَالِعِكَ كَانَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ
 رَأَى الرَّجُلَ الْوَاحِدَ ، الْعَاقِلَ الْحَازِمَ ، أَبْلَغُ فِي هَلَاكِ الْعَدُوِّ مِنَ
 الْجُنُودِ الْكَثِيرَةِ ، مِنْ ذَوِي النَّبَاسِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ .
 وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طَوْلَ لُبِّكَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْيَوْمِ
 تَسْمَعُ الْكَلَامَ الْغَلِيظَ ، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ ! قَالَ الْغُرَابُ :
 لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكًا بِأَدَبِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : أَصْحَبُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ ،
 بِالرَّفْقِ وَاللَّيْنِ ، وَالْمُبَالَغَةِ وَالْمَوَاتَاةِ . قَالَ الْمَلِكُ : أَصْبَحْتُ
 وَقَدْ وَجَدْتُكَ صَاحِبَ الْعَمَلِ ، وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ الْوُزَرَاءِ
 أَصْحَابَ أَقَاوِيلَ : لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
 بِكَ مِنْهُ عَظِيمَةً لَمْ نَكُنْ قَبْلَهَا نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَلَا الشَّرَابِ ،
 وَلَا النَّوْمَ وَلَا الْقَرَارَ . وَكَانَ يُقَالُ : لَا يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعَامِ
 وَالنَّوْمَ حَتَّى يَبْرَأَ ، وَلَا الرَّجُلُ الشَّرَّ الَّذِي قَدْ أَطْمَعَهُ سُلْطَانُهُ

فِي مَالٍ وَعَمَلٍ فِي يَدِهِ ، حَتَّى يُنْجِزَهُ لَهُ ، وَلَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ أَلْحَ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ ، وَهُوَ يَخَافُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً حَتَّى يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَلْبُهُ .
وَمَنْ وَضَعَ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنْ يَدَيْهِ أَرَّاحَ نَفْسَهُ . وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ ^(١) تَلَجَّ صَدْرُهُ .

قَالَ الْغُرَابُ : أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ أَنْ يُمَتِّعَكَ بِسُلْطَانِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ صَلاَحَ رَعِيَّتِكَ ، وَيُشْرِكَهُمْ فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ ! فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مُلْكِهِ قُرَّةَ عُيُونِ رَعِيَّتِهِ ، فَثَلْثُهُ مِثْلُ زَنْمَةِ الْعَنْزِ الَّتِي يَمَصُّهَا ، وَهُوَ يَحْسِبُهَا حَلْمَةَ الضَّرْعِ ، فَلَا يُصَادِفُ فِيهَا خَيْرًا . قَالَ الْمَلِكُ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ الصَّالِحُ ، كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ الْيَوْمِ وَمَلِكُهَا فِي حُرُوبِهَا ، وَفِيمَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِهَا ؟ قَالَ الْغُرَابُ : كَانَتْ سِيرَتُهُ سِيرَةَ بَطْرِ ، وَأَشْرٍ وَخِيَلَاءَ ، وَبَغْجٍ ، وَنَفَرٍ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ . وَكُلُّ أَصْحَابِهِ وَوُزَرَائِهِ شَبِيهُ بِهِ ، إِلَّا الْوَزِيرَ الَّذِي كَانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِي : فَإِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا أَرِيبًا ، فَيَلْسُوفًا حَازِمًا

عَالِمًا ، قَلَمًا يُرَى مِثْلُهُ فِي عُلُوِّ الْهَمَّةِ ، وَكَمَالِ الْعَقْلِ ، وَجَوْدَةِ
الرَّأْيِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَأَيُّ خَصْلَةٍ رَأَيْتَ مِنْهُ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَاقِلِهِ ؟
قَالَ : خَلَّتَانِ : إِحْدَاهُمَا رَأْيُهُ فِي قَتْلِي ، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيحَتَهُ ، وَإِنْ اسْتَقْلَاهَا ، وَلَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ مُكَلَّامَ
عُنْفٍ وَقَسْوَةٍ ، وَلَكِنَّهُ كَلَامٌ رَفِيقٌ وَلِينٌ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ
بِبَعْضِ عُيُوبِهِ ، وَلَا يُصْرَحُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الْأَمْثَالَ ،
وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ ، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ . فَلَا يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الْغَضَبِ
عَلَيْهِ سَبِيلًا . وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِمَلِكِهِ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي
لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ ، لَا يَظْفَرُ بِهِ مِنْ
النَّاسِ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَزْمِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ عَزِيزٌ ،
فَمَنْ ظَفَرِ بِهِ فَلْيُخْسِنْ حِفْظَهُ وَتَحْصِينَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ
فِي قِلَّةِ بَقَائِهِ بِمَنْزِلَةِ قِلَّةِ بَقَاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النَّيْلُوفَرِ ، وَهُوَ
فِي خِفَّةِ زَوَالِهِ ، وَسُرْعَةِ إِاقْبَالِهِ وَإِذْبَارِهِ كَالرَّيْحِ ، وَفِي قِلَّةِ
ثَبَاتِهِ كَاللَّيْبِ مَعَ اللَّثَامِ ، وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلَالِهِ كَحَبَابِ الْمَاءِ مِنْ
وَقْعِ الْمَطَرِ . فَهَذَا مِثْلُ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ ،
وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّدًا وَتَضَرُّعًا .

بَابُ الْقِرْدِ وَالْغَيْلِمِ^(١)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيَّاسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ،
فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ ، فَإِذَا ظَفَرَ بِهَا ،
أَضَاعَهَا . قَالَ الْفَيَّاسُوفُ : إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنَ
الِإِحْتِفَازِ بِهَا ، وَمَنْ ظَفَرَ بِحَاجَةٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ بِهَا ،
أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْغَيْلِمَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا يُقَالُ لَهُ مَاهِرٌ ، كَانَ مَلِكَ الْقِرَدَةِ ،
وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ
فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ . فَخَرَجَ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى
انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ ، فَوَجَدَ شَجَرَةً مِنْ شَجَرِ التَّيْنِ ، فَارْتَقَى إِلَيْهَا
وَجَعَلَهَا مُقَامَهُ . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ التَّيْنِ ،
إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تَيْنَةٌ فِي الْمَاءِ ، فَسَمِعَ لَهَا صَوْتًا وَإِيقَاعًا ،
فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي الْمَاءِ ، فَأَطْرَبَهُ ذَلِكَ : فَأَكْثَرَ مِنْ طَرْجِ
التَّيْنِ فِي الْمَاءِ ، وَثُمَّ غَيْلِمٌ ، كُلَّمَا وَقَعَتْ تَيْنَةٌ أَكَلَهَا . فَلَمَّا

كَثُرَ ذَلِكَ ظَنًّا أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَجْلِهِ ، فَرَغِبَ
 فِي مُصَادَقَتِهِ ، وَأَنَسَ إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَهُ ، وَأَلِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 صَاحِبَهُ . وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْغَيْلِمِ عَنْ زَوْجَتِهِ : فَخَزَعَتْ عَلَيْهِ ،
 وَشَكَّتْ ذَلِكَ إِلَى جَارَةٍ لَهَا ، وَقَالَتْ : قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ
 قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ سُوءٌ فَاغْتَالَهُ . فَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ زَوْجَكَ
 بِالسَّاحِلِ قَدْ أَلِفَ قِرْدًا وَأَلِفَهُ الْقِرْدُ : فَهُوَ مُوَالِكُهُ وَمُشَارِبُهُ ،
 وَهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكَ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكَ حَتَّى تَحْتَالِي
 لِهَلَاكِ الْقِرْدِ . قَالَتْ : وَكَيْفَ أَصْنَعُ ؟ . قَالَتْ جَارَتُهَا : إِذَا
 وَصَلَ إِلَيْكَ فَتَمَارَضِي ، فَإِذَا سَأَلَكَ عَنْ حَالِكَ فَقُولِي : إِنَّ
 الْحُكَمَاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ . ثُمَّ إِنَّ الْغَيْلِمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ
 إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الْحَالِ مَهْمُومَةً ، فَقَالَ لَهَا
 الْغَيْلِمُ : مَا لِي أَرَاكِ هَكَذَا ، فَأَجَابَتْهُ جَارَتُهَا ، وَقَالَتْ : إِنَّ
 زَوْجَتَكَ مَرِيضَةٌ مِسْكِينَةٌ . وَقَدْ وَصَفَ لَهَا الْأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ ،
 وَلَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ سِوَاهُ . قَالَ الْغَيْلِمُ : هَذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ . مِنْ أَيْنَ
 لَنَا قَلْبُ قِرْدٍ ، وَنَحْنُ فِي الْمَاءِ ؟ لَكِنْ سَأَحْتَالُ لِصَدِيقِي .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ : فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ يَا أُخِي ، مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ قَالَ لَهُ الْغَيْلَمُ : مَا حَبَسَنِي عَنْكَ إِلَّا حَيَاتِي : فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَجَازِيكَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؟ وَأُرِيدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي : فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيرَةٍ طَيِّبَةِ الْفَاكِهَةِ . فَأَرْكَبُ ظَهْرِي لِأَسْبَحَ بِكَ . فَرَغِبَ الْقِرْدُ فِي ذَلِكَ ، وَنَزَلَ فَرَكَبَ ظَهْرَ الْغَيْلَمِ ، فَسَبَحَ بِهِ ، حَتَّى إِذَا سَبَحَ بِهِ ، عَرَضَ لَهُ قُبْحُ مَا أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغَدْرِ ، فَتَكَسَّ رَأْسُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ : مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا ؟ قَالَ الْغَيْلَمُ : إِنَّمَا هُمِّي لِأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيدَةُ الْمَرَضِ ، وَذَلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَهُ مِنْ كَرَامَتِكَ وَمُلَاطَفَتِكَ . قَالَ الْقِرْدُ : إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى كَرَامَتِي يَكْفِيكَ مَوْوَنَةَ التَّكْلِيفِ . قَالَ الْغَيْلَمُ : أَجَلٌ . وَمَضَى بِالْقِرْدِ سَاعَةً ، ثُمَّ تَوَقَّفَ بِهِ ثَانِيَةً : فَسَاءَ ظَنُّ الْقِرْدِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا اخْتَبَأَسُ الْغَيْلَمَ وَإِبْطَاوَهُ إِلَّا لِأَمْرِ ! وَلَسْتُ آمِنًا أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَغَيَّرَ لِي ، وَحَالَ عَن مَوَدَّتِي ، فَأَرَادَ بِي سُوءًا : فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَخَفُّ وَأَسْرَعُ تَقَلُّبًا

مِنْ الْقَلْبِ . وَقَدْ يُقَالُ : يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ إِلَّا يَغْفُلَ عَنِ التِّمَاسِ
 مَا فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيقِهِ ، عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ ،
 وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ ، وَعِنْدَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ
 فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَبَاءُ
 إِذَا دَخَلَ قَلْبَ الصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ رِيْبَةٌ فَلْيَأْخُذْ بِالْحَزْمِ
 فِي التَّحْفِظِ مِنْهُ ، وَلْيَتَفَقَّدْ ذَلِكَ فِي لَحْظَةٍ وَحَالَاتِهِ . فَإِنْ كَانَ
 مَا يَظُنُّ حَقًّا ظَفَرَ بِالسَّلَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا ظَفَرَ بِالْحَزْمِ ، وَلَمْ
 يَضُرَّهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : مَا الَّذِي يَجْبِسُكَ ؟ وَمَالِي أَرَاكَ
 مُهْتَمًّا ، كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى ؟ قَالَ : يَهْمُنِي أَنَّكَ
 تَأْتِي مَنَزِلِي فَلَا تَجِدُ أَمْرِي كَمَا أَحِبُّ : لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضَةٌ .
 قَالَ الْقِرْدُ : لَا تَهْتَمَّ ، فَإِنَّ الِهَمَّ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَلَكِنْ
 التَّمَسَّ مَا يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْدِيَةِ : فَإِنَّهُ يُقَالُ
 لِيَبْذُلَ ذُو الْمَالِ مَالَهُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ : فِي الصَّدَقَةِ ، وَفِي
 وَقْتِ الْحَاجَةِ ، وَعَلَى الْبَنِينَ ، وَعَلَى الْأَزْوَاجِ . قَالَ الْغَيْلِمُ :
 صَدَقْتَ . وَقَدْ قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : إِنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ
 قِرْدٍ . فَقَالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ : وَأَسْفَاهُ ! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الْحَرَصُ

وَالشَّرُّ عَلَى كِبَرِ سِنِي : حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ وَرَطَةِ ! وَلَقَدْ صَدَقَ
الَّذِي قَالَ : يَعِيشُ الْقَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا ، وَذُو
الْحِرْصِ وَالشَّرِّ يَعِيشُ مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ . وَإِنِّي قَدْ
اِخْتَبَجْتُ الْآنَ إِلَى عَقْلِي فِي التِّمَاسِ الْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ .
ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُعَلِّمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي ، حَتَّى كُنْتُ
أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي ؟ فَهَذِهِ سُنَّةٌ فِينَا ، مَعَاشِرَ الْقِرَدَةِ ، إِذَا نَحَرَ
أَحَدُنَا لِرِيزَارَةِ صَدِيقٍ ، خَلَفَ قَلْبُهُ عِنْدَ أَهْلِهِ ، أَوْ فِي مَوْضِعِهِ ،
لِيَنْتَظِرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرْمِ الْمَزُورِ وَلَيْسَ قُلُوبُنَا مَعَنَا . قَالَ
الْغَيْلِمُ : وَأَيْنَ قَلْبُكَ الْآنَ ؟ قَالَ : خَلَفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ . فَإِنْ شِئْتَ
فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ ، حَتَّى آتِيكَ بِهِ . فَفَرِحَ الْغَيْلِمُ بِذَلِكَ .
وَقَالَ : لَقَدْ وَافَقَنِي صَاحِبِي بِدُونِ أَنْ أَغْدِرَ بِهِ . ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ
إِلَى مَكَانِهِ . فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ ، وَثَبَ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَارْتَقَى
الشَّجَرَةَ . فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْغَيْلِمِ ، نَادَاهُ : يَا خَلِيلِي ، اِخْمِلْ قَلْبَكَ
وَانْزِلْ ، فَقَدْ حَبَسْتَنِي . فَقَالَ الْقِرْدُ : هَيَّاهُ ! أَتُظَنُّ أَنَّ
كَالْجَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنَانِ :
قَالَ الْغَيْلِمُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْقِرْدُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ أَسَدٌ فِي أُجْحَةِ ، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ
 آوَى يَأْكُلُ مِنْ فَوَاضِلِ طَعَامِهِ ، فَأَصَابَ الْأَسَدَ جَرَبٌ ،
 وَضَعْفٌ شَدِيدٌ ، وَجَهْدٌ ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ . فَقَالَ لَهُ
 ابْنُ آوَى : مَا بِأَلُكَ ، يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ ، قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُكَ ؟
 قَالَ : هَذَا الْجَرَبُ الَّذِي قَدْ أَجْهَدَنِي ، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا قَلْبُ
 حِمَارٍ وَأُذُنَاهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : مَا أَيْسَرَ هَذَا ! وَقَدْ عَرَفْتُ
 بِمَكَانٍ كَذَا حِمَارًا مَعَ قَصَّارٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ ، وَأَنَا آتِيكَ بِهِ ،
 ثُمَّ دَلَفَ إِلَى الْحِمَارِ فَأَتَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : مَا لِي أَرَاكَ مَهْزُولًا ؟
 قَالَ مَا يُطْعِمُنِي صَاحِبِي شَيْئًا . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ تَرْضَى الْمَقَامَ
 مَعَهُ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : فَمَا لِي حِيلَةٌ فِي الْهَرَبِ مِنْهُ ، لَسْتُ
 أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلَّا أَضْرَبَنِي إِنْسَانٌ فَكَدَّنِي وَأَجَاعَنِي . قَالَ
 ابْنُ آوَى : فَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَكَانٍ مَغْزُولٍ عَنِ النَّاسِ ، لَا يَمُرُّ
 بِهِ إِنْسَانٌ ، خَصِيبُ الْمَرْعَى ، فِيهِ قَطِيعٌ مِنَ الْحَمْرِ لَمْ تَرَ عَيْنٌ
 مِثْلَهَا حُسْنًا وَسِمْنًا . قَالَ الْحِمَارُ : وَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهَا ؟ فَاَنْطَلَقَ

بِنَا إِلَيْهَا ، فَانْطَلَقَ بِهِ ابْنُ آوَى نَحْوَ الْأَسَدِ ، وَتَقَدَّمَ ابْنُ آوَى ،
 وَدَخَلَ الْغَايَةَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِ الْحِمَارِ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ
 وَأَرَادَ أَنْ يَثْبَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لضعفه ، وَتَخَلَّصَ الْحِمَارُ
 مِنْهُ . فَأَفْلَتَ هَلِعًا عَلَى وَجْهِهِ ^(١) . فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ الْأَسَدَ
 لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحِمَارِ ، قَالَ لَهُ : اعْجَزْتَ يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ إِلَى هَذِهِ
 الْغَايَةِ ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنْ جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَنْ يَنْجُو مِنِّي
 أَبَدًا . فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ فَقَالَ لَهُ : مَا الَّذِي بَجَرَى
 عَلَيْكَ ؟ إِنَّ أَحَدَ الْحُمُرِ رَاكَ غَرِيبًا ، فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّبًا بِكَ ،
 وَلَوْ ثَبَّتَ لَهُ لَا نَسَكَ ، وَمَضَى بِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ
 الْحِمَارُ كَلَامَ ابْنِ آوَى ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَدًا قَطُّ ، صَدَّقَهُ ،
 وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْأَسَدِ ، فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الْأَسَدِ ، وَأَعْلَمَهُ
 بِمَكَانِهِ . وَقَالَ لَهُ : اسْتَعِدَّ لَهُ ، فَقَدْ خَدَعْتُهُ لَكَ : فَلَا يُدْرِكَنَّكَ
 الضَّعْفُ فِي هَذِهِ التَّوْبَةِ : فَإِنَّهُ إِنْ أَفْلَتَ فَلَنْ يَعُودَ مَعِيَ أَبَدًا .
 بَجَاشَ جَاشُ الْأَسَدِ لِتَحْرِيطِ ابْنِ آوَى لَهُ ، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ ^(٢)

(١) اطلع: أخلص الجزع . (٢) غلى والجاش، وقد لا يهمز، من معانيه النفس .

الحمّار . فلمّا بصُرِّيه عاجلهُ بوثبةٍ اقترسهُ بِهَا . ثُمَّ قَالَ : قَدْ
ذَكَرْتُ الْأَطِبَاءَ أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ إِلَّا بَعْدَ الْغَسْلِ وَالطَّهْوَرِ : فَاحْتَفِظْ
بِهِ حَتَّى أَعُودَ فَأَكُلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ ، وَأَتْرِكَ مَا سِوَى ذَلِكَ قُوْتًا
لَكَ . فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَسَدُ لِيَغْتَسِلَ ، عَمَدَ ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ
فَأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ ، رَجَاءً أَنْ يَتَطَيَّرَ الْأَسَدُ مِنْهُ ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ
شَيْئًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ ، فَقَالَ لِابْنِ آوَى : أَيْنَ
قَلْبُ الْحِمَارِ وَأُذُنَاهُ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ
قَلْبٌ يَفْقَهُ بِهِ ، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا ، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَ مَا أَفَاتَ
وَنَجَا مِنَ الْهَلَكَةِ :

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ الْحِمَارِ
الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَأُذُنَانِ ، وَلِسِنَّكَ
اِخْتَلَتْ عَلَى ، وَخَدَعْتَنِي ، نَحَدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيعَتِكَ ،
وَاسْتَدْرَكْتُ فَارِطَ أَمْرِي . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي يُفْسِدُهُ الْحِمْلُ
لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْعِلْمُ . قَالَ الْغَيْلَمُ : صَدَقْتَ ، إِلَّا أَنَّ الرَّجُلَ
الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ يَسْتَحْيِ أَنْ يُؤَدَّبَ :

لِصِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أَمَكَّنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا
بِحِيلَتِهِ وَعَقْلِهِ : كَالرَّجُلِ الَّذِي يَغْتَرُّ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ
عَلَيْهَا مُعْتَمِدًا . فَهَذَا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَإِذَا
ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا .

(انقضى باب القرد والغيلم)

بَابُ النَّاسِكِ وَابْنِ عَرِسٍ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ .
فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الْعَجَلَانِ فِي أَمْرِهِ ، مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا
نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ
مُتَثَبِّتًا ، لَمْ يَزَلْ نَادِمًا ، وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ
مِنْ قَتْلِ ابْنِ عَرِسٍ . وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُودًا . قَالَ الْمَلِكُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا مِنَ النَّسَاكِ كَانَ بِأَرْضِ
جُرْجَانٍ ^(١) وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ ، فَكَثُرَ زَمَانًا لَمْ يُرْزَقَا وَلَدًا ،

ثُمَّ حَمَلَتْ مِنْهُ بَعْدَ الْإِيَّاسِ . فَسُرَّتِ الْمَرْأَةُ وَسَرَّ النَّاسِكُ بِذَلِكَ ،
 فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَرًا . وَقَالَ
 لِزَوْجَتِهِ : أَبْشِرِي : فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا ، لَنَا فِيهِ
 مَنَافِعُ ، وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، اخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، وَأَخْضَرُ لَهُ
 سَائِرَ الْأَدْبَاءِ . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : مَا يَحْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ
 تَتَكَلَّمَ بِمَا لَا تَدْرِي أَيْكُونُ أَمْ لَا ؟ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ
 مَا أَصَابَ النَّاسِكُ الَّذِي أَرَأَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ .
 قَالَ لَهَا : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ
 تَاجِرٍ ، فِي كُلِّ يَوْمٍ ، رِزْقٌ مِنَ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، وَكَانَ يَأْكُلُ
 مِنْهُ قُوَّتَهُ وَحَاجَتَهُ ، وَيَرْفَعُ الْبَاقِي ، وَيَجْعَلُهُ فِي جَرَّةٍ ، فَيُعَلِّقُهَا
 فِي وَتِدٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ . فَبَيْنَمَا النَّاسِكُ ذَاتَ
 يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ ، وَالْجَرَّةُ مُعَلَّقَةٌ عَلَى
 رَأْسِهِ ، تَفَكَّرَ فِي غَلَاءِ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، فَقَالَ : سَأَبِيعُ مَا فِي
 هَذِهِ الْجَرَّةِ بِدِينَارٍ ، وَأَشْتَرِي بِهِ عَشْرَةَ أَغْنَرٍ ، فَيُحْبِلُنَّ وَيَلِدُنَّ

فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ بَطْنًا ، وَلَا تَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَصِيرَ غَنَمًا
كَثِيرَةً ، إِذَا وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا ؛ ثُمَّ حَرَّرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ سِنِينَ
فَوَجَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ عَنَزٍ ، فَقَالَ : أَنَا أَشْتَرِي بِهَا
مِائَةً مِنَ الْبَقَرِ ، بِكُلِّ أَرْبَعَةِ أَعْنُرٍ ثَوْرًا أَوْ بَقْرَةً ، وَأَشْتَرِي أَرْضًا
وَبَذْرًا ، وَأَسْتَأْجِرُ أَكْرَةً^(١) وَأَزْرَعُ عَلَى الثَّيْرَانِ ، وَأَنْتَفِعُ بِالْبَنِ
الْإِنَاثِ وَنِتَاجِهَا فَلَا يَأْتِي عَلَى خَمْسِ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُ
مِنَ الزَّرْعِ مَالًا كَثِيرًا : فَأَبْنَيْ بَيْتًا فَاحِرًا ؛ وَأَشْتَرِي إِمَاءً وَعَبِيدًا ؛
وَأَتَزَوَّجُ امْرَأَةً جَمِيلَةً ذَاتَ حُسْنٍ ؛ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ سَرِيٍّ نَجِيبٍ ؛
فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ؛ فَإِذَا تَرَعَرَعَ أَدَبْتُهُ ، وَأَخْسَنْتُ
تَأْدِيبَهُ ، وَأَشَدُّ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ يَقْبَلُ مِنِّي ، وَإِلَّا ضَرَبْتُهُ
بِهَذِهِ الْعُكَّازَةِ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْحَرَّةِ فَكَسَرَهَا ، فَسَالَ مَا كَانَ
فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِكَيْ لَا تَعْجَلَ
بَذِكْرِ مَا لَا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ ، وَمَا لَا تَدْرِي أَيَصَحُّ أَمْ لَا يَصَحُّ .
فَاتَّعَظَ النَّاسُ بِمَا حَكَتْ زَوْجَتُهُ . ثُمَّ إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلَامًا

(١) جمع أكار وهو الحراث .

بِحِيلًا فَفَرِحَ بِهِ أَبُوهُ . وَبَعْدَ أَيَّامٍ حَانَ لَهَا أَنْ تَتَطَهَّرَ فَقَالَتْ
 الْمَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ : اقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ فَأَغْتَسِلَ
 وَأَعُودَ . ثُمَّ إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ إِلَى الْحَمَّامِ ، وَخَلَفَتْ زَوْجَهَا وَالْغُلَامَ .
 فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ ^(١) يَسْتَدْعِيهِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَخْلُفُهُ
 عِنْدَ ابْنِهِ ، غَيْرَ ابْنِ عَرِيسٍ دَاجِنٍ عِنْدَهُ ، كَانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيرًا
 فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيلٌ وَلَدِهِ . فَتَرَكَهُ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ ، وَأَغْلَقَ
 عَلَيْهِمَا الْبَيْتَ ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُولِ . فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ أَجْحَارِ
 الْبَيْتِ حَيَّةٌ سَوْدَاءُ ، فَدَنَتْ مِنَ الْغُلَامِ ، فَضَرَبَهَا ابْنُ عَرِيسٍ ،
 ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا ، ثُمَّ قَطَعَهَا وَامْتَلَأَ فُوهُ مِنْ دَمِهَا ، ثُمَّ جَاءَ
 النَّاسِكُ ، وَفَتَحَ الْبَابَ ، فَالْتَقَاهُ ابْنُ عَرِيسٍ ، كَالْمُبَشِّرِ لَهُ بِمَا
 صَنَعَ مِنْ قَتْلِ الْحَيَّةِ . فَلَمَّا رَأَاهُ مُلَوَّثًا بِالدِّمِ ، وَهُوَ مَذْعُورٌ ،
 طَارَ عَقْلُهُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَنَقَ وَلَدَهُ . وَلَمْ يَتَثَبَّتْ فِي أَمْرِهِ ،
 وَلَمْ يَتَرَوَّفِ فِيهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْحَالِ ، وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ مَا ظَنَّ
 مِنْ ذَلِكَ . وَلَكِنْ عَجَلَ عَلَى ابْنِ عَرِيسٍ ، وَضَرَبَهُ بِعُكَّازَةٍ كَانَتْ

فِي يَدِهِ ، عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَمَاتَ . وَدَخَلَ النَّاسِكُ فَرَأَى الْغُلَامَ
 سَلِيمًا حَيًّا ، وَعِنْدَهُ أَسْوَدُ مُقَطَّعٌ . فَلَمَّا عَرَفَ الْقِصَّةَ ، وَتَبَيَّنَ
 لَهُ سُوءُ فِعْلِهِ فِي الْعَجَلَةِ ، لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ . وَقَالَ : لَيْتَنِي لَمْ أَرْزُقْ
 هَذَا الْوَلَدَ ، وَلَمْ أَغْدِرْ هَذَا الْغَدْرَ ! وَدَخَلَتْ امْرَأَتُهُ ، فَوَجَدَتْهُ
 عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . فَقَالَتْ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالنَّحْبِ مِنْ
 حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عَرِسٍ وَسُوءِ مُكَافَأَتِهِ لَهُ . فَقَالَتْ : هَذِهِ ثَمَرَةُ
 الْعَجَلَةِ ! فَهَذَا مِثْلُ مَنْ لَا يَتَثَبَّتُ فِي أَمْرِهِ ، بَلْ يَفْعَلُ أَغْرَاضَهُ
 بِالسَّرْعَةِ وَالْعَجَلَةِ .

(انقضى باب الناسك وابن عرس)

بَابُ الْجُرْدِ وَالسُّنُورِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمِثْلَ ،
 فَاضْرِبْ لِي مِثْلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُ ، وَأَخَذُوا بِهِ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ ، فَاشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ ، فَالْتَمَسَ النِّجَاةَ وَالْمَخْرَجَ
 بِمُؤَالَاةِ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَمُصَالَحَتِهِ ، فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ ، ثُمَّ
 وَفَى لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْهُمْ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَدَاوَةَ

لَا تَثْبُتَانِ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَبَدًا . وَرُبَّمَا حَالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى
الْعَدَاوَةِ ، وَصَارَتِ الْعَدَاوَةُ وَلَايَةً وَصَدَاقَةً . وَلِهَذَا حَوَادِثُ
وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ ، وَذُو الرَّأْيِ يُحَدِّثُ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ
رَأْيًا جَدِيدًا : أَمَّا مِنْ قَبْلِ الْعَدُوِّ فَبِالْبَاسِ ، وَأَمَّا مِنْ قَبْلِ الصَّدِيقِ
فَبِالِاسْتِنْسَاسِ . وَلَا تَمْنَعُ ذَا الْعَقْلِ عَدَاوَةً كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ
مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَالِاسْتِنْجَادِ بِهِ عَلَى دَفْعِ تَخْوِيفٍ أَوْ جَرٍّ مَرْغُوبٍ .
وَمَنْ عَمِلَ فِي ذَلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ . وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الْجُرَذِ وَالسُّتُورِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرِطَةِ ، فَنَجَّوَا بِاصْطِلَاحِهِمَا
بِجَمِيعَا مِنَ الْوَرِطَةِ وَالشَّدَةِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمَةً كَانَتْ فِي أَصْلِهَا جُحْرُ سُّتُورٍ
يُقَالُ لَهُ رُومِي ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرُ جُرَذٍ يُقَالُ لَهُ فِرِيدُونُ ،
وَكَانَ الصَّيَّادُونَ كَثِيرًا يَتَدَاوِلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ ، يَصِيدُونَ فِيهِ
الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ ، فَتَزَلْ ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ ، فَنَصَبَ حِبَابَتَهُ
قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ رُومِي ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ فِيهَا . فَخَرَجَ الْجُرَذُ
يَدْبُ ، وَيَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ ، وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِي . فَبَيْنَمَا هُوَ

يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي الشَّرِكِ ، فَسُرَّ وَاسْتَبَشَرَ . ثُمَّ التَفَّتَ فَرَأَى
خَلْفَهُ ابْنَ عَرِسٍ ، يُرِيدُ أَخْذَهُ ، وَفِي الشَّجَرَةِ بَوْمًا ، يُرِيدُ
اِخْتِطَافَهُ ، فَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَخَافَ إِنْ رَجَعَ وَرَاءَهُ أَخْذَهُ ابْنُ
عَرِسٍ ، وَإِنْ ذَهَبَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا اِخْتَطَفَهُ الْبَوْمُ ، وَإِنْ تَقَدَّمَ
أَمَامَهُ أَفْتَرَسَهُ السَّنُورُ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذَا بَلَاءٌ قَدْ اكْتَنَفَنِي ،
وَشُرُورٌ تَظَاهَرَتْ عَلَيَّ ، وَمِحْنٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِي . وَبَعْدَ ذَلِكَ
فَعَيَّ عَقْلِي ، فَلَا يُفْزِعُنِي أَمْرِي ، وَلَا يَهُولُنِي شَأْنِي ، وَلَا يَلْحَقُنِي
الدَّهْشُ ، وَلَا يَذْهَبُ قَلْبِي شِعَاعًا : فَالْعَاقِلُ لَا يَفْرُقُ^(١) عِنْدَ سَدَادِ
رَأْيِهِ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ ذِهُنُهُ عَلَى حَالٍ . وَإِنَّمَا الْعَقْلُ شَبِيهُ
بِالْبَحْرِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ غَوْرُهُ . وَلَا يَبْلُغُ الْبَلَاءُ مِنْ ذِي الرَّأْيِ
مَجْهُودَهُ فَيُهْلِكُهُ ، وَتَحَقُّقُ الرَّجَاءِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغًا
يُبْطِرُهُ وَيُسْكِرُهُ : فَيَعْمَى عَلَيْهِ أَمْرُهُ . وَلَسْتُ أَرَى لِي مِنْ هَذَا
الْبَلَاءِ مَخْلَصًا إِلَّا مُصَاحَبَةَ السَّنُورِ : فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ
مِثْلُ مَا قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُهُ . وَلَعَلَّهُ إِنْ سَمِعَ كَلَامِي الَّذِي أَكَلَّمُهُ بِهِ ،

وَوَعَى عَنِّي فَصِيحَ خَطَابِي ، وَمَحْضَ صِدْقِي الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ ،
وَلَا خِدَاعَ مَعَهُ فَفَهِمَهُ ، وَطَمِعَ فِي مَعُونَتِي إِيَّاهُ ، نَحْلُضُ
بِجَمِيعَا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ دَنَا مِنَ السُّنُورِ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَ لَهُ
السُّنُورُ : كَمَا تُحِبُّ : فِي ضَنْكِ وَضِيقٍ . قَالَ : وَأَنَا الْيَوْمَ
شَرِيكَكَ فِي الْبَلَاءِ ، وَلَسْتُ أَرْجُو لِنَفْسِي خَلَاصًا إِلَّا بِالَّذِي
أَرْجُو لَكَ فِيهِ الْخَلَاصَ . وَكَلَامِي هَذَا لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ وَلَا
خَدِيعَةٌ . وَأَبْنُ عَرِسٍ هَا هُوَ كَامِنٌ لِي ، وَالْيَوْمُ يَرْصُدُنِي ،
وَكَلَاهُمَا لِي وَلَكَ عَدُوٌّ . فَإِنْ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ ، قَطَعْتُ
حَبَائِلَكَ ، وَخَلَصْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَخَلَّصَ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ : كَالسَّفِينَةِ وَالرَّكَّابِ فِي الْبَحْرِ :
فَبِالسَّفِينَةِ يَنْجُونَ ، وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ . فَلَمَّا سَمِعَ السُّنُورُ
كَلَامَ الْجُرْدِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صَادِقٌ ، قَالَ لَهُ : إِنَّ قَوْلَكَ هَذَا
لَشَبِيهُ بِالْحَقِّ ، وَأَنَا أَيْضًا رَاغِبٌ فِيمَا أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي بِهِ

الْخَلَّاصَ . ثُمَّ إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَسَأَشْكُرُ لَكَ مَا بَقِيتُ .
 قَالَ الْجُرَذُ : فَإِنِّي سَادُّنُو مِنْكَ ، فَأَقْطَعُ الْحَبَائِلَ كُلَّهَا إِلَّا حَبْلًا
 وَاحِدًا أَبْقِيهِ لِأَسْتَوْتِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ . ثُمَّ أَخَذَ فِي قَرْضِ حَبَائِلِهِ
 ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ وَابْنَ عَرِسٍ لَمَّا رَأَيَا دُنُوَّ الْجُرَذِ مِنَ السَّنُورِ أُسِيسَا
 مِنْهُ وَانْصَرَفَا . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَبْطَأَ عَلَى رُومِي فِي قَطْعِ الْحَبَائِلِ
 فَقَالَ لَهُ : مَا لِي لَا أَرَاكَ مُجِدًّا فِي قَطْعِ حَبَائِلِي ؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ
 ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ : فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ ، وَتَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِي ،
 فَمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَتَوَانَى فِي حَقِّ
 صَاحِبِهِ . وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدَةِ وَالنَّفْعِ
 مَا قَدْ رَأَيْتَ . وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكَافِئَنِي بِذَلِكَ ، وَلَا تَذْكُرَ
 الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ : فَالَّذِي حَدَّثَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ
 الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيكَ ذَلِكَ ، مَعَ مَا فِي الْوَفَاءِ مِنَ الْفَضْلِ
 وَالْأَجْرِ ، وَمَا فِي الْغَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَكُونُ
 إِلَّا شَكُورًا غَيْرَ حَقُودٍ ، تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْإِحْسَانِ

اِلْخَلَالَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ أَجَلَ الْعُقُوبَةِ
 عُقُوبَةُ الْغَدْرِ . وَمَنْ إِذَا تُضَرَّعَ إِلَيْهِ ، وَسُئِلَ الْعَفْوَ ، فَلَمْ يَرْحَمْ ،
 وَلَمْ يَعْفُ ، فَقَدْ غَدَرَ ، قَالَ الْجُرْدُ : إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقَانِ :
 طَائِعٌ وَمُضْطَرٌّ . وَكِلَاهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْمَنْفَعَةَ ، وَيَخْتَرِسَانِ مِنَ
 الْمَضَرَّةِ . فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ ، وَيُؤْمَنُ فِي جَمِيعِ
 الْأَحْوَالِ . وَأَمَّا الْمُضْطَرُّ فَنِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ ،
 وَفِي بَعْضِهَا يُحَذَّرُ مِنْهُ . وَلَا يَزَالُ الْعَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ ،
 لِبَعْضِ مَا يَتَّقِي وَيَخَافُ . وَلَيْسَ عَاقِبَةُ التَّوَاصُلِ مِنَ الْمُتَوَاصِلِ
 إِلَّا طَلَبَ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغَ مَأْمُولِهِ . وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا
 جَعَلْتُ لَكَ ، وَمُخْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ ، مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ
 تَخَوُّفًا أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ مَا أَلْجَأَنِي خَوْفُهُ إِلَى مُصَالَحَتِكَ ، وَالْجَمَاحُ
 إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي : فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِينًا . فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ
 فِي حِينِهِ ، فَلَا حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ . وَأَنَا قَاطِعٌ حَبَائِلِكَ كُلَّهَا ، غَيْرَ
 أَنِّي تَارِكٌ عُقْدَةً وَاحِدَةً أَرْتَبُهَا بِهَا ، وَلَا أَقْطَعُهَا إِلَّا فِي السَّاعَةِ
 الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيهَا عَنِّي مَشْغُولٌ : وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايِنَتِي الصِّيَادَ .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبَائِلِ السَّنورِ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ وَافَى الصَّيَّادُ ، فَقَالَ لَهُ السَّنورُ : الْآنَ جَاءَ الْجُدُّ فِي قَطْعِ حَبَائِلِي . فَأَجْهَدَ الْجُرْدُ نَفْسَهُ فِي الْقَرِضِ ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَثَبَ السَّنورُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهْشٍ مِنَ الصَّيَّادِ ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ ، وَجَاءَ الصَّيَّادُ فَأَخَذَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً ، ثُمَّ انْصَرَفَ خَائِبًا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ نَحَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَرِهَ أَنْ يَذْنُبَ مِنَ السَّنورِ ، فَنَادَاهُ السَّنورُ : أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّاصِحُ ، ذُو الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عِنْدِي ، مَا مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ ، لِأُجَازِيكَ بِأَحْسَنِ مَا أُسَدِّتُ إِلَيَّ ، هَلُمَّ إِلَيَّ وَلَا تَقْطَعْ إِخَائِي : فَإِنَّهُ مِنَ اتَّخَذَ صَدِيقًا ، وَقَطَعَ إِخَاءَهُ ، وَأَضَاعَ صَدَاقَتَهُ ، حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ ، وَأَيْسَ مِنْ نَفْعِهِ الْإِخْوَانُ وَالْأَصْدِقَاءُ . وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لَا تُنْسَى ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكَافَأَةَ ذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي . وَلَا تَخَافَنَّ مِنِّي شَيْئًا . وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَبْلِي لَكَ مَبْدُولٌ . ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا قَالَ . فَنَادَاهُ الْجُرْدُ : رَبِّ صَدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عُدَاوَةٌ كَامِنَةٌ . وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْعُدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ .

وَمَنْ لَمْ يَخْتَرَسْ مِنْهَا ، وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نَابَ الْفِيلِ
 الْمُغْتَلِمِ ، ثُمَّ يَغْلِبُهُ النَّعَاسُ ، فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فَرَاسِنِ الْفِيلِ ،
 فَيُدْوسُهُ وَيَقْتُلُهُ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا : لِمَا يُرْجَى
 مِنْ نَفْعِهِ ، وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا : لِمَا يُخَافُ مِنْ ضَرَرِهِ . وَالْعَاقِلُ
 إِذَا رَجَا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ ، وَإِذَا خَافَ ضَرَّ الصَّدِيقِ
 أَظْهَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ . أَلَا تَرَى ؟ تَتَّبِعُ الْبَهَائِمُ أُمَّهَاتِهَا رَجَاءَ اللَّبَانِهَا ،
 فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ انْصَرَفَتْ عَنْهَا . وَرُبَّمَا قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنْ
 صَدِيقِهِ بَعْضَ مَا كَانَ يَصِلُهُ ، فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ : لِأَنَّهُ أَصْلُ
 أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً . فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً ،
 ثُمَّ أَخَذَتْ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا زَالَتِ
 الْحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ ، زَالَتْ صَدَاقَتُهُ ، فَتَحَوَّلَتْ
 عَدَاوَةً ، وَصَارَ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ : كَالْمَاءِ الَّذِي يُسَخَّنُ بِالنَّارِ ،
 فَلِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِدًا . وَلَيْسَ مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضُرُّ لِي
 مِنْكَ . وَقَدْ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةٌ إِلَى مَا أَخَذْتُنَا مِنَ الْمُصَالِحَةِ .
 وَقَدْ ذَهَبَ الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَجْتُ إِلَيَّْ وَاخْتَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ ،

وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدُ الْعَدَاوَةِ . وَلَا خَيْرَ لِلضَّعِيفِ
 فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ ، وَلَا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعَزِيزِ .
 وَلَا أَعْلَمُ لَكَ قَبْلِي حَاجَةً ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي ، وَلَا أَعْلَمُ
 لِي قَبْلَكَ حَاجَةً ، وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقَةٌ : فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ
 أَنَّ الضَّعِيفَ الْمُحْتَرِسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ
 مِنَ الْقَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ . وَالْعَاقِلُ
 يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ ، وَيُصَانِعُهُ ، وَيُظْهِرُ لَهُ وُدَّهُ ،
 وَيُرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْإِسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدًّا ،
 ثُمَّ يُعَجِّلُ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ ، حِينَ يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ
 سَرِيعَ الْإِسْتِرْسَالِ لَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ . وَالْعَاقِلُ يَنْفِي لِمَنْ صَالَحَهُ
 مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَتَّقِي بِهِ كُلَّ الثَّقَةِ ،
 وَلَا يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ
 مَا اسْتَطَاعَ . وَأَنَا أَوْدُكَ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأُحِبُّ لَكَ مِنَ الْبَقَاءِ
 وَالسَّلَامَةِ ، مَا لَمْ أَكُنْ أُحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَا عَلَيكَ أَنْ تُجَازِيَنِي
 عَلَى صَنِيعِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ : إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا وَالسَّلَامِ .

بَابُ ابْنِ الْمَلِكِ وَالطَّائِرِ فَنَزَةٍ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التُّرَاتِ الَّذِينَ لَا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ
 مِنْ اتِّقَاءِ بَعْضٍ . قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ
 كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيدُونُ ، وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ فَنَزَةٌ ، وَكَانَ لَهُ فَرَخٌ
 وَكَانَ هَذَا الطَّائِرُ وَفَرَخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنَطِقٍ ، وَكَانَ الْمَلِكُ
 بِهِمَا مُعْجَبًا . فَأَمَرَ بِهِمَا أَنْ يُجْعَلَا عِنْدَ امْرَأَتِهِ ، وَأَمَرَهَا بِالْحَفَظَةِ
 عَلَيْهِمَا . وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ وَلَدَتْ غُلَامًا ، فَأَلِفَ الْفَرَخُ
 الْغُلَامَ . وَكِلَاهُمَا طِفْلَانِ يَلْعَبَانِ بِجَمِيعًا . وَكَانَ فَنَزَةٌ يَذْهَبُ
 إِلَى الْجَبَلِ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لَا تُعْرَفُ ، فَيُطْعِمُ
 ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا ، وَيُطْعِمُ فَرَخَهُ شَطْرَهَا . فَأَسْرَعَ ذَلِكَ
 فِي نَشَأَتِهِمَا ، وَزَادَ فِي شَبَابِهِمَا ، وَبَانَ عَلَيْهِمَا أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ :
 فَازْدَادَ لِفَنَزَةٍ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا وَمَحَبَّةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنَ
 الْأَيَّامِ وَفَنَزَةٌ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ ، وَفَرَخُهُ فِي حِجْرِ الْغُلَامِ ،

(١) جمع فَنَزَةٍ وهي النار .

ذَرَقَ فِي جِجْرِهِ ، فَغَضِبَ الْغُلَامُ ، وَأَخَذَ الْفَرْخَ فَضَرَبَ بِهِ
الْأَرْضَ فَمَاتَ . ثُمَّ إِنَّ فَنزَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُولًا ،
فَصَاحَ وَحَزِنَ ، وَقَالَ : قُبْحًا لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وَفَاءَ !
وَيَلُ لِمَنْ ابْتُلِيَ بِصُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا حِمِيَّةَ لَهُمْ وَلَا حُرْمَةَ ،
وَلَا يُحِبُّونَ أَحَدًا وَلَا يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ
غَنَاءٍ ، وَآخَتَاجُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ : فَيُكْرِمُونَهُ لِذَلِكَ ،
فَإِذَا ظَفِرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ ، فَلَا وَدَّ ، وَلَا إِخَاءَ ، وَلَا إِحْسَانَ ،
وَلَا غُفْرَانَ ذَنْبٍ ، وَلَا مَعْرِفَةَ حَقِّ ! هُمُ الَّذِينَ أَمَرُهُمْ مَبْنِيٌّ
عَلَى الرِّيَاءِ وَالْفُجُورِ . وَهُمْ يَسْتَصْغِرُونَ مَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ عَظِيمِ
الدُّنُوبِ ، وَيَسْتَعْظُمُونَ الْيَسِيرَ إِذَا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْوَاؤُهُمْ .
فَمِنْهُمْ هَذَا الْكُفُورُ الَّذِي لَا رَحْمَةَ لَهُ ، الْغَادِرُ بِالْيَفِيفِ وَأَخِيهِ .
لَمْ يَثْبُتْ فِي شِدَّةِ حَنْقِهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلَامِ فَفَقَأَ عَيْنَهُ ، وَطَارَ فَوْقَ
عَلَى شُرْفَةِ الْمَنْزِلِ . ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَ الْمَلِكَ ذَلِكَ ، فَخَزَعَ أَشَدَّ الْخَزَعِ ،
ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ ، فَوَقَفَ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَادَاهُ ، وَقَالَ لَهُ :
إِنَّكَ آمِنٌ ، فَأَنْزِلْ يَا فَنزَةُ . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْغَادِرَ

مَأْخُودٌ بِغَدْرِهِ ، وَإِنَّهُ إِنِّ أَخْطَاهُ عَاجِلُ الْعُقُوبَةِ ، لَمْ يُخْطِئْهُ
الْأَجَلُ ، حَتَّى إِنَّهُ يُدْرِكُ الْأَعْقَابَ وَأَعْقَابَ الْأَعْقَابِ . وَإِنَّ
ابْنَكَ غَدَرَ بِابْنِي ، فَعَجَلْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ . قَالَ الْمَلِكُ : لَعَمْرِي
قَدْ غَدَرْنَا بِابْنِكَ ، فَأَنْتَقَمْتِ مِنَّا : فَلَيْسَ لَكَ قِبَلَنَا ، وَلَا لَنَا
قِبَلَكَ وَثَرٌ مَطْلُوبٌ . فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِنًا . قَالَ فَتَزُهُ : لَسْتُ
بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَدًا : فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ الْمُتَوْتُرِ^(١)
فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُكَ لُطْفَ الْحَقُودِ وَلَيْنَهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلَّا وَخْشَةً
مِنْهُ ، وَسُوءَ ظَنٍّ بِهِ : فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمُتَوْتُرِ أَمَانًا هُوَ
أَوْثَقُ لَكَ مِنَ الذُّعْرِ مِنْهُ ، وَلَا أَجُودُ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ ،
وَالِإِحْتِرَاسُ مِنْهُ أَوْلَى . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنَّ الْعَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ
أَصْدِقَاءَ ، وَالْإِخْوَةَ رُفَقَاءَ ، وَالْأَزْوَاجَ أَلْفَاءَ ، وَالْبَنِينَ ذِكْرًا ،
وَالْبَنَاتِ خُصَمَاءَ ، وَالْأَقَارِبَ غُرَمَاءَ وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيدًا . وَأَنَا
الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ الطَّرِيدُ ، قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ مِنَ
الْحُزْنِ عِبْثًا ثَقِيلًا ، لَا يَحْمِلُهُ مَعِيَ أَحَدٌ . وَأَنَا ذَاهِبٌ . فَعَلَيْكَ
مِنْهُ السَّلَامُ .

(١) من قتل له قتيلا فلم يدرك بدمه .

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُنْ اجْتَرَيْتَ مِنَّا فِيمَا صَنَعْنَاهُ
 بِكَ ، بَلْ كَانَ صَنِيعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مِنَّا بِالْغَدْرِ ، كَانَ
 الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ . وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ بِدَائُنَاكَ ، فَمَا ذَنْبُكَ ؟
 وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنَا ؟ هَلَمْ فَارْجِعْ : فَإِنَّكَ آمِنٌ .
 قَالَ فَنَزَ : اعْلَمْ أَنَّ الْأَحْقَادَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ مَوَاقِعُ مُمَكَّنَةٌ
 مُوجِعَةٌ . فَالْأَلْسُنُ لَا تَصْدُقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ الْقُلُوبِ ،
 وَالْقَلْبُ أَعْدَلُ شَهَادَةٍ مِنَ اللِّسَانِ عَلَى الْقَلْبِ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ
 قَلْبِي لَا يَشْهَدُ لِلِّسَانِ ، وَلَا قَلْبُكَ لِلِّسَانِ . قَالَ الْمَلِكُ : أَلَمْ
 تَعْلَمْ أَنَّ الضَّغَائِنَ وَالْأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ : فَمَنْ
 كَانَ ذَا عَقْلٍ ، كَانَ عَلَى إِمَانَةٍ الْحَقِيقَةِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ .
 قَالَ فَنَزَ : إِنَّ ذَلِكَ لَكَا ذَكَرْتَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْبَغِي لِذِي
 الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمُؤْتَوِّرَ الْحَقُودَ نَاسٍ مَا وَتَرِيهِ ،
 مَضْرُوفٌ عَنْهُ فِكْرُهُ فِيهِ . وَذُو الرَّأْيِ يَخْشَوْفُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ
 وَالْحَيْلَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لَا يُسْتَطَاعُ بِالشَّدَةِ

وَالْمُكَابَرَةُ ، حَتَّى يُصَادَ بِالرُّفْقِ وَالْمَلَايَنَةِ : كَمَا يُصَادُ الْفِيلُ
الْوَحْشِيُّ بِالْفِيلِ الدَّاجِنِ . قَالَ الْمَلِكُ : إِنَّ الْعَاقِلَ الْكَرِيمَ
لَا يَتْرُكُ إِنْفَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ إِنْخَوَانَهُ وَلَا يُضَيِّعُ الْحِفَاطَ ، وَإِنْ
هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ ، حَتَّى إِنَّ هَذَا الْخُلُقَ يَكُونُ فِي أَوْضَعِ
الدَّوَابِّ مَنَزَلَةً : فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَابِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكِلَابِ ،
ثُمَّ يَذْبَحُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا . وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلْفَهُمْ ذَلِكَ ،
فَلَا يَدْعُوهُ إِلَى مُفَارَقَتِهِمْ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَلْفَتِهِ إِيَّاهُمْ .
قَالَ فَتَزَةُ : إِنَّ الْأَحْقَادَ مَخُوفَةً حِينَمَا كَانَتْ . فَأَخَوْفُهَا وَأَشَدُّهَا
مَا كَانَ فِي أَنْفُسِ الْمُلُوكِ : فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالِانْتِقَامِ ،
وَيَرَوْنَ الدَّرَكَ وَالطَّلَبَ بِالْوِثْرِ مَكْرَمَةً وَنَفْرًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ
بِسُكُونِ الْحَقْدِ إِذَا سَكَنَ فَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَقْدِ فِي الْقَلْبِ ، إِذَا لَمْ
يَجِدْ مُحَرَّكَ ، مَثَلُ الْجَمْرِ الْمَكُونِ ، مَا لَمْ يَجِدْ حَطْبًا ، فَلَيْسَ
يَنْفَكُ الْحَقْدُ مُتَطَلِّعًا إِلَى الْعِلَلِ ، كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطَبَ :
فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَّ اسْتِعَارَ النَّارِ : فَلَا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلَامٍ ،
وَلَا لِينٌ وَلَا رِفْقٌ ، وَلَا خُضُوعٌ وَلَا تَضَرُّعٌ وَلَا مُصَانَعَةٌ ، وَلَا شَيْءٌ

دُونَ تَلَفِ الْأَنْفُسِ . مَعَ أَنَّهُ رَبٌّ وَاتِرٌ يَظْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ
 الْمُوتُورِ بِمَا يَرْجُو أَنَّ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ ، وَالِدَفْعِ عَنْهُ .
 وَلَكِنِّي أَنَا أضعِفُ عَنْ أَنَّ أَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا فِي
 نَفْسِكَ . وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ مُنْطَوِيَةً لِي عَلَى مَا تَقُولُ مَا كَانَ
 ذَلِكَ عَنِّي مُغْنِيًا . وَلَا أَزَالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ ، وَسُوءِ ظَنٍّ ،
 مَا اضْطَحَبْنَا . فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلَّا الْفِرَاقُ .
 وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ .

قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ضَرًّا
 وَلَا نَفْعًا ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، يُصِيبُ
 أَحَدًا ، إِلَّا بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ . وَكَمَا أَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ ،
 وَوِلَادَةَ مَا يُوَلَدُ ، وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى ، لَيْسَ إِلَى الْخَلَائِقِ مِنْهُ
 شَيْءٌ ، كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى ، وَهَلَاكُ مَا يَهْلِكُ . وَلَيْسَ لَكَ
 فِي الَّذِي صَنَعْتَ بِإِبْنِي ذَنْبٌ ، وَلَا لِإِبْنِي فِيمَا صَنَعَ بِإِبْنِكَ ذَنْبٌ .
 إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدَرًا مَقْدُورًا ، وَكِلَانَا لَهُ عِلَّةٌ : فَلَا
 نُوَأْخِذُ بِمَا أَتَانَا بِهِ الْقَدَرُ . قَالَ فَتَرَهُ : إِنَّ الْقَدَرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ ،
 لَكِنْ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ الْحَارِمَ مِنْ تَوَقُّيِ الْخَوَافِ ، وَالْإِحْتِرَاسِ

مِنَ الْمَكَارِهِ . وَلَكِنَّهُ يَنْجَعُ تَصَدِيقًا بِالْقَدَرِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ
وَالْقُوَّةِ . وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ . وَالْأَمْرُ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ : لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي ، وَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ
ابْنِكَ ، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَسْتَفِي بِقَتْلِي ، وَتَحْتُلِنِي عَنْ نَفْسِي ،
وَالنَّفْسُ تَأْتِي الْمَوْتَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : الْفَاقَةُ بَلَاءٌ ، وَالْحُزْنُ
بَلَاءٌ ، وَقُرْبُ الْعَدُوِّ بَلَاءٌ ، وَفِرَاقُ الْأَحِبَّةِ بَلَاءٌ ، وَالسَّقَمُ بَلَاءٌ ،
وَالْهَرَمُ بَلَاءٌ ، وَرَأْسُ الْبَلَايَا كُلِّهَا الْمَوْتُ . وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ
بِمَا فِي نَفْسِ الْمَوْجَعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ . فَأَنَا
بِمَا فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ : لِلْمَثَلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ
ذَلِكَ . وَلَا خَيْرَ لِي فِي صُحْبَتِكَ : فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي
بِابْنِكَ ، وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعَ ابْنِكَ بِابْنِي ، إِلَّا أَحْدَثَ ذَلِكَ
لِقُلُوبِنَا تَغْيِيرًا .

قَالَ الْمَلِكُ : لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِغْرَاضَ عَمَّا
فِي نَفْسِهِ ، وَيَنْسَاهُ وَيُهْمِلُهُ ، حَتَّى لَا يَذْكُرَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكُونَ
لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ . قَالَ فَتْرَةٌ : إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ

قَدَمِهِ قُرْحَةً ، إِنْ هُوَ حَرَصَ عَلَى الْمَشْيِ ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ
 يَسْتَكِي قُرْحَتَهُ . وَالرَّجُلُ الْأَرْمَدَ الْعَيْنِ إِذَا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ ،
 تَعَرَّضَ لِأَنْ تَزْدَادَ رَمْدًا . وَكَذَلِكَ الْوَائِرُ إِذَا دَنَا مِنَ الْمُوتُورِ ،
 فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ . وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا
 إِلَّا تَوَقَّى الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ ، وَتَقْدِيرُ الْأُمُورِ وَقِيلَةُ إِلَّا تَكَالَ
 عَلَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَقِيلَةُ الْإِغْتِرَارِ بِمَنْ لَا يَأْمَنُ : فَإِنَّهُ مِنْ
 اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ ، فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ ،
 فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ نَفْسِهِ . وَمَنْ لَا يَقْدِرُ لِطَاقَتِهِ طَعَامَهُ
 وَشَرَابَهُ ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ وَلَا تَحْمِلُ ، فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ .
 وَمَنْ لَا يَقْدِرُ لِقَمَّتِهِ ، وَعَظَمَهَا فَوْقَ مَا يَسَعُ فُوهَ ، فَرُبَّمَا
 غَضَّ بِهَا فَمَاتَ . وَمَنْ اغْتَرَّ بِكَلَامِ عَدُوِّهِ ، وَانْخَدَعَ لَهُ ،
 وَضَيَّعَ الْحَزْمَ ، فَهُوَ أَعْدَى لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ
 النَّظَرُ فِي الْقَدْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَأْتِيهِ مِنْهُ وَلَا مَا يُصْرَفُ
 عَنْهُ ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْحَزْمِ وَالْأَخْذِ بِالْقُوَّةِ وَمُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ
 فِي ذَلِكَ . وَالْعَاقِلُ لَا يَثِقُ بِأَحَدٍ مَا اسْتَطَاعَ ، وَلَا يُقِيمُ عَلَى
 خَوْفٍ وَهُوَ يُجِدُّ عَنْهُ مَذْهَبًا . وَأَنَا كَثِيرُ الْمَذَاهِبِ ، وَأَرْجُو

أَلَّا أَذْهَبَ وَجْهًا إِلَّا أَصَبْتُ فِيهِ مَا يُغْنِينِي : فَإِنَّ خِلَالَ نَحْسًا
 مِنْ تَزَوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَأَتَسَنَّهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ ،
 وَقَرَّبَنَ لَهُ الْبَعِيدَ ، وَأَكْسَبَنَهُ الْمَعَاشَ وَالْإِخْوَانَ : أَوَّلُهُنَّ كَفُّ
 الْأَذَى ، وَالثَّانِيَةُ حُسْنُ الْأَدَبِ ، وَالثَّلَاثَةُ مَجَانِبَةُ الرَّيْبِ ،
 وَالرَّابِعَةُ كَرَمُ الْخُلُقِ ، وَالْخَامِسَةُ الثَّبَلُ فِي الْعَمَلِ . وَإِذَا خَافَ
 الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا طَابَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
 وَالْوَطَنِ : فَإِنَّهُ يَرْجُو الْخُلْفَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلَا يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ
 خُلْفًا . وَشَرُّ الْمَالِ مَا لَا إِنْتَاقَ مِنْهُ ، وَشَرُّ الْأَزْوَاجِ الَّتِي
 لَا تُوَاتِي بَعْلَهَا ، وَشَرُّ الْوَلَدِ الْعَبَاصِي الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ ، وَشَرُّ
 الْإِخْوَانِ الْخَاذِلُ لِأَخِيهِ عِنْدَ النَّجَاتِ وَالشَّدَائِدِ ، وَشَرُّ الْمُلُوكِ
 الَّذِي يَخَافُهُ الْبَرِيُّ ، وَلَا يُوَاظِبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
 وَشَرُّ الْبِلَادِ بِلَادٌ لَا خِصْبَ فِيهَا وَلَا أَمْنَ ، وَإِنَّهُ لَا أَمْنَ لِي
 عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَلَا طُمَأْنِينَةً لِي فِي جَوَارِكَ . ثُمَّ وَدَعَ الْمَلِكُ
 وَطَارَ . فَهَذَا مِثْلُ ذَوِي الْأَوْتَارِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ
 يَشُقَّ بِبَعْضٍ .

(انقضى باب آبن الملك والطائر)

بَابُ الْأَسَدِ وَالشَّغْبَرِ النَّاسِكِ وَهُوَ ابْنُ آوَى

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَسْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ الْمَلِكِ الَّذِي يُرَاجِعُ^(١) مِنْ أَصَابَتِهِ مِنْهُ عَقُوبَةً
 مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، أَوْ جَفْوَةً مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ :
 إِنَّ الْمَلِكَ لَوْ لَمْ يُرَاجِعْ مِنْ أَصَابَتِهِ مِنْهُ جَفْوَةً عَنْ ذَنْبٍ أَوْ عَنْ
 غَيْرِ ذَنْبٍ ، ظَلِمَ أَوْ لَمْ يُظْلَمَ ، لَا أَضَرَّ ذَلِكَ بِالْأُمُورِ ، وَلَكِنَّ الْمَلِكَ
 حَقِيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنْ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ ، وَيَخْبِرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ
 الْمَنَافِعِ : فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوثِقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ
 حَقِيقٌ بِالْحَرِصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ لَا يُسْتَطَاعُ ضَبْطُهُ
 إِلَّا مَعَ ذَوِي الرَّأْيِ وَهُمْ الْوُزَرَاءُ وَالْأَعْوَانُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِالْوُزَرَاءِ
 وَالْأَعْوَانِ إِلَّا بِالْمُودَّةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَلَا مُودَّةَ وَلَا نَصِيحَةَ إِلَّا لِدَوَى
 الرَّأْيِ وَالْعَفَافِ . وَأَعْمَالُ السُّلْطَانِ كَثِيرَةٌ ، وَالَّذِينَ يُحْتَاجُ إِلَيْهِمْ
 مِنَ الْعَمَالِ وَالْأَعْوَانِ كَثِيرُونَ . وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْتُ مِنْ
 النَّصِيحَةِ وَالْعَفَافِ قَلِيلٌ . وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْأَسَدِ
 وَابْنِ آوَى . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى كَانَ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ
 الدُّحَالِ^(١) ، وَكَانَ مُتَزَهِّدًا مُتَعَفِّفًا ، مَعَ بَنَاتِ آوَى وَذِيئَابِ
 وَثَعَالِبَ . وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعْنَ ، وَلَا يُغِيرُكَمَا يُغِرْنَ ،
 وَلَا يَهْرِيقُ دَمًا ، وَلَا يَأْكُلُ لَحْمًا . نَحَاصِمُهُ تِلْكَ السَّبَاعُ ، وَقَانُ :
 لَا نَرْضَى بِسِيرَتِكَ وَلَا رَأْيِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزَهُّدِكَ :
 مَعَ أَنَّ تَزَهُّدَكَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ
 إِلَّا كَأَحَدِنَا : تَسْعَى مَعَنَا ، وَتَفْعَلُ فِعْلَنَا فَمَا الَّذِي كَفَّكَ عَنِ
 الدَّمَاءِ وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكُنَّ
 لَا تَوْفِّقُنِي إِذَا لَمْ أَوْثُمَّ نَفْسِي : لِأَنَّ الْآثَامَ لَيْسَتْ مِنْ قَبْلِ
 الْأَمَاكِنِ وَالْأَصْحَابِ ، وَلَكِنَّهَا مِنْ قَبْلِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ .
 وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ الْمَكَانِ الصَّالِحِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ صَالِحًا ،
 وَصَاحِبُ الْمَكَانِ السَّيِّئِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ سَيِّئًا ، كَانَ حِينَئِذٍ
 مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مَخْرَابِهِ لَمْ يَأْثُمَّ ، وَمَنْ اسْتَحْيَاهُ فِي مَعْرَكَةِ
 الْقِتَالِ أَثِمَ . وَإِنِّي إِنَّمَا صَحَبْتُكُنَّ بِنَفْسِي ، وَلَمْ أَصْحَبْكُنَّ بِقَلْبِي
 وَأَعْمَالِي : لِأَنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الْأَعْمَالِ : فَلَزِمْتُ حَالِي . وَثَبَّتْ

(١) نَقَبٌ صِيقٌ لَهُ ، مَتَسَعٌ أَسْفَلُهُ .

ابن آوى على حاله تلك ، واشتهر بالنسك والزهد ، حتى بلغ
ذلك أسداً كان ملك تلك الناحية ، فرغب فيه : لما بلغه عنه
من العفاف والنزاهة والزهد والأمانة ، فأرسل إليه يستدعيه .
فلما حضر كلمه وآتسه فوجده في جميع الأمور وفق غرضه .
ثم دعاه بعد أيام إلى صُحبته وقال له : تعلم أن عمالي كثير ،
وأعوانى جم غفير ، وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج . وقد
بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، فازددت فيك رغبة .
وأنا موليك من عملي جسيماً ورافعك إلى منزلة شريفة ، وجاعلك
من خاصتي . قال ابن آوى : إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان
فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم . وهم أخرى ألا يكرهوا
على ذلك أحداً : فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل . وإنى
لعمل السلطان كاره . وليس لي به تجربة ، ولا بالسلطان رفق .
وأنت ملك السباع ، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير ،
فيهم أهل نبلي وقوة ، ولهم على العمل حرص ، وعندهم به
وبالسلطان رفق : فإن استعملتهم أغنوا عنك ، واغبطوا لأنفسهم .

بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ الْأَسَدُ : دَع عَنْكَ هَذَا : فَإِنِّي غَيْرُ
مُعْفِيكَ مِنَ الْعَمَلِ . قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّمَا يَسْتَطِيعُ خِدْمَةُ
السُّلْطَانِ رَجُلَانِ لَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا : إِمَّا فَاجِرٌ مُصَانِعٌ ، يَنَالُ
حَاجَتَهُ بِفُجُورِهِ ، وَ يَسْلَمُ بِمُصَانَعَتِهِ ، وَإِمَّا مُغْضَلٌ لَا يَحْسُدُهُ
أَحَدٌ . فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ فَلَا يَخْلُطُ
ذَلِكَ بِمُصَانَعَتِهِ ، وَحِينَئِذٍ قَلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذَلِكَ : لِأَنَّهُ يُجْتَمَعُ
عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيقُهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ . أَمَّا الصَّدِيقُ
فَيُنَافِسُهُ فِي مَنَزَلَتِهِ ، وَيَبْغِي عَلَيْهِ فِيهَا ، وَيُعَادِيهِ لِأَجْلِهَا ،
وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ فَيَضْطَغُنُ عَلَيْهِ ، لِيَنْصِيحَ حَتَّى لِسُلْطَانِهِ ، وَإِغْنَاهُ
عَنْهُ . فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَذَانِ الصَّنِفَانِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ .
قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَكُونَنَّ بَغْيُ أَصْحَابِي عَلَيْكَ ، وَحَسَدُهُمْ إِيَّاكَ
مِمَّا يَعْرِضُ فِي نَفْسِكَ : فَأَنْتَ مَعِيَ ، وَأَنَا أَكْفِيكَ ذَلِكَ ،
وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجَاتِ الْكَرَامَةِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِكَ .
قَالَ ابْنُ آوَى : إِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ الْإِحْسَانَ إِلَيَّ ، فَلْيَدْعُنِي
فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ أَعِيشُ آمِنًا ، قَلِيلَ الْهَمِّ ، رَاضِيًا بِعَيْشِي مِنَ الْمَاءِ

وَالْعُشْبِ : فَلِئَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى وَالْخَوْفِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَا يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طُولِ عُمْرِهِ ، وَإِنَّ قَلِيلًا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ . قَالَ الْأَسَدُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ ، فَلَا تَخَفْ شَيْئًا مِمَّا أَرَاكَ تَخَافُ مِنْهُ . وَلَسْتُ أَجِدُ بُدًّا مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِكَ فِي أَمْرِي . قَالَ ابْنُ آوَى : أَمَّا إِذَا أَبَى الْمَلِكُ إِلَّا ذَلِكَ فَلْيَجْعَلْ لِي عَهْدًا ، إِنْ بَغَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ ، مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي : مَخَافَةً عَلَى مَنَزَلَتِهِ ، أَوْ مِمَّنْ هُوَ دُونِي : لِيُنَازِعَنِي فِي مَنَزَلَتِي ، فَذَكَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ذَاكِرٌ بِلِسَانِهِ ، أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ مَا يُرِيدُ بِهِ تَحْمِيلَ الْمَلِكِ عَلَى ، أَلَّا يَعْجَلَ فِي أَمْرِي ، وَأَنْ يَتَشَبَّتَ فِيمَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ وَيَذَكَرَ عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَفْحَصَ عَنْهُ ، ثُمَّ لِيَصْنَعَ مَا بَدَأَ لَهُ . فَإِذَا وَثِقْتُ مِنْهُ بِذَلِكَ ، أَعْتَنُ بِنَفْسِي فِيمَا يُحِبُّ ، وَعَمِلْتُ لَهُ فِيمَا أَوْلَانِي بِنَصِيحَةٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَحَرَضْتُ عَلَى أَلَّا أَجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي سَبِيلًا . قَالَ الْأَسَدُ : لَكَ ذَلِكَ عَلَى وَزِيَادَةٍ . ثُمَّ وَلَّاهُ خَزَائِنَهُ ، وَاخْتَصَّ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ ، وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ .

فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُ الْأَسَدِ ذَلِكَ ، غَاظَهُمْ وَسَاءَهُمْ . فَأَجْمَعُوا
 كَيْدَهُمْ ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ الْأَسَدَ . وَكَانَ الْأَسَدُ
 قَدْ اسْتَطَابَ لَحْمًا فَعَزَلَ مِنْهُ مِقْدَارًا ، وَأَمَرَهُ بِالِاخْتِفَاطِ بِهِ ،
 وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعٍ طَعَامِهِ وَأَحْرَزِهِ : لِيُعَادَ عَلَيْهِ ،
 فَأَخَذُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَحَمَلُوهُ إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى ، فَخَبَّوهُ فِيهِ ،
 وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، ثُمَّ حَضَرُوا يُكَذِّبُونَهُ إِنْ جَرَتْ فِي ذَلِكَ حَالٌ .
 فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، وَدَعَا الْأَسَدُ بِغَدَائِهِ ، فَقَدَّ ذَلِكَ اللَّحْمَ ،
 فَالْتَمَسَهُ وَلَمْ يَجِدْهُ ، وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنَ
 الْمَكِيدَةِ . فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا الْمَكِيدَةَ ، وَقَعَدُوا فِي الْمَجْلِسِ .
 ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ ، وَشَدَّدَ فِيهِ ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ ،
 فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ الْمُخْبِرِ النَّاصِحِ :
 إِنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُخْبِرَ الْمَلِكَ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ ، وَإِنْ شَوَّ
 ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ . وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي
 ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ . قَالَ الْآخَرُ : لَا أَرَاهُ يَفْعَلُ هَذَا ، وَلَكِنْ
 انْظُرُوا وَافْخَصُوا : فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْخَلَائِقِ شَائِدَةٌ . فَقَالَ الْآخَرُ :

لَعَمْرِي مَا تَكَادُ السَّرَائِرُ تُعَرَفُ ، وَأَظُنُّكُمْ إِنْ فَخَصْتُمْ عَنْ هَذَا
وَجَدْتُمْ اللَّحْمَ بِبَيْتِ ابْنِ آوَى ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ يُذَكِّرُ مِنْ عُيُوبِهِ وَخِيَانَتِهِ
نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ . قَالَ الْآخَرُ : لَكِنْ وَجَدْنَا هَذَا حَقًّا
فَلَيْسَتْ بِالْخِيَانَةِ فَقَطْ ، وَلَكِنْ مَعَ الْخِيَانَةِ كُفْرُ النِّعْمَةِ ، وَالْجَرَائِةُ
عَلَى الْمَلِكِ . قَالَ الْآخَرُ : أَنْتُمْ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ، لَا أُسْتَطِيعُ
أَنْ أَكْذِبَكُمْ ، وَلَكِنْ سَيَبِينُ هَذَا لَوْ أَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ
يُفْتِّشُهُ . قَالَ آخَرُ : إِنْ كَانَ الْمَلِكُ مُفْتِّشًا مَنْزِلَهُ فَلْيُعَجِّلْ :
فَإِنَّ عُيُوبَهُ وَجَوَاسِيَسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ . وَلَمْ يَزَالُوا فِي هَذَا
الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِابْنِ
آوَى فَخَضَرَ ، فَقَالَ لَهُ : أَتَيْنَ اللَّحْمَ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِالْإِحْتِفَازِ بِهِ ،
قَالَ : دَفَعْتُهُ إِلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ . فَدَعَا
الْأَسَدُ بِصَاحِبِ الطَّعَامِ ؛ وَكَانَ مِمَّنْ شَايَعَ وَبَايَعَ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى
ابْنِ آوَى . فَقَالَ : مَا دَفَعَ إِلَى شَيْئًا . فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ أَمِينًا إِلَى بَيْتِ
ابْنِ آوَى لِيُفْتِّشَهُ ، فَوَجَدَ فِيهِ ذَلِكَ اللَّحْمَ ؛ فَأَتَى بِهِ الْأَسَدَ .
فَدَنَا مِنْ الْأَسَدِ ذِئْبٌ لَمْ يَكُنْ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ

يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ الْعَدُولِ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا لَا يَعْلَمُونَ ، حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . فَقَالَ : بَعْدَ أَنْ اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى خِيَانَةِ ابْنِ
آوَى فَلَا يَغْفُونَ عَنْهُ : فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ لَمْ يَطْلُعِ الْمَلِكُ بَعْدَهَا
عَلَى خِيَانَةِ خَائِنٍ ، وَلَا ذَنْبٍ مُذْنِبٍ . فَأَمَرَ الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى أَنْ
يُخْرَجَ ، وَيُحْتَفَظَ بِهِ . فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَاءِ الْمَلِكِ : إِنِّي لَا أُعْجِبُ
مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَا ،
وَلَمْ يَعْرِفْ خَبْرَهُ وَمُخَادَعَتَهُ ؟ وَأَعْجِبُ مِنْ هَذَا أَنِّي أَرَاهُ سَيَصْفَحُ
عَنْهُ ، بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ . فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ بَعْضَهُمْ رَسُولًا إِلَى
ابْنِ آوَى يَلْتَمِسُ مِنْهُ الْعُذْرَ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ بِرِسَالَةٍ كَاذِبَةٍ
اخْتَرَعَهَا ، فَغَضِبَ الْأَسَدُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِابْنِ آوَى أَنْ يُقْتَلَ .
فَعَلِمَتْ أُمُّ الْأَسَدِ أَنَّ قَدْ عَجَلَ فِي أَمْرِهِ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِينَ أَمَرُوا
بِقَتْلِهِ أَنْ يُوَحِّدُوهُ ، وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِهَا ، فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ بِأَيِّ ذَنْبٍ
أَمَرْتَ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْأَمْرِ . فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ
عَجَلْتَ . وَإِنَّمَا يَسْلَمُ الْعَاقِلُ مِنَ النَّدَامَةِ بِتَرْكِ الْعَجَلَةِ
وَبِالتَّثَبُّتِ . وَالْعَجَلَةُ لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَجْتَنِي ثَمَرَةَ النَّدَامَةِ ،

بِسَبَبِ ضَعْفِ الرَّأْيِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ أَخَوَجَ إِلَى التَّوَدَةِ وَالتَّثَبُّتِ
 مِنَ الْمُلُوكِ : فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا ، وَالْوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ ، وَالْمُتَعَلِّمَ
 بِالْمُعَلِّمِ ، وَالْجُنْدَ بِالْقَائِدِ ، وَالنَّاسِكَ بِالَّذِينَ ، وَالْعَامَّةَ
 بِالْمُلُوكِ ، وَالْمُلُوكَ بِالتَّقْوَى ، وَالتَّقْوَى بِالْعَقْلِ ، وَالْعَقْلَ
 بِالتَّثَبُّتِ وَالْأَنَانَةِ ، وَرَأْسَ الْكُلِّ الْحَزْمُ ، وَرَأْسُ الْحَزْمِ لِلْمَلِكِ
 مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ ، وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ ، وَاتِّهَامُهُ بَعْضَهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ . فَإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلَاكِ بَعْضٍ سَبِيلًا
 لَفَعَلَ . وَقَدْ جَرَّبَتْ ابْنُ آوَى ، وَبَلَوَتْ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ ،
 ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَادِحًا لَهُ رَاضِيًا عَنْهُ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُخَوِّنَهُ
 بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَاتِّمَانِهِ لَهُ ، وَمُنْذُ مَجِيئِهِ إِلَى الْآنَ لَمْ يُطَّلَعْ لَهُ
 عَلَى خِيَانَةٍ إِلَّا عَلَى الْعِفَّةِ وَالنَّصِيحَةِ . وَمَا كَانَ رَأْيُ الْمَلِكِ
 أَنْ يُعَجِّلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ طَائِقِ لَحْمٍ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ
 تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى : لَتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَعَرَّضَ لِلْحَمِّ
 اسْتَوْدَعْتَهُ إِيَّاهُ . وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذَلِكَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ
 ابْنَ آوَى لَهُ خُصَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ أَتَمَرُوا بِهَذَا الْأَمْرِ . وَهُمْ الَّذِينَ

ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ فَوَضَعُوهُ فِيهِ : فَإِنَّ الْحِدَاةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا قِطْعَةً لَحْمٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ ، وَالْكَلْبُ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَظْمٌ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ . وَابْنُ آوَى مُنْذُ كَانَ إِلَى الْيَوْمِ نَافِعٌ ، وَكَانَ مُحْتِمِلًا لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبٍ مَنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ ، وَلِكُلِّ عَنَاءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ رَاحَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُونَكَ سِرًّا .

فَبَيْنَمَا أُمُّ الْأَسَدِ تَقْصُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، إِذْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ بَعْضُ ثِقَاتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى . فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ ، بَعْدَ أَنْ أَطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ آوَى : إِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ أَلَّا يُرَخِّصَ لِمَنْ سَعَى بِهِ لِثَلَاثَ بَجَرَةٍ وَعَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ؛ بَلْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لِكُنِيَ لَا يَعُودُوا إِلَى مِثْلِهِ : فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجِعَ فِي أَمْرِ الْكَفُورِ لِلْحُسْنَى ، الْجَحْرِىءِ عَلَى الْغَدْرِ ، الزَّاهِدِ فِي الْخَيْرِ ، الَّذِي لَا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْزَى بِعَمَلِهِ ، وَقَدْ عَرَفْتَ سُرْعَةَ الْغَضَبِ وَفَرْطَ الْهَفْوَةِ ، وَمَنْ سَخِطَ بِالْيَسِيرِ لَمْ يَبْلُغْ رِضَاهُ بِالْكَثِيرِ . وَالْأَوَّلَى لَكَ أَنْ تُرَاجِعَ ابْنَ آوَى ،

وَتَعِظَ عَلَيْهِ ، وَلَا يُؤَسِّنَكَ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ
 مِنَ الْإِسَاءَةِ : فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهُ عَلَى حَالٍ مِنْ
 الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلَاحِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ
 وَالشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبُعْدِ
 مِنَ الْأَذَى وَالِإِحْتِمَالِ لِلْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ وَإِنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ
 مِنْهُمْ الْمُسُونَةُ . وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَرْكُهُ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّرَاسَةِ وَلُؤْمِ
 الْعَهْدِ وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْوَرَعِ ، وَاتَّصَفَ
 بِالْجُحُودِ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا . وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ آوَى وَجَرَبْتَهُ
 وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُواصَلَتِهِ .

فَدَعَا الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدَهُ
 خَيْرًا ، وَقَالَ : إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَرَادُّكَ إِلَى مَنَزَلَتِكَ . فَقَالَ
 ابْنُ آوَى : إِنَّ شَرَّ الْأَخْلَاءِ مَنْ آلَتَمَسَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضُرِّ أَخِيهِ ،
 وَمَنْ كَانَ غَيْرَ نَاطِرٍ لَهُ كُنْظَرِهِ لِنَفْسِهِ ، أَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِيَهُ
 بِغَيْرِ الْحَقِّ لِأَجْلِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ ذَلِكَ بَيْنَ

الْأَخْلَاءُ . وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَى مَا عَلِمَ ، فَلَا يَغْلُظَنَّ عَلَى
 نَفْسِهِ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَنِّي بِهِ غَيْرُ وَاثِقٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَصْحَبَهُ :
 فَإِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْحَبُوا مَنْ عَاقَبُوهُ أَشَدَّ الْعِقَابِ ،
 وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَرْفُضُوهُ أَصْلًا : فَإِنَّ ذَا السُّلْطَانِ إِذَا عَزَلَ
 كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِبْعَادِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ
 الْأَسَدُ إِلَى كَلَامِهِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ
 وَأَخْلَاقَكَ ، وَجَرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفَاءَكَ وَصِدْقَكَ ، وَعَرَفْتُ
 كَذِبَ مَنْ تَمَحَّلَ الْحِيْلَ لِتَحْمَلِي عَلَيْكَ . وَإِنِّي مُنْزِلُكَ مِنْ نَفْسِي
 مُنْزِلَةَ الْأَخْيَارِ الْكُرَمَاءِ ، وَالْكَرِيمِ تُذْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ
 الْإِحْسَانِ ، الْخِلَالِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الثِّقَةِ
 بِكَ ، فَعُدْ إِلَى الثِّقَةِ بِنَا : فَإِنَّ لَنَا وَلَكَ بِذَلِكَ غِبْطَةً وَسُرُورًا .
 فَعَادَ ابْنُ آوَى إِلَى وَلَايَةِ مَا كَانَ يَلِي ، وَضَاعَفَ لَهُ الْمَلِكُ
 الْكَرَامَةَ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَقَرُّبًا مِنَ السُّلْطَانِ .

بَابُ إِيْلَاذَ وَإِيْرَاخْتِ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ
يَلْزِمَ بِهَا نَفْسَهُ ، وَيَحْفَظَ مُلْكَهُ وَيُثَبِّتَ سُلْطَانَهُ ، وَيَكُونَ ذَلِكَ
رَأْسَ أَمْرِهِ وَمِلَاكَهُ : أَيْ الْحِلْمُ أَمْ بِالْمُرُوءَةِ أَمْ بِالشَّجَاعَةِ أَمْ
بِالْجُودِ ؟ قَالَ بَيْدَبَا : إِنَّ أَحَقَّ مَا يَحْفَظُ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكَهُ
الْحِلْمُ ، وَبِهِ تَثَبَّتُ السُّلْطَنَةُ ، وَالْحِلْمُ رَأْسُ الْأُمُورِ وَمِلَاكُهَا ،
وَأَجُودُ مَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ : كَالَّذِي زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ كَانَ مَلِكٌ يُدْعَى
إِيْلَاذَ ، وَكَانَ لَهُ وَزِيرٌ يُدْعَى إِيْلَاذَ . وَكَانَ مُتَعَبِّدًا نَاسِكًا .
فَنَامَ الْمَلِكُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ ثَمَانِيَةَ أَحْلَامٍ أَفْرَعَتْهُ ،
فَاسْتَيْقَظَ مَرْعُوبًا . فَدَعَا الْبَرَاهِمَةَ ، وَهُمْ النَّسَاكُ لِيَعْبُرُوا
رُؤْيَاهُ . فَلَمَّا حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى . فَقَالُوا
بِاجْمَعِهِمْ : لَقَدْ رَأَى الْمَلِكُ عَجَبًا فَإِنْ أَمَهَلْنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِئْنَاهُ
بِتَأْوِيلِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : قَدْ أَمَهَلْتُكُمْ تَخْرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ

ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحَدِهِمْ وَأَتَمَرُوا بَيْنَهُمْ . وَقَالُوا : قَدْ وَجَدْتُمْ
عِلْمًا وَاسِعًا تُدْرِكُونَ بِهِ ثَارَكُمْ وَتَنْتَقِمُونَ بِهِ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ
أَنَّهُ قَتَلَ مِنْنا بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَهَذَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنَا
عَلَى سِرِّهِ وَسَأَلْنَا تَفْسِيرَ رُؤْيَاهُ : فَهَلُّهُوا نَغْلِظَ لَهُ الْقَوْلَ وَنُخَوِّفُهُ
حَتَّى يَجْهَلَهُ الْفَرَقُ وَالْجَزَعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيدُ وَنَأْمُرُ .
فَنَقُولُ : اذْفَعْ إِلَيْنَا أَحِبَّاءَكَ وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نُقَتِّلَهُمْ :
فإِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فَلَمْ نَرَ أَنَّ يَذْفَعُ عَنْكَ مَا رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ
وَمَا وَقَعْتَ فِيهِ مِنْ هَذَا الشَّرِّ إِلَّا بِقَتْلِ مَنْ نُسَمَّى لَكَ . فَإِنْ
قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا ؟ سَمَوْهُمْ لِي . قُلْنَا :
نُرِيدُ الْمَلِكَةَ إِيْرَاخْتَ أُمَّ جَوِيرِ الْمُحْمُودَةِ أَكْرَمَ نِسَائِكَ عَلَيْكَ .
وَنُرِيدُ جَوِيرَ أَحَبِّ بَنِيكَ إِلَيْكَ وَأَفْضَلَهُمْ عِنْدَكَ . وَنُرِيدُ ابْنَ
أَخِيكَ الْكَرِيمِ ، وَإِيْلَازَ خَالِيكَ وَصَاحِبَ أَمْرِكَ . وَنُرِيدُ كَالَا
الْكَاتِبَ صَاحِبَ سِرِّكَ وَسَيْفَكَ الَّذِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ ، وَالْفِيلَ
الْأَبْيَضَ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ ، وَالْفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرْكَبُكَ
فِي الْقِتَالِ . وَنُرِيدُ الْفَيَّائِينَ الْآخَرِينَ الْعَظِيمِينَ الَّذِينَ يَكُونَانِ

مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ . وَنُرِيدُ الْبُخْتِيَّ السَّرِيعَ الْقَوِيَّ . وَنُرِيدُ
 كِبَارِيُونَ الْحَكِيمَ الْفَاضِلَ الْعَالِمَ بِالْأُمُورِ لِنَنْتَقِمَ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنَا .
 ثُمَّ نَقُولُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 سَمَّيْنَاهُمْ لَكَ ، ثُمَّ تَجْعَلَ دِمَاءَهُمْ فِي حَوْضٍ تَمْلُوهُ ، ثُمَّ تَقْعُدُ فِيهِ .
 فَإِذَا نَحَرَجْتَ مِنَ الْحَوْضِ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ الْبَرَاهِمَةِ مِنَ
 الْآفَاقِ الْأَرْبَعَةِ نَجُولُ حَوْلَكَ فَتَرْقِيكَ وَنَتَقُلُّ عَلَيْكَ وَنَمْسَحُ
 عَنْكَ الدَّمَ وَنَغْسِلُكَ بِالمَاءِ وَالدَّهْنِ الطَّيِّبِ . ثُمَّ تَقُومُ إِلَى مَنْزِلِكَ
 الْبَهِيِّ فَيَذْفَعُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْبَلَاءِ الَّذِي تَخَوَّفُهُ عَلَيْكَ . فَإِنْ
 صَبَرْتَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَطَابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَحِبَّائِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا
 لَكَ ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاءَكَ ، تَخَلَّصْتَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَاسْتَقَامَ لَكَ
 مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ ، وَاسْتَخْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحْبَبْتَ .
 وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ تَخَوَّفْنَا عَلَيْكَ أَنْ يُغْصَبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهْلِكَ .
 فَإِنْ هُوَ أَطَاعَنَا فِيمَا نَأْمُرُهُ قَتَلْنَاهُ أَيْ قَتَلَهُ شِئْنَا .

فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى مَا أُمِّرُوا بِهِ رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ .
 وَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فِي تَفْسِيرِ مَا رَأَيْتَ ،
 وَخَصَصْنَا عَنِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا . فَلْتَكُنْ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الطَّاهِرُ

الصَّالِحُ الْكَرَامَةُ . وَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلِيكَ بِمَا رَأَيْنَا إِلَّا أَنْ
تَخْلُوَ بِنَا . فَأَخْرَجَ الْمَلِكُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَخَلَا بِهِمْ . فَحَدَّثُوا
بِالَّذِي اتَّخَمَرُوا بِهِ . فَقَالَ لَهُمْ : الْمَوْتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَيَاةِ
إِنْ أَنَا قَتَلْتُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَدِيلُ نَفْسِي . وَأَنَا مَيِّتٌ لَا مَحَالَةَ ،
وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ ، وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكًا ، وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي
وَفِرَاقَ الْأَحْبَاءِ سَوَاءٌ . قَالَ لَهُ الْبَرَاهِمَةُ : إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ
أَخْبَرْنَاكَ . فَأَذِنَ لَهُمْ . فَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ
صَوَابًا حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ . فَاحْتَفِظْ
بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ ، وَاعْمَلْ هَذَا الَّذِي لَكَ فِيهِ الرَّجَاءُ الْعَظِيمُ
عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ . وَقَرَّ عَيْنًا بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ
الَّذِينَ شَرُفَتْ وَكَرُمَتْ بِهِمْ . وَلَا تَدَعْ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَتَأْخُذْ
بِالضَّعِيفِ فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِيثَارًا لِمَنْ يُحِبُّ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ
أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْحَيَاةَ مُحَبَّةً لِنَفْسِهِ . وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ
مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْأَخْبَابِ إِلَّا لِيَتَمَتَّعَ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِ . وَإِنَّمَا
قِوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمُلْكِكَ . وَإِنَّكَ لَمْ تَنْتَلِ مُلْكَكَ

إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ . وَلَيْسَ
يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ وَيَهُونَ عَلَيْكَ . فَاسْتَمِعْ كَلَامَنَا . فَانْظُرْ
لِنَفْسِكَ مِنْهَا ، وَدَعْ مَا سِوَاهَا : فَإِنَّهُ لَا خَطَرَ لَهُ . فَلَمَّا
رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ وَاجْتَرَأُوا
عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ . وَقَامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ
وَدَخَلَ إِلَى جُجْرَتِهِ نَحَرَ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ
السَّمَكَةُ إِذَا نَحَرَجَتْ مِنَ الْمَاءِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
مَا أَذْرِي أَيْ الْأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي ؟ الْمَمْلَكَةُ أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي ؟
وَلَنْ أُنَالَ الْفَرَحَ مَا عِشْتُ . وَلَيْسَ مُلْكِي بِبَاقٍ عَلَيَّ
إِلَى الْأَبَدِ . وَلَسْتُ بِالْمُصِيبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي . وَإِنِّي لَزَاهِدٌ
فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرَ إِيْرَاخْتَ . وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُلْكِي
إِذَا هَلَكَ وَزِيرِي إِيْلَاذُ ؟ وَكَيْفَ أَضِيطُ أَمْرِي إِذَا هَلَكَ فِيلِي
الْأَبْيَضُ وَفَرَسِي الْجَوَادُ ؟ وَكَيْفَ أَذْعَى مَلِكًا وَقَدْ قَتَلْتُ
مَنْ أَشَارَ الْبَرَاهِمَةَ بِقَتْلِهِ ؟ وَمَا أَصْنَعُ بِالذَّنْبِا بَعْدَهُمْ ؟ ثُمَّ إِنَّ
الْحَدِيثَ فَشَا فِي الْأَرْضِ بِحُزْنِ الْمَلِكِ وَهَمِّهِ . فَلَمَّا رَأَى

إِيلَادُ مَا نَالَ الْمَلِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَكَرَّ بِحِكْمَتِهِ وَنَظَرَ وَقَالَ :
 مَا يَتَّبِعُنِي لِئِنْ أُسْتَقْبِلَ الْمَلِكُ فَأَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ
 نَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُونِي . ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِيْرَاخَتْ فَقَالَ :
 إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ الْمَلِكَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَفْعَلْ عَمَلًا إِلَّا بِمَشُورَتِي
 وَرَأْيِي . وَأَرَاهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْرًا لَا أَعْلَمُ مَا هُوَ . وَلَا أَرَاهُ
 يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئًا . وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خَالِيًا مَعَ جَمَاعَةِ الْبَرَهْمِيِّينَ
 مُنْذُ لَيَالٍ . وَقَدْ اخْتَجَبَ عَنَّا فِيهَا . وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَكُونَ
 قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ . فَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يُشِيرُوا
 عَلَيْهِ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ الشُّؤْمُ . فَقُومِي وَادْخُلِي
 عَلَيْهِ فَاسْأَلِيهِ عَنْ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ . وَأَخْبِرِينِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ
 وَأَعْلِمِينِي : فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ . فَلَعَلَّ الْبَرَهْمِيِّينَ
 قَدْ زَيْنُوا لَهُ أَمْرًا أَوْ حَمَلُوهُ عَلَى خُطَّةٍ قَبِيحَةٍ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ
 خُلُقِ الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا . وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَغِيرُ
 الْأُمُورِ وَكَبِيرُهَا . فَقَالَتْ إِيْرَاخَتْ : إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكِ
 بَعْضُ الْعِتَابِ فَلَسْتُ بِدَاخِلَةٍ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ . فَقَالَ لَهَا
 إِيلَادُ : لَا تَحْمِلِي عَلَيْهِ الْحَقْدَ فِي مِثْلِ هَذَا . وَلَا يَخْطُرَنَّ ذَلِكَ

عَلَى بَالِكَ فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُوبِ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكَ . وَقَدْ سَمِعْتَهُ
كَثِيرًا يَقُولُ : مَا اشْتَدَّ غَمِّي وَدَخَلْتُ عَلَى إِيْرَاخْتُ إِلَّا سُرِّي
عَنِّي ، فَقُومِي إِلَيْهِ وَاصْفَحِي عَنْهُ . وَكَلِمِهِ بِمَا تَعْلَمِينَ أَنَّهُ
تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ . وَأَعْلِمِيْنِي بِمَا يَكُونُ
جَوَابُهُ : فَإِنَّهُ لَنَا وَلِأَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَعْظَمُ الرَّاحَةِ . فَانْطَلَقْتُ
إِيْرَاخْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى الْمَلِكِ فَخَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ . فَقَالَتْ :
مَا الَّذِي بِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُحْمُودُ ؟ وَمَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ ؟
فَإِنِّي أَرَاكَ مُحْزُونًا . فَأَعْلِمِيْنِي مَا بِكَ ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْزَنَ
مَعَكَ وَنُوَاسِيَكَ بِأَنْفُسِنَا . فَقَالَ الْمَلِكُ : أَيَّتُهَا السَّيِّدَةُ لَا تَسْأَلِيْنِي
عَنْ أَمْرِي فَتَزِيدِيْنِي غَمًّا وَحُزْنًا : فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلِيْنِي
عَنْهُ . قَالَتْ : أَوْ قَدْ نَزَلْتُ عِنْدَكَ مَنَزَلَةً مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا ؟
إِنَّمَا أَخَذَ النَّاسُ عَقْلًا مَنْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ النَّازِلَةُ كَانَ لِنَفْسِهِ
أَشَدَّ ضَبْطًا ، وَأَكْثَرَهُمْ اسْتِمَاعًا مِنْ أَهْلِ النَّصِيحِ حَتَّى يَنْجُو مِنْ
تِلْكَ النَّازِلَةِ بِالْحِيلَةِ وَالْعَقْلِ وَالْبَحْثِ وَالْمُشَاوَرَةِ . فَعَظِيمُ
الذَّنْبِ لَا يَقْنَطُ مِنَ الرَّحْمَةِ . وَلَا تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ الْهَمِّ
وَالْحُزَنِ . فَإِنَّهُمَا لَا يَرُدَّانِ شَيْئًا مَقْضِيًّا . إِلَّا أَنَّهُمَا يُنْجِلَانِ

الْجِسْمَ وَيَشْفِيَانِ الْعَدُوَّ . قَالَ لَهَا الْمَلِكُ : لَا تَسْأَلِينِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ ^(١) . وَالَّذِي تَسْأَلِينَنِي عَنْهُ لَا خَيْرَ فِيهِ : لِأَنَّ عَاقِبَتَهُ هَلَاكِي وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي وَمَنْ هُوَ عَدِيلُ نَفْسِي . وَذَلِكَ أَنَّ الْبِرَاهِمَةَ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَتْلِكَ وَقَتْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي . وَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكُمْ . وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهَذَا إِلَّا اعْتَرَاهُ الْحُزْنُ ؟

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ إِيرَاخْتُ جَزَعَتْ . وَمَنَعَهَا عَقْلُهَا أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ جَزَعًا . فَقَالَتْ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَجْزَعْ فَتَحْنُ لَكَ الْفِدَاءَ . وَلَكَ فِي سِوَايَ وَمِثْلِي مِنَ الْجَوَارِي مَا تَقْرِبُهُ عَيْنُكَ . وَلَكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، حَاجَةً يُحْمِلُنِي عَلَى طَلِبِهَا حُبِّي لَكَ وَإِثَارِي إِيَّاكَ . وَهِيَ نَصِيحَتِي لَكَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَتْ : أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا تَشَقَّ بَعْدَهَا بِأَحَدٍ مِنَ الْبِرَاهِمَةِ . وَلَا تُسَاوِرَهُمْ فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَشَبَّثَ فِي أَمْرِكَ . ثُمَّ تُسَاوِرُ فِيهِ ثِقَاتِكَ مِرَارًا : فَإِنَّ الْقَتْلَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَلَسْتَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُنْجِيَ مَنْ

قَتَلْتَ . وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ : إِذَا لَقِيتَ جَوْهَرًا لَا خَيْرَ فِيهِ
فَلَا تُلْقِهِ مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
لَا تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبِرَاهِمَةَ لَا يُحِبُّونَكَ . وَقَدْ قَتَلْتَ
مِنْهُمْ بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَلَا تَظُنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ
أَوْلِيَّكَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ ، وَلَا أَنْ
تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا . وَإِنَّمَا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لِأَجْلِ الْحِقْدِ الَّذِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ : لَعَلَّهُمْ يَهْدِيكَ كُونُكَ وَيُهْلِكُونَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيرَكَ :
فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ . فَأَظُنُّكَ لَوْ قَبِلْتَ مِنْهُمْ فَقَتَلْتَ مَنْ
أَشَارُوا بِقَتْلِهِ ظَفَرُوا بِكَ وَغَلَبُوكَ عَلَى مُلْكِكَ ، فَيَعُودُ الْمَلِكُ
إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ . فَاذْطَلِقْ إِلَى كَبَّارِيُونَ الْحَكِيمِ ، فَهُوَ عَالِمٌ فِطْنٍ ،
فَأَخْبِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ وَاسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِهَا .
فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَرَى عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الْغَمِّ .
فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ فَرَكِبَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى كَبَّارِيُونَ الْحَكِيمِ .
فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَسَجَدَ لَهُ ، وَقَامَ مُطَاطِبًا
الرَّاسَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : مَا بِأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟ وَمَا لِي

أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ ؟ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ثَمَانِيَةَ
أَحْلَامٍ فَقَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرَاهِمَةِ . وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصَيِّبَنِي مِنْ
ذَلِكَ عَظِيمٌ أَمْرٌ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَغْيِيرِهِمْ لِرُؤْيَايَ . وَأَخْشَى أَنْ
يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِي أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : إِنْ
شِئْتَ فَاقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ . فَلَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ .
قَالَ : لَا يَحْزُنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَمْرُ وَلَا تَخَفْ مِنْهُ : أَمَّا
السَّمَكَتَانِ الْحُمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا قَائِمَتَيْنِ عَلَى أَذْنَابِهِمَا
فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكٍ نَهَاوَنَدَ بَعْدِيَّةٍ فِيهَا عِقْدَانِ مِنَ الدَّرِّ
وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ ، قِيمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ
بَيْنَ يَدَيْكَ . وَأَمَّا الْوَزَتَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ
فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ بَلَخَ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى
الْأَرْضِ مِثْلُهُمَا فَيَقُومَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا
تَدِبُّ عَلَى رِجْلِكَ الْيُسْرَى : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ صَنِجِينَ مِنْ
يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصِ الْحَدِيدِ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ .
وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ
مَلِكٍ كَازُرُونَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِلْبَاسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ

أَرْجُوَانِ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسْلِكَ جِسْمَكَ
بِالْمَاءِ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ رَهْزِينَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ
بِثِيَابٍ كَثَانٍ مِنْ لِبَاسِ الْمُلُوكِ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ
عَلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كِيدُورٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ
يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَبْيَضَ لَا تَلْحَقُهُ الْحَيْلُ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ
شَيْبًا بِالنَّارِ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ أَرْزَنٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ
بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ . وَأَمَّا الطَّيْرُ الَّذِي
رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ : فَلَسْتُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ الْيَوْمَ .
وَلَيْسَ بِضَارِكٍ ، فَلَا تَوَجَلَنَّ مِنْهُ . وَلَكِنْ فِيهِ بَعْضُ السُّخْطِ
وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ تُحِبُّهُ : فَهَذَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَأَمَّا
هَذِهِ الرُّسُلُ وَالْبُرُدُ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعًا فَيَقُومُونَ
بَيْنَ يَدَيْكَ . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ لِكَجَارِيُونَ وَرَجَعَ إِلَى
مَنْزِلِهِ .

(١) إحرا. هذه الكلمة على وزن فعيل أو فاعل كقطمير وغسلين ليكون لها نظير في العربية هو الذي دعا إلى ضبطها هكذا ومثلها صنجين .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَاءَتِ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّسُلِ نَخْرَجَ
 الْمَلِكُ فَيَجْلِسُ عَلَى التَّخْتِ ، وَأَذِنَ لِلْأَشْرَافِ ، وَجَاءَتْهُ الْهَدَايَا
 كَمَا أَخْبَرَهُ كَبَارِيُّونَ الْحَكِيمِ . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ عَجْبُهُ
 وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ كَبَارِيِّونَ . وَقَالَ : مَا وَفَّقْتُ حِينَ قَصَصْتُ
 رُؤْيَايَ عَلَى الْبَرَاهِمَةِ فَأَمَرُونِي بِمَا أَمَرُونِي بِهِ . وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى تَدَارَكَنِي بِرَحْمَتِهِ لَكُنْتُ قَدْ هَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ ، وَكَذَلِكَ
 لَا يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَّا مِنْ الْأَخْلَاءِ ذَوِي الْعُقُولِ .
 وَإِنَّ إِيْرَاخْتَ أَشَارَتْ بِالْخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ . وَرَأَيْتُ بِهِ النِّجَاحَ . فَضَعُوا
 الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لِنَآخُذَ مِنْهَا مَا اخْتَارَتْ . ثُمَّ قَالَ لِإِيلَادَ :
 خُذِ الْإِكْلِيلَ وَالْثِّيَابَ وَاحْمِلْهَا وَاتَّبِعْنِي بِهَا إِلَى مَجْلِسِ النِّسَاءِ .
 ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَعَا إِيْرَاخْتَ وَحُورَقْنَاهُ أَكْرَمَ نِسَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ .
 فَقَالَ لِإِيلَادَ : ضَعِ الْكُسُوَّةَ وَالْإِكْلِيلَ بَيْنَ يَدَيِ إِيْرَاخْتَ
 لِنَآخُذَ أَيَّهَا شَاءَتْ . فَوُضِعَتِ الْهَدَايَا بَيْنَ يَدَيِ إِيْرَاخْتَ .
 فَأَخَذَتْ مِنْهَا الْإِكْلِيلَ ، وَأَخَذَتْ حُورَقْنَاهُ كُسُوَّةً مِنْ أَنْفَرِ
 الثِّيَابِ وَأَحْسَنَهَا . وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ لَيْلَةً عِنْدَ

إِيرَاخَتْ وَلَيْلَةً عِنْدَ حُورَقْنَاهُ . وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ الْمَلِكِ أَنْ تُهَيَّيَ لَهُ
الْمَرْأَةُ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا أُرْزًا بِحَلَاوَةٍ فَتُطْعِمَهُ إِيَّاهُ .
فَأَتَى الْمَلِكُ إِيرَاخَتْ فِي نَوْبَتِهَا . وَقَدْ صَنَعَتْ لَهُ أُرْزًا . فَدَخَلَتْ
عَلَيْهِ بِالصَّخْفَةِ وَالْإِكْلِيلِ عَلَى رَأْسِهَا . فَعَلِمَتْ حُورَقْنَاهُ بِذَلِكَ
فَفَارَتْ مِنْ إِيرَاخَتْ . فَلَبِستِ تِلْكَ الْكُسُوَّةَ . وَمَرَّتْ بَيْنَ
يَدَيِ الْمَلِكِ وَتِلْكَ الثِّيَابُ تُضِيءُ عَلَيْهَا مَعَ نُورِ وَجْهِهَا
كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ . فَلَمَّا رَأَاهَا الْمَلِكُ أُعْجِبَتْهُ . ثُمَّ التَفَتَ
إِلَى إِيرَاخَتْ فَقَالَ : إِنَّكَ جَاهِلَةٌ حِينَ أَخَذْتِ الْإِكْلِيلَ وَتَرَكْتِ
الْكُسُوَّةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِثْلُهَا . فَلَمَّا سَمِعَتْ إِيرَاخَتْ
مَدَحَ الْمَلِكِ لِحُورَقْنَاهُ وَثَنَاءَهُ عَلَيْهَا وَتَجْهِيلَهَا هِيَ وَذَمَّ رَأْيَهَا
أَخَذَهَا مِنْ ذَلِكَ الْغِيْرَةِ وَالْغَيْظِ . فَضَرَبَتْ بِالصَّخْفَةِ رَأْسَ الْمَلِكِ .
فَسَالَ الْأُرْزُ عَلَى وَجْهِهِ . فَقَامَ الْمَلِكُ مِنْ مَكَانِهِ وَدَعَا بِإِيلَاذَ .
فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَرَى ، وَأَنَا مَلِكُ الْعَالَمِ ، كَيْفَ حَقَرْتَنِي هَذِهِ
الْجَاهِلَةُ ، وَفَعَلْتَ بِي مَا تَرَى ؟ فَأَنْطَلَقَ بِهَا فَأَقْتُلَهَا وَلَا
تَرْحَمَهَا . فَخَرَجَ إِيلَاذُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ : لَا أَقْتُلُهَا حَتَّى
يَسْكُنَ عَنْهُ الْغَضَبُ . فَالْمَرْأَةُ عَاقِلَةٌ سَدِيدَةُ الرَّأْيِ مِنَ الْمَلِكَاتِ

الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ فِي النِّسَاءِ ، وَلَيْسَ الْمَلِكُ بِصَابِرٍ عَنْهَا .
 وَقَدْ خَلَصَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ ، وَعَمِلَتْ أَتْعَمًا لَا صَالِحَةَ . وَرَجَاوَنَا
 فِيهَا عَظِيمٌ . وَلَسْتُ آمَنُّهُ أَنْ يَقُولَ : لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَهَا حَتَّى
 تُرَاجِعَنِي ؟ فَلَسْتُ قَاتِلَهَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ الْمَلِكِ فِيهَا ثَانِيَةً :
 فَإِنْ رَأَيْتُهُ نَادِمًا حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ جِئْتُ بِهَا حَيَّةً . وَكُنْتُ قَدْ
 عَمِلْتُ عَمَلًا عَظِيمًا . وَأَنْجَيْتُ إِيرَاخْتَ مِنَ الْقَتْلِ . وَحَفَظْتُ
 قَلْبَ الْمَلِكِ . وَأَتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ يَدًا . وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحًا
 مُسْتَرِيحًا مُصَوِّبًا رَأْيَهُ فِي الَّذِي فَعَلَهُ وَأَمَرَ بِهِ فَقَتْلُهَا لَا يَفُوتُ .

ثُمَّ أَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَوَكَّلَ بِهَا خَادِمًا مِنْ أَمَنَائِهِ ؛ وَأَمَرَهُ
 بِخِدْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا ، حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرِ الْمَلِكِ .
 ثُمَّ خَضَبَ سَيْفَهُ بِالدِّمِّ وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ كَالْكُتَيْبِ الْحَزِينِ .
 فَقَالَ أَيُّهَا الْمَلِكُ : إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيرَاخْتَ . فَلَمْ
 يَلْبَثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَذَكَرَ بِجَمَالِ إِيرَاخْتَ
 وَحُسْنِهَا . وَاشْتَدَّ أَسْفُهُ عَلَيْهَا . وَجَعَلَ يُعْزِي نَفْسَهُ عَنْهَا .
 وَيَتَجَلَّدُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَسْأَلَ إِيلَادَ : أَحَقًّا أَمْضَى

أَمْرُهُ فِيهَا أَمْ لَا ؟ وَرَجَا - لِمَا عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إِيْلَاذَ -
 أَلَّا يَكُونَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ . وَنَظَرَ إِلَيْهِ إِيْلَاذُ بِفَضْلِ عَقْلِهِ فَعَلِمَ
 الَّذِي بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : لَا تَهْتَمَّ وَلَا تَحْزَنْ أَثِيهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّهُ لَيْسَ
 فِي الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مَنَفْعَةٌ . وَلَكِنَّهُمَا يُخِلِّلَانِ الْجَسْمَ وَيُفْسِدَانِهِ .
 فَاصْبِرْ أَثِيهَا الْمَلِكُ عَلَى مَا لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَدًا . وَإِنْ أَحَبَّ
 الْمَلِكُ حَدَّثَهُ بِحَدِيثٍ يُسْلِيهِ . قَالَ : حَدِّثْنِي .

قَالَ إِيْلَاذُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَتَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى مَلَا عُشَّهُمَا مِنْ
 الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ . فَقَالَ الذَّكَرُ لِلْأُنْثَى : إِنَّا إِذَا وَجَدْنَا فِي الصَّحَارَى
 مَا نَعِيشُ بِهِ فَلَسْنَا نَأْكُلُ مِمَّا هَاهُنَا شَيْئًا . فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ
 وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَارَى شَيْءٌ رَجَعْنَا إِلَى مَا فِي عُشِّنَا فَأَكَلْنَاهُ .
 فَفَرَضِيَتِ الْأُنْثَى بِذَلِكَ . وَقَالَتْ لَهُ : نِعَمَ مَا رَأَيْتَ . وَكَانَ ذَلِكَ
 الْحَبُّ نَدِيًّا حِينَ وَضَعَاهُ فِي عُشِّهِمَا . فَانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغَابَ .
 فَلَمَّا جَاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الْحَبُّ وَانْضَمَرَ^(١) . فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأَى
 الْحَبَّ نَاقِصًا . فَقَالَ لَهَا : أَلَيْسَ كَمَا أَجْمَعْنَا رَأَيْنَا عَلَى أَلَّا
 نَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا ؟ فَلِمَ أَكَلْتِهِ ؟ فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّهَا مَا أَكَلَتْ مِنْهُ

(١) ذهب ماؤه ولم يذكروا الانفعال من ضمير إلا في هذا المعنى .

شَيْئًا . وَجَعَلَتْ تَعْتَذِرُ إِلَيْهِ . فَلَمْ يُصَدِّقْهَا . وَجَعَلَ يَنْقُرُهَا
 حَتَّى مَاتَتْ . فَلَمَّا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ وَدَخَلَ الشَّتَاءُ تَنَدَّى الْحَبُّ
 وَأَمْتَلَأَ الْعُشُّ كَمَا كَانَ . فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذَلِكَ نَدِمَ . ثُمَّ اضْطَجَعَ
 إِلَى جَانِبِ حَمَامَتِهِ وَقَالَ : مَا يَنْفَعُنِي الْحَبُّ وَالْعَيْشُ بَعْدَكَ إِذَا
 طَلَبْتُكَ فَلَمْ أَجِدْكَ ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكَ ، وَإِذَا فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ
 وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكَ ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى تَدَارِكِ مَا فَاتَ .
 ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى حُزْنِهِ فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَامًا وَلَا شَرَبًا حَتَّى مَاتَ
 إِلَى جَانِبِهَا . وَالْعَاقِلُ لَا يَعْجَلُ فِي الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ ،
 وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَخَافُ النَّدَامَةَ ، كَمَا نَدِمَ الْحَمَامُ الذَّكَرُ . وَقَدْ سَمِعْتُ
 أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ كَارَةٌ^(١) مِنَ الْعَدَسِ
 فَوَضَعَ الْكَارَةَ عَنْ ظَهْرِهِ لِيَسْتَرِيحَ . فَتَنَزَلَ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ
 مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الْعَدَسِ وَصَعِدَ إِلَى الشَّجَرَةِ . فَسَقَطَتْ مِنْ
 يَدِهِ حَبَّةٌ فَتَنَزَلَ فِي طَلِبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا . وَانْتَثَرَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ
 الْعَدَسِ أَجْمَعُ . وَأَنْتَ أَيْضًا أَثْيَا الْمَلِكُ عِنْدَكَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ
 أَمْرَأَةٍ تَدْعُ أَنْ تَلْهُو بِهِنَّ وَتَطْلُبُ الَّتِي لَا تَجِدُ ! فَلَمَّا سَمِعَ

الْمَلِكُ ذَلِكَ خَشِيَ أَنْ تَكُونَ إِيْرَاخْتُ قَدْ هَلَكْتَ . فَقَالَ
إِيلَاذُ : لِمَ لَا تَأْتِيَتْ وَتَثَبَّتْ ؟ بَلْ أَسْرَعْتَ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَةٍ
وَاحِدَةٍ فَتَعَلَّقْتَ بِهَا ، وَفَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ سَاعَتِكَ ؟
قَالَ إِيلَاذُ : إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَا اخْتِلَافَ لِقَوْلِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ
أَفْسَدْتَ أَمْرِي وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِيْرَاخْتَ . قَالَ إِيلَاذُ :
اِثْنَانِ يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا : الَّذِي يَعْمَلُ الْإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ،
وَالَّذِي لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ : لِأَنَّ فَرَحَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا
قَلِيلٌ . وَتَدَامَتُهُمَا إِذْ يُعَايِنَانِ الْجَزَاءَ طَوِيلَةً لَا يُسْتَطَاعُ
إِحْصَاؤُهَا . قَالَ الْمَلِكُ : لَئِنْ رَأَيْتُ إِيْرَاخْتَ حَيَّةً لَا أُحْزَنُ عَلَى
شَيْءٍ أَبَدًا . قَالَ إِيلَاذُ : اِثْنَانِ لَا يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا :
الْمُجْتَهِدُ فِي الْبِرِّ كُلِّ يَوْمٍ ، وَالَّذِي لَمْ يَأْتُمْ قَطُّ . قَالَ الْمَلِكُ :
مَا أَنَا بِبَازِظٍ إِلَى إِيْرَاخْتَ أَكْثَرِمًا نَظَرْتُ . قَالَ إِيلَاذُ : اِثْنَانِ
لَا يَنْظُرَانِ : الْأَعْمَى وَالَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ . وَكَأَنَّ الْأَعْمَى لَا يَنْظُرُ
السَّمَاءَ وَنُجُومَهَا وَأَرْضَهَا وَلَا يَنْظُرُ الْقُرْبَ وَالْبُعْدَ ، كَذَلِكَ الَّذِي
لَا عَقْلَ لَهُ لَا يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ وَلَا الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ .
قَالَ الْمَلِكُ : لَوْ رَأَيْتُ إِيْرَاخْتَ لَأَشْتَدَّ فَرَحِي . قَالَ إِيلَاذُ : اِثْنَانِ

هُمَا الْفَرِحَانِ : الْبَصِيرُ وَالْعَالِمُ . فَكَمَا أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ أُمُورَ الْعَالَمِ
وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، فَكَذَلِكَ الْعَالِمُ
يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالْإِنِّمَ ، وَيَعْرِفُ عَمَلَ الْآخِرَةِ ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ ،
وَيَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . قَالَ الْمَلِكُ : يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِيْلَاذُ وَنَأْخُذَ الْحَذَرَ وَنَلْزِمَ الْإِتِّقَاءَ . قَالَ إِيْلَاذُ :
اِثْنَانِ يَنْبَغِي أَنْ يُتَبَاعَدَ مِنْهُمَا : الَّذِي يَقُولُ لَا بِرَّ وَلَا إِفْنَمَ وَلَا
عِقَابَ وَلَا ثَوَابَ وَلَا شَيْءَ عَلَى مِمَّا أَنَا فِيهِ ، وَالَّذِي لَا يَكَادُ
يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِمَحْرَمٍ ، وَلَا أُذُنُهُ عَنِ اسْتِمَاعِ
السُّوءِ ، وَلَا قَلْبُهُ عَمَّا تَهُمُّ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الْإِنِّمِ وَالْحِرْصِ .
قَالَ الْمَلِكُ : صَارَتْ يَدِي مِنْ إِيْرَاخَتْ صِفْرًا . قَالَ إِيْلَاذُ :
ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ أَصْفَارُ : النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ ، وَالْأَرْضُ
الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَلِكٌ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَعْلٌ . قَالَ الْمَلِكُ :
إِنَّكَ يَا إِيْلَاذُ لَتَلْقَى بِالْجَوَابِ . قَالَ إِيْلَاذُ : ثَلَاثَةٌ يُلْقُونَ
بِالْجَوَابِ : الْمَلِكُ الَّذِي يُعْطَى وَيَقْسِمُ مِنْ خَزَائِنِهِ ، وَالْمَرْأَةُ
الْمُهْدَاةُ إِلَى مَنْ تَهْوَى مِنْ ذَوِي الْحَسَبِ ، وَالرَّجُلُ الْإِنْعَالِمُ
الْمُوقِقُ لِلْخَيْرِ .

ثُمَّ إِنَّ إِيْلَاذَ لَمَّا رَأَى الْمَلِكَ اشْتَدَّ بِهِ الْأَمْرُ، قَالَ : أَيُّهَا
 الْمَلِكُ ، إِنَّ إِيْرَاخْتَ بِالْحَيَاةِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ
 فَرَحُهُ . وَقَالَ يَا إِيْلَاذُ : إِنَّمَا مَنَعَنِي مِنَ الْغَضَبِ مَا أَعْرِفُ
 مِنْ نَصِيحَتِكَ وَصِدْقِ حَدِيثِكَ . وَكُنْتُ أَرْجُو لِمَعْرِفَتِي بِعِلْمِكَ
 أَلَّا تَكُونَ قَدْ قَتَلْتَ إِيْرَاخْتَ . فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ أَتَتْ عَظِيمًا
 وَأَغْلَظَتْ فِي الْقَوْلِ فَلَمْ تَأْتِهِ عَدَاوَةٌ وَلَا طَلَبَ مَضَرَّةٍ ، وَلَكِنَّهَا
 فَعَلَتْ ذَلِكَ لِلْغَيْرَةِ . وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَعْرِضَ عَنْ ذَلِكَ
 وَأُحْتَمِلَهُ . وَلَكِنَّكَ يَا إِيْلَاذُ أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَنِي وَتَتْرُكَنِي فِي شَكِّ
 مِنْ أَمْرِهَا . وَقَدْ اتَّخَذْتَ عِنْدِي أَفْضَلَ الْأَيْدِي . وَأَنَا لَكَ
 شَاكِرٌ . فَأَنْطَلِقْ فَأَتِنِي بِهَا . فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَأَتَى إِيْرَاخْتَ
 وَأَمَرَهَا أَنْ تَتَزَيَّنَ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ . وَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى الْمَلِكِ .
 فَلَمَّا دَخَلَتْ سَجَدَتْ لَهُ . ثُمَّ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَقَالَتْ : أَهْمَدُ
 اللَّهَ تَعَالَى ثُمَّ أَهْمَدُ الْمَلِكَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيَّ : قَدْ أَذْنَبْتُ الذَّنْبَ
 الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لِلْبَقَاءِ أَهْلًا بَعْدَهُ ، فَوَسَّعَهُ حِلْمُهُ وَكَرَّمَ طَبْعُهُ
 وَرَأْفَتُهُ ، ثُمَّ أَهْمَدُ إِيْلَاذَ الَّذِي أَنْحَرَ أَمْرِي ، وَأَنْجَانِي مِنَ الْهَلَكَةِ ،

لِعَلِّهِ بِرَأْفَةِ الْمَلِكِ وَسَعَةِ حِلْيِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ وَوَفَاءِ
عَهْدِهِ . وَقَالَ الْمَلِكُ لِإِيلَاذَ : مَا أَعْظَمَ يَدَكَ عِنْدِي وَعِنْدَ
إِيرَاخْتَ وَعِنْدَ الْعَامَةِ : إِذْ قَدْ أَحْيَيْتَهَا بَعْدَ مَا أَمَرْتُ بِقَتْلِهَا :
فَأَنْتَ الَّذِي وَهَبَهَا لِي الْيَوْمَ : فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ وَاثِقًا بِنَصِيحَتِكَ
وَتَذَبِيرِكَ . وَقَدْ أَزْدَدْتَ الْيَوْمَ عِنْدِي كَرَامَةً وَتَعْظِيمًا . وَأَنْتَ
مُحْكَمٌ فِي مُلْكِي تَفْعَلُ فِيهِ بِمَا تَرَى ، وَتَحْكُمُ عَلَيْهِ بِمَا تُرِيدُ .
فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَوَثِّقْتُ بِكَ . قَالَ إِيلَاذُ : أَدَامَ اللَّهُ
لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُلْكُ وَالسُّرُورَ . فَلَسْتُ بِمُحْمُودٍ عَلَى ذَلِكَ .
فإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ . لَكِنْ حَاجَتِي أَلَّا يَعْجَلَ الْمَلِكُ فِي الْأَمْرِ
الْجَسِيمِ الَّذِي يَنْدُمُ عَلَى فِعْلِهِ ، وَتَكُونَ عَاقِبَتُهُ الْغَمُّ وَالْحَزَنُ ،
وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَلِكَةِ النَّاصِحَةِ الْمُشْفِقَةِ الَّتِي لَا يُوجَدُ
فِي الْأَرْضِ مِثْلُهَا : فَقَالَ الْمَلِكُ بِحَقِّ قُلْتِ يَا إِيلَاذُ ، وَقَدْ
قَبِلْتُ قَوْلَكَ ، وَلَسْتُ عَامِلًا بَعْدَهَا عَمَلًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ،
فَضْلًا عَنْ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا سَلِمْتُ مِنْهُ ، إِلَّا بَعْدَ
الْمُؤَامَرَةِ وَالنَّظَرِ وَالتَّرَدُّدِ إِلَى ذَوِي الْعُقُولِ وَمُشَاوَرَةِ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ

وَالرَّأْيِ . ثُمَّ أَحْسَنَ الْمَلِكُ جَائِزَةَ إِيْلَازَ ، وَمَكَّنَهُ مِنْ أَوْلِيَّكَ
الْبَرَاهِمَةِ الَّذِينَ أَشَارُوا بِقَتْلِ أَحْبَابِهِ ، فَأَظْلَقَ فِيهِمُ السَّيْفَ ،
وَقَرَّتْ عَيْنُ الْمَلِكِ وَعُيُونُ عُظَمَاءِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، وَحَمِدُوا اللَّهَ
وَأَثْنُوا عَلَى كِبَارِيُونِ بِسَعَةِ عَلَيْهِ وَفَضْلِ حَكْمَتِهِ : لِأَنَّهُ بَعْلِهِ
خَلَصَ الْمَلِكُ وَوَزِيرُهُ الصَّالِحَ وَأَمْرَأَتَهُ الصَّالِحَةَ .

(انقضى باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت)

بَابُ اللَّبْوَةِ^(١) وَالْإِسْوَارِ^(٢) وَالشَّغْبِرِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ :
فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنٍ مِنْ يَدْعُ ضَرَّ غَيْرِهِ إِذَا قَدَّرَ عَلَيْهِ لِمَا
يُصِيبُهُ مِنَ الضَّرِّ ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا يَنْزِلُ بِهِ وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ عَنِ
ارْتِكَابِ الظُّلْمِ وَالْعِدَاوَةِ لِغَيْرِهِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ
عَلَى طَلَبِ مَا يَضُرُّ بِالنَّاسِ وَمَا يُسَوِّئُهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالسَّفَهَةِ
وَسُوءِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقِلَّةِ الْعِلْمِ

(١) الأسد وهو مهموز وغير مهموز . (٢) قائد الفرس .

بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنْ حُلُولِ النُّقْمَةِ ، وَبِمَا يَلْزِمُهُمْ
 مِنْ تَبِعَةِ مَا اكْتَسَبُوا . مِمَّا لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ . وَإِنْ سَلِمَ بَعْضُهُمْ
 مِنْ ضَرَرِ بَعْضٍ بِمَنْيَةٍ عَرَضَتْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَبَالَ
 مَا صَنَعَ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَأْمَنِ الْمَصَائِبَ ،
 وَحَقِيقٌ أَلَّا يَسْلَمَ مِنَ الْمَعَاطِبِ . وَرُبَّمَا اتَّعَظَ الْجَاهِلُ وَاعْتَبَرَ
 بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ مِنْ غَيْرِهِ ، فَارْتَدَعَ عَنْ أَنْ يَغْشَى أَحَدًا
 بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَحَصَلَ لَهُ نَفْعٌ مَا كَفَّ عَنْهُ
 مِنْ ضَرَرِهِ لِغَيْرِهِ فِي الْعَاقِبَةِ ، فَظَنِيَ ذَلِكَ حَدِيثُ الْأَبْوَةِ
 وَالْإِسْوَارِ وَالشَّغْبَرِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ لَبْوَةً كَانَتْ فِي غِيْضَةٍ ^(١) ، وَلَهَا
 شِبْلَانِ ، وَأَنَّهَا نَحَرَجَتْ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ وَخَلَفَتْهُمَا فِي كَهْفِهِمَا ،
 فَمَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ فَحَمَلَ عَلَيْهِمَا وَرَمَاهُمَا فَقَتَلَهُمَا ، وَسَلَخَ جِلْدَهُمَا
 فَاحْتَقَبَهُمَا ^(٢) ، وَأَنْصَرَفَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ . فَلَمَّا رَأَتْ
 مَا حَلَّ بِهِمَا مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ اضْطَرَبَتْ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَصَاحَتْ

(١) أجرة . (٢) ربطهما في مؤخر الرجل أو القتب .

وَجَحَّتْ . وَكَانَ إِلَى جَنْبِهَا شَجَرٌ . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ صِيَّاحِهَا
 قَالَ لَهَا : مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ ؟ وَمَا نَزَلَ بِكَ ؟ فَأَخْبِرْنِي بِهِ .
 قَالَتِ اللَّبْوَةُ شِبْلَايَ مَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ فَقَتَلَهُمَا ، وَسَلَخَ جِلْدَهُمَا
 فَاحْتَقَبَهُمَا ، وَنَبَذَهُمَا بِالْعَرَاءِ ^(١) . قَالَ لَهَا الشَّجَرُ : لَا تَضْجِي
 وَأَنْصِفِي مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَعْلِي أَنَّ هَذَا الْإِسْوَارَ لَمْ يَأْتِ إِلَيْكَ
 شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ كُنْتَ تَفْعَلِينَ بِغَيْرِكَ مِثْلَهُ ، وَتَأْتِينَ إِلَى غَيْرِ وَاحِدٍ
 مِثْلَ ذَلِكَ ، مِمَّنْ كَانَ يَجِدُ بِحِمِيمِهِ وَمَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا تَجِدِينَ
 بِشِبْلَيْكَ . فَاصْبِرِي عَلَى فِعْلِ غَيْرِكَ كَمَا صَبَرَ غَيْرُكَ عَلَى فِعْلِكَ :
 فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : كَمَا تَدِينُ تُدَانُ . وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَمَرَةٌ مِنَ الثَّوَابِ
 وَالْعِقَابِ . وَهُمَا عَلَى قَدَرِهِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ . كَالزَّرْعِ إِذَا
 حَضَرَ الْحَصَادُ أُعْطِيَ عَلَى حَسَبِ بَذَرِهِ . قَالَتِ اللَّبْوَةُ : بَيِّنْ لِي
 مَا تَقُولُ ، وَأَفْصَحْ لِي عَنْ إِشَارَتِهِ . قَالَ الشَّجَرُ : كَمْ أَتَى لَكَ
 مِنَ الْعُمُرِ ؟ قَالَتِ اللَّبْوَةُ : مِائَةُ سَنَةٍ . قَالَ الشَّجَرُ : مَا كَانَ
 قُوْتُكَ ؟ قَالَتِ اللَّبْوَةُ : لَحْمُ الْوَحْشِ . قَالَ الشَّجَرُ : مَنْ كَانَ

يُطْعِمُكَ إِيَّاهُ ؟ قَالَتِ اللَّبُوءَةُ : كُنْتُ أَصِيدُ الْوَحْشَ وَأَكُلُهُ .
 قَالَ الشَّعْبَرُ : أَرَأَيْتِ الْوَحْشَ الَّتِي كُنْتَ تَأْكُلِينَ ، أَمَا كَانَ لَهَا
 آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ الشَّعْبَرُ : فَمَا بَالِي لَا أَرَى
 وَلَا أَسْمَعُ لِسِتِكَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ مِنَ الْجَزَعِ وَالضَّجِيجِ مَا أَرَى
 وَأَسْمَعُ لَكَ ؟ أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِكَ مَا نَزَلَ إِلَّا لِسُوءِ نَظَرِكَ
 فِي الْعَوَاقِبِ وَقِلَّةِ تَفَكُّرِكَ فِيهَا ، وَجَهَالَتِكَ بِمَا يَرْجِعُ عَلَيْكَ
 مِنْ ضُرِّهَا . فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبُوءَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الشَّعْبَرِ عَرَفَتْ
 أَنَّ ذَلِكَ بِمَا جَنَّتْ عَلَى نَفْسِهَا ، وَأَنَّ عَمَلَهَا كَانَ جَوْرًا وَظُلْمًا ،
 فَتَرَكَتِ الصَّيْدَ ، وَانْصَرَفَتْ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ إِلَى الثَّمَارِ وَالنُّسْكِ
 وَالْعِبَادَةِ . فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ وَرِشَانُ^(١) (كَانَ صَاحِبَ تِلْكَ الْغَيْضَةِ
 وَكَانَ عَيْشُهُ مِنَ الثَّمَارِ) قَالَ لَهَا : قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الشَّجَرَ
 عَامِنًا هَذَا لَمْ يَنْحَلْ : لِقِلَّةِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُكَ تَأْكُلِينَهَا ،
 وَأَنْتِ آكِلَةُ اللَّحْمِ ، فَتَرَكْتِ رِزْقَكَ وَطَعَامَكَ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ ،

(١) طائر شبه الحمامة والأنثى ورشانة وجمعه ورشان ووراشين .

وَتَحَوَّلَتْ إِلَى رِزْقٍ غَيْرِكَ فَانْتَقَصَتْهُ ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِيهِ -
عَلِمْتُ أَنَّ الشَّجَرَ الْعَامَّ أَثْمَرَتْ كَمَا كَانَتْ تُثْمِرُ قَبْلَ الْيَوْمِ ؛ وَإِنَّمَا
أَتَتْ قِلَّةَ الثَّمَرِ مِنْ جِهَتِكَ . فَوَيْلٌ لِلشَّجَرِ وَوَيْلٌ لِلثَّمَارِ وَوَيْلٌ
لِمَنْ عَيْشُهُ مِنْهَا ! مَا أَسْرَعَ هَلَاكُهُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ ،
وَعَلَبَهُمْ عَلَيْهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا حَظٌّ وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا لِأَكْلِهَا !
فَلَمَّا سَمِعَتْ اللَّبُوءَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْوَرَشَانِ تَرَكَّتْ أَكْلَ الثَّمَارِ
وَأَقْبَلَتْ عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَالْعِبَادَةِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ
هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْجَاهِلَ رُبَّمَا أَنْصَرَفَ بِضُرٍّ يُصِيبُهُ عَنْ ضُرِّ
النَّاسِ ؛ كَاللَّبُوءَةِ الَّتِي أَنْصَرَفَتْ لِمَا لَقِيتْ فِي شِبْلَانِهَا عَنْ أَكْلِ
اللَّحْمِ ثُمَّ عَنْ أَكْلِ الثَّمَارِ بِقَوْلِ الْوَرَشَانِ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى النَّسِكِ
وَالْعِبَادَةِ . وَالنَّاسُ أَحَقُّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ : فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ
مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لَا تَصْنَعُهُ لِغَيْرِكَ : فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَدَلَ :
وَفِي الْعَدْلِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَا النَّاسِ .

بَابُ النَّاسِكِ وَالضَّيْفِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الَّذِي يَدْعُ صُنْعَهُ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ
 وَيُشَاكِلُهُ ، وَيَطْلُبُ غَيْرَهُ فَلَا يَدْرِكُهُ : فَيَبْقَى حَيْرَانَ مُتَرَدِّدًا .
 قَالَ الْفِيلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ الْكَرْخِ نَاسِكٌ عَابِدٌ
 مُجْتَهِدٌ . فَنَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَدَعَا النَّاسِكُ لِضَيْفِهِ بِتَمْرٍ :
 لِيُطْرِفَهُ بِهِ . فَأَكَلَا مِنْهُ جَمِيعًا . ثُمَّ قَالَ الضَّيْفُ : مَا أَخْلَى
 هَذَا التَّمْرَ وَأَطْيَبَهُ ! فَلَيْسَ هُوَ فِي بِلَادِي الَّتِي أُسْكِنُهَا ،
 وَلَيْتَهُ كَانَ فِيهَا ! ثُمَّ قَالَ : أَرَى أَنَّ تُسَاعِدَنِي عَلَى أَنْ أَخْذَ
 مِنْهُ مَا أَغْرِسُهُ فِي أَرْضِنَا : فَإِنِّي لَسْتُ عَارِفًا بِثَمَارِ أَرْضِكُمْ هَذِهِ
 وَلَا بِمَوَاضِعِهَا . فَقَالَ لَهُ النَّاسِكُ : لَيْسَ لَكَ فِي ذَلِكَ رَاحَةٌ :
 فَإِنَّ ذَلِكَ يَثْقُلُ عَلَيْكَ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يُوَافِقُ أَرْضَكُمْ ، مَعَ أَنَّ
 بِلَادَكُمْ كَثِيرَةُ الْأَثْمَارِ فَحَاجَتُهَا مَعَ كَثَرَةِ ثَمَارِهَا إِلَى التَّمْرِ
 مَعَ وَخَامَتِهِ وَقِلَّةِ مُوَافَقَتِهِ لِلْجَسَدِ ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّاسِكُ : إِنَّهُ لَا يُعَدُّ
 حَكِيمًا مَنْ طَلَبَ مَا لَا يَجِدُ . وَإِنَّكَ سَعِيدٌ الْجَدُّ إِذَا قَنِعْتَ
 بِالَّذِي تَجِدُ ، وَزَهَدْتَ فِيمَا لَا تَجِدُ . وَكَانَ هَذَا النَّاسِكُ يَتَكَلَّمُ

بِالْعِبْرَانِيَّةِ . فَاسْتَحْسَنَ الضَّيْفُ كَلَامَهُ وَأَعْجَبَهُ ، فَتَكَلَّفَ أَنْ
يَتَعَلَّمَهُ ، وَعَالَجَ فِي ذَلِكَ نَفْسَهُ أَيَّامًا . فَقَالَ النَّاسِكُ لَضَيْفِهِ :
مَا أَخْلَقَكَ أَنْ تَقَعَ مِمَّا تَرَكْتَ مِنْ كَلَامِكَ ، وَتَكَلَّفْتَ مِنْ كَلَامِ
الْعِبْرَانِيَّةِ ، فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيهِ الْغُرَابُ ! قَالَ الضَّيْفُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ النَّاسِكُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا رَأَى حَجَلَةً تَذْرُجُ وَتَمْشِي ،
فَأَعْجَبَتْهُ مِشْيَتُهَا ، وَطَمَعَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا . فَرَأَى عَلَى ذَلِكَ
نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْكَامِهَا ، وَأَيْسَ مِنْهَا . وَأَرَادَ أَنْ يَعُودَ
إِلَى مِشْيَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا : فَإِذَا هُوَ قَدْ اخْتَلَطَ وَتَخَلَّعَ فِي مِشْيَتِهِ ،
وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مَشْيًا ، وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمِثْلَ لِمَا
رَأَيْتُ مِنْ أَنَّكَ تَرَكْتَ لِسَانَكَ الَّذِي طُبِعَتْ عَلَيْهِ ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى
لِسَانِ الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَهُوَ لَا يُشَاكِلُكَ ، وَأَخَافُ أَلَّا تُدْرِكَهُ ،
وَتَنْسَى لِسَانَكَ ، وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسَانًا : فَإِنَّهُ
قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ يُعَدُّ جَاهِلًا مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا يُشَاكِلُهُ ،
وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ وَلَمْ يُوَدِّهِ عَلَيْهِ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلُ .

(انقضى باب الناسك والضيف)

بَابُ السَّائِحِ وَالصَّائِغِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنِ الَّذِي يَضَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ
 مَوْضِعِهِ ، وَيَرْجُو الشُّكْرَ عَلَيْهِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
 إِنَّ طَبَائِعَ الْخَلْقِ مُخْتَلِفَةٌ . وَلَيْسَ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
 مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ أَوْ عَلَى رِجْلَيْنِ أَوْ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ شَيْءٌ
 هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ .
 وَقَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ مَا هُوَ أَوْفَى مِنْهُ ذِمَّةً ،
 وَأَشَدَّ مُحَامَاةً عَلَى حُرْمِهِ ، وَأَشْكُرُ لِلْمَعْرُوفِ ، وَأَقُومُ بِهِ . وَحِينَئِذٍ
 يَجِبُ عَلَى ذَوِي الْعَقْلِ مِنَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَضَعُوا مَعْرُوفَهُمْ
 مَوَاضِعَهُ ، وَلَا يَضَعُوهُ عِنْدَ مَنْ لَا يَحْتَمِلُهُ . وَلَا يَقُومُ بِشُكْرِهِ ،
 وَلَا يَضْطَنِعُوا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْخَبَرَةِ بِطَرَائِقِهِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِوَفَائِهِ
 وَمَوَدَّتِهِ وَشُكْرِهِ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْتَضُوا بِذَلِكَ قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ ،
 إِذَا كَانَ غَيْرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيعَةِ ، وَلَا أَنْ يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهُمْ وَرَفَدَهُمْ
 لِلْبَعِيدِ ، إِذَا كَانَ يَقِيهِمْ بِنَفْسِهِ وَمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ : لِأَنَّهُ يَكُونُ

حَيْثُ عَارِفًا بِحَقِّ مَا اضْطَرَّعَ إِلَيْهِ مُؤَدِّيًا لَشُكْرِ مَا أُنْعِمَ عَلَيْهِ ،
مَحْمُودًا بِالنَّصِيحِ ، مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ ، صَدُوقًا عَارِفًا ، مُؤَثِّرًا
لِحَمِيدِ الْفِعَالِ وَالْقَوْلِ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ عُرِفَ بِالْخِصَالِ
الْمَحْمُودَةِ وَوُثِقَ مِنْهُ بِهَا ، كَانَ لِلْمَعْرُوفِ مَوْضِعًا ، وَلِتَقْرِيبِهِ
وَأَصْطِنَاعِهِ أَهْلًا : فَإِنَّ الطَّيِّبَ الرَّفِيقَ الْعَاقِلَ لَا يَقْدِرُ
عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرِيضِ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَالْجَسِّ لِعُرْوِقِهِ وَمَعْرِفَةِ
طَبِيعَتِهِ وَسَبَبِ عِلَّتِهِ ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ أَقْدَمَ
عَلَى مُدَاوَاتِهِ . فَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ : لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَضْطَظِي
أَحَدًا ، وَلَا يَسْتَخْلِصَهُ إِلَّا بَعْدَ الْخَبَرَةِ : فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى
مَشْهُورِ الْعَدَالَةِ مِنْ غَيْرِ اخْتِبَارٍ كَانَ مُحَاطِرًا فِي ذَلِكَ وَمُشْرِقًا
مِنْهُ عَلَى هَلَاكِ وَفْسَادٍ . وَمَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا صَنَعَ الْإِنْسَانُ الْمَعْرُوفَ
مَعَ الضَّعِيفِ الَّذِي لَمْ يُجَرِّبْ شُكْرَهُ ، وَلَمْ يَعْرِفْ حَالَهُ
فِي طَبَائِعِهِ فَيَقُومُ بِشُكْرِ ذَلِكَ وَيُكَفِّي عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْمُكَافَأَةِ .
وَرُبَّمَا حَذَرَ الْعَاقِلُ النَّاسَ وَلَمْ يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ أَحَدًا مِنْهُمْ .

وَقَدْ يَأْخُذُ ابْنُ عَرِسٍ فَيُدْخِلُهُ فِي كُمِّهِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْآخِرِ ، كَالَّذِي
يَحْمِلُ الطَّائِرَ عَلَى يَدِهِ ، فَإِذَا صَادَ شَيْئًا انْتَفَعَ بِهِ ، وَمَطْعَمُهُ مِنْهُ .
وَقَدْ قِيلَ : لَا يَنْبَغِي لِلذِّي الْعَقْلِ أَنْ يَخْتَقِرَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا
مِنَ النَّاسِ وَلَا مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَلَكِنَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَبْلُوَهُمْ ، وَيَكُونَ
مَا يَضْنَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى قَدَرٍ مَا يَرَى مِنْهُمْ . وَقَدْ مَضَى فِي ذَلِكَ
مَثَلٌ ضَرَبَهُ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً اخْتَفَرُوا رَكِيَّةً ^(١) فَوَقَعَ
فِيهَا رَجُلٌ صَائِغٌ وَحِيَّةٌ وَقِرْدٌ وَبَيْرٌ ^(٢) ، وَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ سَائِحٌ ،
فَاشْرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ ، فَبَصُرَ بِالرَّجُلِ وَالْحِيَّةِ وَالْبَيْرِ وَالْقِرْدِ .
فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ ، وَقَالَ : لَسْتُ أَعْمَلُ لِآخِرَتِي عَمَلًا أَفْضَلَ مِنْ
أَنْ أَخْلَصَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ . فَأَخَذَ حَبَلًا ،
وَأَدْلَاهُ إِلَى الْبَيْرِ فَتَعَلَّقَ بِهِ الْقِرْدُ لِحَفَّتِهِ نَفْرَجَ . ثُمَّ دَلَّاهُ ثَانِيَةً ،
فَالْتَفَتَ بِهِ الْحِيَّةُ نَفْرَجَتْ . ثُمَّ دَلَّاهُ الثَّالِثَةَ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ الْبَيْرُ
فَأَخْرَجَهُ . فَشَكَرَنَ لَهُ صَنِيعَهُ . وَقُلْنَ لَهُ : لَا تُخْرِجْ هَذَا الرَّجُلَ

مِنَ الرِّكْيَةِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَقَلَّ شُكْرًا مِنَ الْإِنْسَانِ .
 ثُمَّ هَذَا الرَّجُلُ خَاصَّةٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْقِرْدُ : إِنَّ مَنْزِلِي فِي جَبَلٍ
 قَرِيبٍ مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا : نَوَادِرْخَتْ . فَقَالَ لَهُ الْبَبْرُ :
 أَنَا أَيْضًا فِي أَجْمَةٍ إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . قَالَتِ الْحَيَّةُ :
 أَنَا أَيْضًا فِي سُورِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . فَإِنْ أَنْتَ مَرَرْتَ بِنَا يَوْمًا
 مِنَ الدَّهْرِ ، وَاخْتَجْتَ إِلَيْنَا فَصَوِّتْ عَلَيْنَا حَتَّى نَأْتِيكَ فَتَجْزِيكَ
 بِمَا أَسَدَيْتَ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ السَّائِحُ
 إِلَى مَا ذَكَرُوا لَهُ مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ ، وَأَذَلَّى الْحَبْلِ ،
 فَأَخْرَجَ الصَّائِغَ ، فَسَجَدَ لَهُ ، وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ أَوْلَيْتَنِي
 مَعْرُوفًا . فَإِنْ أَتَيْتَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِمَدِينَةِ نَوَادِرْخَتْ فَاسْأَلْ
 عَنِّ مَنْزِلِي : فَأَنَا رَجُلٌ صَائِغٌ لَعَلِّي أَكْفَيْتُكَ بِمَا صَنَعْتَ
 إِلَيَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَاذْهَبْ الصَّائِغُ إِلَى مَدِينَتِهِ وَانْطَلَقَ السَّائِحُ
 إِلَى جَانِبِهِ . فَعَرَّضَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ السَّائِحَ اتَّفَقَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى
 تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، فَاذْهَبَ ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْقِرْدُ ، فَسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَ
 رِجْلَيْهِ . وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الْقُرُودَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ،
 وَلَكِنْ أَقْعُدُ حَتَّى آتِيكَ . وَانْطَلَقَ الْقِرْدُ ، وَأَتَاهُ بِفَاكِهَةٍ

طَيِّبَةً ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَكَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ . ثُمَّ إِنَّ السَّائِحَ
 أَنْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَهُ الْبَبْرُ ، نَحَرَ لَهُ
 سَاجِدًا وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا . فَاطْمَنَ
 سَاعَةً حَتَّى آتَيْكَ . فَانْطَلَقَ الْبَبْرُ فَدَخَلَ فِي بَعْضِ الْحِطَّانِ^(١)
 إِلَى بِنْتِ الْمَلِكِ فَقَتَلَهَا ، وَأَخَذَ حَلِيهَا ، فَأَتَاهُ بِهَا ، مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَعْلَمَ السَّائِحُ مِنْ أَيْنَ هُوَ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذِهِ الْبَهَائِمُ
 قَدْ أَوْلَتْنِي هَذَا الْجَزَاءَ ، فَكَيْفَ لَوْ قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الصَّائِغِ
 فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُعْسِرًا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا فَسَيَبِيعُ هَذَا الْحَلِيَّ فَيَسْتَوْفِي
 ثَمَنَهُ . فَيُعْطِينِي بَعْضَهُ ، وَيَأْخُذُ بَعْضَهُ ، وَهُوَ أَعْرَفُ بِثَمَنِهِ .
 فَانْطَلَقَ السَّائِحُ ، فَأَتَى إِلَى الصَّائِغِ . فَلَمَّا رَأَاهُ رَحَّبَ بِهِ وَأَدْخَلَهُ
 إِلَى بَيْتِهِ . فَلَمَّا بَصُرَ بِالْحَلِيِّ مَعَهُ ، عَرَفَهُ وَكَانَ هُوَ الَّذِي
 صَاغَهُ لِابْنَةِ الْمَلِكِ . فَقَالَ لِلْسَّائِحِ : اظْمَنِّ حَتَّى آتَيْكَ
 بِطَعَامٍ فَلَسْتُ أَرْضَى لَكَ مَا فِي الْبَيْتِ . ثُمَّ نَحَرَ وَهُوَ يَقُولُ :
 قَدْ أَصَبْتُ فُرْصَتِي : أُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى الْمَلِكِ وَأَدْلُهُ عَلَى ذَلِكَ ،
 فَتَحْسُنَ مَنَزِلَتِي عِنْدَهُ . فَانْطَلَقَ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ ، فَأَرْسَلَ

إِلَيْهِ : إِنَّ الَّذِي قَتَلَ ابْنَتَكَ وَأَخَذَ حَلِيهَا عِنْدِي .
فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ وَأَتَى بِالسَّائِحِ فَلَمَّا نَظَرَ الْحَلِيَّ مَعَهُ لَمْ يَمْهَلْهُ ،
وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَذَّبَ وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَيُضْلَبَ .
فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ جَعَلَ السَّائِحُ يَبْكِي وَيَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :
لَوْ أَنَّي أَطَعْتُ الْقِرَدَ وَالْحَيَّةَ وَالْبَبْرَ فِيمَا أَمَرَنِي بِهِ وَأَخْبَرْتَنِي
مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ لَمْ يَصِرْ أَمْرِي إِلَى هَذَا الْبَلَاءِ ، وَجَعَلَ
يُكْرِّرُ هَذَا الْقَوْلَ . فَسَمِعَتْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ الْحَيَّةُ فَخَرَجَتْ مِنْ
جُحْرِهَا فَعَرَفَتْهُ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهَا أَمْرُهُ ، فَجَعَلَتْ تَحْتَالُ فِي خَلَاصِهِ .
فَانْطَلَقَتْ حَتَّى لَدَغَتْ ابْنَ الْمَلِكِ ، فَدَعَا الْمَلِكُ أَهْلَ الْعِلْمِ
فَرَقَّوهُ لِيَشْفُوهُ فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُ شَيْئًا . ثُمَّ مَضَتْ الْحَيَّةُ إِلَى أُخْتِ
لَهَا مِنَ الْجَنِّ ، فَأَخْبَرَتْهَا بِمَا صَنَعَ السَّائِحُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعْرُوفِ ،
وَمَا وَقَعَ فِيهِ . فَرَقَّتْ لَهُ ، وَانْطَلَقَتْ إِلَى ابْنِ الْمَلِكِ ، وَتَحَايَلَتْ لَهُ .
وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ لَا تَبْرَأُ حَتَّى يَرْقِيكَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ
عَاقَبْتُمُوهُ ظُلْمًا . وَانْطَلَقَتْ الْحَيَّةُ إِلَى السَّائِحِ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ
السَّجْنَ ، وَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ مِنْ أَصْطِنَاعِ
الْمَعْرُوفِ إِلَى هَذَا الْإِنْسَانِ : وَلَمْ تُطِيعْنِي . وَأَتَتْهُ بِوَرَقٍ يَنْفَعُ

مِنْ سُمِّهَا . وَقَالَتْ لَهُ : إِذَا جَاءُوا بِكَ لِتَرْقِيَ ابْنَ الْمَلِكِ فَاسْقِهِ
 مِنْ مَاءِ هَذَا الْوَرَقِ : فَإِنَّهُ يَبْرَأُ . وَإِذَا سَأَلَكَ الْمَلِكُ عَنْ حَالِكَ
 فَاصْدُقْهُ : فَإِنَّكَ تَنْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَإِنَّ ابْنَ الْمَلِكِ
 أَخْبَرَ الْمَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرْقِيكَ
 هَذَا السَّائِحُ الَّذِي حُبِسَ ظُلْمًا . فَدَعَا الْمَلِكُ بِالسَّائِحِ ، وَأَمَرَهُ
 أَنْ يَرْقِيَ وَلَدَهُ . فَقَالَ : لَا أَحْسِنُ الرَّقَى ، وَلَكِنْ أَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ
 هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . فَسَقَاهُ فَبَرِئَ الْغُلَامُ .
 فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ : وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ . فَشَكَرَهُ
 الْمَلِكُ ، وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً ، وَأَمَرَ بِالصَّائِغِ أَنْ يُصَلَّبَ .
 فَصَلَبُوهُ لِكَذِبِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنِ الشُّكْرِ وَمُجَازَاتِهِ الْفِعْلَ الْجَمِيلَ
 بِالْقَبِيحِ . ثُمَّ قَالَ الْفَيْلَسُوفُ لِلْمَلِكِ : فَنِي صَنِيعِ الصَّائِغِ
 بِالسَّائِحِ ، وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَازِهِ إِيَّاهُ ، وَشُكْرِ الْبَهَائِمِ لَهُ ،
 وَتَحْلِيصِ بَعْضِهَا إِيَّاهُ ، عِبْرَةٌ لِمَنْ اِعْتَبَرَ ، وَفِكْرَةٌ لِمَنْ تَفَكَّرَ ،
 وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ ،
 قَرُبُوا أَوْ بَعُدُوا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ وَجَلْبِ الْخَبَرِ
 وَصَرَفِ الْمَكْرُوهِ .

بَابُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ . فَإِنْ كَانَتِ الرَّجُلُ لَا يُصِيبُ الْخَيْرَ إِلَّا بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ
وَتَثَبُّتِهِ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَزْعُمُونَ ، فَمَا بَالُ الرَّجُلِ الْجَاهِلِ يُصِيبُ
الرَّفْعَةَ وَالْخَيْرَ ، وَالرَّجُلِ الْحَكِيمِ الْعَاقِلِ قَدْ يُصِيبُ الْبَلَاءَ
وَالضَّرَّ ؟ . قَالَ بَيْدَبَا : كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُبْصِرُ إِلَّا بِعَيْنَيْهِ
وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا بِأُذُنَيْهِ ، كَذَلِكَ الْعَمَلُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْحِلْمِ
وَالْعَقْلِ وَالتَّثَبُّتِ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ يَغْلِبَانِ عَلَى ذَلِكَ .
وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ اضْطَحَبُوا فِي طَرِيقٍ
وَاحِدَةٍ ، أَحَدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ وَالثَّلَاثُ ابْنُ
شَرِيفٍ ذُو جَمَالٍ وَالرَّابِعُ ابْنُ أَكَّارٍ^(١) . وَكَانُوا جَمِيعًا مُحْتَاجِينَ ،

(١) الْأَكَّارُ : الْحِرَاثُ وَجَمْعُهُ أَكْرَاةٌ كَأَنَّهُ جَمْعُ أَكْرٍ .

وَقَدْ أَصَابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ فِي مَوْضِعٍ غُرْبَةٍ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ . فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُونَ إِذْ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ رَاجِعًا إِلَى طِبَاعِهِ وَمَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْهُ الْخَيْرُ : قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ : إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا كُلَّهُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ يَأْتِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَالصَّبْرُ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَانْتِظَارُهُمَا أَفْضَلُ الْأُمُورِ . وَقَالَ ابْنُ التَّاجِرِ : الْعَقْلُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَقَالَ ابْنُ الشَّرِيفِ : الْجَمَالُ أَفْضَلُ مِمَّا ذَكَرْتُمْ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْأَثَّارِ : لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْإِجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ . فَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا مَطْرُونٌ ، جَلَسُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَتَشَاوَرُونَ : فَقَالُوا لِابْنِ الْأَثَّارِ : انْطَلِقْ فَانْتَهِبْ لَنَا بِاجْتِهَادِكَ طَعَامًا لِيَوْمِنَا هَذَا . فَانْطَلَقَ ابْنُ الْأَثَّارِ ، وَسَأَلَ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ يَكْتَسِبُ فِيهِ طَعَامَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَعَرَفُوهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ أُعْزَّ مِنْ الْحَطَبِ ، وَكَانَ الْحَطَبُ مِنْهَا عَلَى فَرْسَخٍ . فَانْطَلَقَ ابْنُ الْأَثَّارِ فَاحْتَطَبَ ^(١) طُنًا مِنَ الْحَطَبِ ، وَاتَى بِهِ الْمَدِينَةَ

فَبَاعَهُ بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَامًا وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ :
 عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ إِذَا أَجْهَدَ فِيهِ الرَّجُلُ بَدَنَهُ قِيمَتُهُ دِرْهَمٌ .
 ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِالطَّعَامِ فَأَكَلُوا . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ :
 قَالُوا يَنْبَغِي لِلَّذِي قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ مِنَ الْجَمَالِ
 أَنْ تَكُونَ نَوْبَتُهُ . فَاِنْطَلَقَ ابْنُ الشَّرِيفِ لِيَأْتِيَ الْمَدِينَةَ ،
 فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ : أَنَا لَسْتُ أَحْسِنُ عَمَلًا فَمَا يُدْخِلُنِي
 الْمَدِينَةَ ؟ ثُمَّ اسْتَحْيَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ ، وَهُمْ
 بِمُفَارَقَتِهِمْ . فَاِنْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ ،
 فَغَلَبَهُ النَّوْمُ فَنَامَ . فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمَدِينَةِ فَرَأَاهُ
 جَمَالَهُ وَتَوَسَّمَ فِيهِ شَرَفَ النُّجَارِ فَرَقَّ لَهُ ^(١) وَمَنَحَهُ خَمْسِمِائَةَ دِرْهَمٍ .
 فَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ : جَمَالُ يَوْمٍ وَاحِدٍ يُسَاوِي
 خَمْسِمِائَةَ دِرْهَمٍ . وَآتَى بِالْدَّرَاهِمِ إِلَى أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا
 فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، قَالُوا لِابْنِ التَّاجِرِ : انْطَلِقِ أَنْتَ فَاطْلُبْ
 لَنَا بِعَقْلِكَ وَتِجَارَتِكَ لِيَوْمِنَا هَذَا شَيْئًا . فَاِنْطَلَقَ ابْنُ التَّاجِرِ

فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصَرَ بِسَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ كَثِيرَةِ الْمَتَاعِ
 قَدْ قَدِمَتْ إِلَى السَّاحِلِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ يُرِيدُونَ
 أَنْ يَتَنَاعَوْا مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ . فَخَلَسُوا يَتَشَاوِرُونَ فِي نَاحِيَةٍ
 مِنَ الْمَرْكَبِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَرْجِعُوا يَوْمَنَا هَذَا
 لَا نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئًا حَتَّى يَكْسُدَ الْمَتَاعُ عَلَيْهِمْ فَيُرْخِصُوهُ
 عَلَيْنَا ، مَعَ أَنَّنَا مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَسَيَرْخُصُ . فَخَالَفَ الطَّرِيقَ
 وَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَرْكَبِ ، فَابْتَاعَ مِنْهُمْ مَا فِيهِ بِمِائَةِ أَلْفِ
 دِينَارٍ نَسِيئَةً^(١) وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى .
 فَلَمَّا سَمِعَ التُّجَّارُ ذَلِكَ خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذَلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ،
 فَأَرْبَحُوهُ عَلَى مَا اشْتَرَاهُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَأَحَالَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ
 الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي ، وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَكَتَبَ عَلَى بَابِ
 الْمَدِينَةِ : عَقْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . فَلَمَّا كَانَ
 الْيَوْمُ الرَّابِعُ قَالُوا لِابْنِ الْمَلِكِ : انْطَلِقِ أَنْتَ وَاكْتَسِبْ لَنَا
 بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ . فَاَنْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ

(١) إلى أجل . (٢) أي مأخذ مائة ألف درهم وأحال الخ .

لِمَدِينَةٍ بَحْلَسَ عَلَى مُتَّكَأٍ فِي بَابِ الْمَدِينَةِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ مَلِكَ
تِلْكَ النَّاحِيَةِ مَاتَ وَلَمْ يُخْلِفْ وَلَدًا وَلَا أَحَدًا ذَا قَرَابَةٍ .
فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنُوهُ وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ . فَأَنْكَرُوا
حَالَهُ وَشَتَمَهُ الْبَوَّابُ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا ؟ وَمَا يُجْلِسُكَ
عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَلَا تَرَاكَ تَحْزَنُ لِمَوْتِ الْمَلِكِ ؟ وَطَرَدَهُ الْبَوَّابُ
عَنِ الْبَابِ فَلَمَّا ذَهَبُوا عَادَ الْغُلَامُ بِحْلَسَ مَكَانَهُ . فَلَمَّا
دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بِصُرْبِهِ الْبَوَّابُ فَغَضِبَ وَقَالَ لَهُ :
أَلَمْ أَتَّهَكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟ وَأَخَذَهُ فَخَبَسَهُ .
فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَنْ
يُمْلِكُونَهُ عَلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يَتَطَاوَلُ يَنْظُرُ صَاحِبَهُ ، وَيَحْتَلِفُونَ
بَيْنَهُمْ . فَقَالَ لَهُمُ الْبَوَّابُ : إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسَ غُلَامًا جَالِسًا
عَلَى الْبَابِ ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنَا ، فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِبْنِي ،
فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبَابِ . فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جَالِسًا ، فَأَدْخَلْتُهُ
السُّجْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا . فَبَعَثْتُ أَشْرَافَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
إِلَى الْغُلَامِ بِخَاءٍ وَابِهِ ، وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ ، وَمَا أَقْدَمَهُ

إِلَى مَدِينَتِهِمْ . فَقَالَ : أَنَا ابْنُ مَلِكِ فَوِيرَانَ ، وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ
وَالِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى الْمُلْكِ ، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَرًا
عَلَى نَفْسِي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ . فَلَمَّا ذَكَرَ الْغُلَامُ
مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ مَنْ كَانَ يَغْشَى أَرْضَ أَبِيهِ مِنْهُمْ ،
وَأَثَنُوا عَلَى أَبِيهِ خَيْرًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَشْرَافَ اخْتَارُوا الْغُلَامَ
أَنْ يَمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ وَرَضُوا بِهِ . وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ
إِذَا مَلَكَوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا حَمَلُوهُ عَلَى فَيْلٍ أَبْيَضٍ ، وَطَافُوا بِهِ
حَوْلَ الْمَدِينَةِ . فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ مَرَّ بِبَابِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى
الْكُتَّابَةَ عَلَى الْبَابِ فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ : إِنَّ الْإِجْتِهَادَ وَالْجَمَالَ
وَالْعَقْلَ وَمَا أَصَابَ الرَّجُلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِنَّمَا هُوَ
بِقَضَاءِ وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَدْ أزدَدْتُ فِي ذَلِكَ
اعْتِبَارًا بِمَا سَاقَ اللَّهُ إِلَيَّ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْخَيْرِ .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ وَأَرْسَلَ
إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ فَأَخَضَرَهُمْ ، فَأَشْرَكَ صَاحِبَ الْعَقْلِ
مَعَ الْوُزَرَاءِ ، وَضَمَّ صَاحِبَ الْإِجْتِهَادِ إِلَى أَصْحَابِ الزَّرْعِ ،

وَأَمَرَ لِصَاحِبِ الْجَمَالِ بِمَالٍ كَثِيرٍ ثُمَّ نَفَاهُ كَيْ لَا يُفْتَنَ بِهِ .
ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا أَصْحَابِي
فَقَدْ تَيَقَّنُوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ
إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ؛ وَإِنَّمَا أَحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ
وَتَسْتَيَقِنُوهُ ؛ فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِي اللَّهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ ،
وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَالٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا اجْتِهَادٍ . وَمَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ
طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِيبَنِي مَا يُعِيشُنِي مِنَ الْقُوَّةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ
أُصِيبَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ؛ وَمَا كُنْتُ أَوْمِلُ أَنْ أَكُونَ بِهَا : لِأَنِّي
قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْنًا وَجَمَالًا ،
وَأَشَدُّ اجْتِهَادًا وَأَسَدُّ رَأْيًا ، فَسَاقَنِي الْقَضَاءُ إِلَى أَنْ اعْتَزَزْتُ
بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ فَهَضَّ حَتَّى اسْتَوَى
قَائِمًا ، وَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ كَامِلٍ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ ،
وَإِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ وَفُورُ عَقْلِكَ وَحُسْنُ ظَنِّكَ ؛
وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ . وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ ،

وَصَدَّقْنَاكَ فِيمَا وَصَفْتَ . وَالَّذِي سَأَى اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْمُلْكِ
وَالْكَرَامَةِ كُنْتَ أَهْلًا لَهُ ، لِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مِنَ الْعَقْلِ
وَالرَّأْيِ . وَإِنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ
رَأْيًا وَعَقْلًا . وَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا إِذْ وَفَّقَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ
مَلِكِنَا وَكَرَّمَنَا بِكَ . ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ سَائِحٌ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ
سَائِحًا ، رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ . فَلَمَّا بَدَأَ لِي رَفُضُ الدُّنْيَا
فَارَقْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي مِنْ أُجْرَتِي دِينَارَيْنِ ،
فَارَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا ، وَأَسْتَبْقِيَ الْآخَرَ ، فَاتَيْتُ
النَّسُوقَ ، فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجَ هَذِهِ ،
فَسَاوَمْتُهُ فِيهِمَا فَأَبَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبِيعَهُمَا إِلَّا بِدِينَارَيْنِ ،
فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبِيعَنِيهِمَا بِدِينَارٍ وَاحِدٍ فَأَبَى . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
أَشْتَرِي أَحَدَهُمَا وَأَتْرُكُ الْآخَرَ . ثُمَّ فَكَّرْتُ وَقُلْتُ لِعَلَّهُمَا
يَكُونَانِ زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى فَأَفَرِّقَ بَيْنَهُمَا ، فَأَدْرَكَنِي لَهَا رَحْمَةٌ

فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَابْتَغَيْتُهُمَا بِدِينَارَيْنِ وَأَشْفَقْتُ إِنْ أُرْسَلْتُهُمَا
 فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ أَنْ يُصَادَا ، وَلَا يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرَا مِمَّا لَقِيَا
 مِنَ الْجُوعِ وَالْهَزَالِ ، وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِمَا الْآفَاتُ . فَاَنْطَلَقْتُ
 بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرْعَى وَالْأَشْجَارِ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ
 وَالْعُمَرَانِ ، فَأُرْسَلْتُهُمَا ، فَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ .
 فَلَبَّأَا صَارًا فِي أَعْلَاهَا شَكَرًا لِي ، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ
 لِلْآخَرِ : لَقَدْ خَلَّصَنَا هَذَا السَّائِحُ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ ،
 وَاسْتَنْقَذَنَا وَنَجَّانَا مِنَ الْهَلَكَةِ . وَإِنَّا نَحْلِقَانِ أَنْ نُكَافِئَهُ
 بِفِعْلِهِ . وَإِنَّ فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ جَرَّةً مَمْلُوءَةً دَنَانِيرَ .
 أَفَلَا نَدُلُّهُ عَلَيْهَا فَيَأْخُذْهَا ؟ فَقُلْتُ لَهُمَا : كَيْفَ تَدُلَّانِي
 عَلَى كَنْزٍ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ ؟ فَقَالَا :
 إِنَّ الْقَضَاءَ إِذَا نَزَلَ صَرَفَ الْعُيُونَ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيْءِ وَغَشَى
 الْبَصَرَ . وَإِنَّمَا صَرَفَ الْقَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرِكِ وَلَمْ يَصْرِفْهَا
 عَنْ هَذَا الْكَنْزِ . فَاحْتَفَرْتُ^(١) وَاسْتَخْرَجْتُ الْبَرْنِيَّةَ وَهِيَ

(١) إناء من خزف .

مَمْلُوءَةً دَنَانِيرَ ، فَدَعَوْتُ لَهُمَا بِالْعَافِيَةِ ، وَقُلْتُ لَهُمَا :
 اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي عَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَعْلَمَا ، وَأَنْتُمَا تَطِيرَانِ فِي السَّمَاءِ ،
 وَأَخْبِرْتُمَا بِمَا تَحْتَ الْأَرْضِ . فَقَالَا لِي : أَيُّهَا الْعَاقِلُ ،
 أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ
 أَنْ يَنْجَاوِزَهُ . وَأَنَا أَخْبِرُ الْمَلِكَ بِذَلِكَ الَّذِي رَأَيْتُهُ : فَإِنْ أَمَرَ
 الْمَلِكُ أَتَيْتُهُ بِالْمَالِ فَأَوْدَعْتُهُ فِي خَزَائِنِهِ . فَقَالَ الْمَلِكُ
 ذَلِكَ لَكَ ، وَمَوْفَّرٌ عَلَيْكَ .

(انتهى باب ابن الملك وأصحابه)

• بَابُ الْحَمَامَةِ وَالثَّعْلَبِ وَمَالِكِ الْحَزِينِ

وَهُوَ بَابٌ مَنْ يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ . قَالَ الْمَلِكُ
 لِلْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا
 فِي شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ .
 قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ وَالثَّعْلَبِ وَمَالِكِ
 الْحَزِينِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا مَثَلُهُنَّ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ
 نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي السَّمَاءِ ، فَكَانَتْ الْحَمَامَةُ تَشْرَعُ فِي نَقْلِ
 الْعُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْقُلَ مَا تَنْقُلُ
 مِنَ الْعُشِّ وَتَجْعَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ :
 لِطُولِ النَّخْلَةِ وَسُخْفِهَا ، فَإِذَا فَرَّغَتْ مِنَ النَّقْلِ بَاضَتْ
 ثُمَّ حَضَنْتْ بَيْضَهَا ، فَإِذَا فَقَسَتْ وَأَذْرَكَ فِرَاحُهَا جَاءَهَا ثَعْلَبٌ
 قَدْ تَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهَا لَوْقَتٍ قَدْ عَلِمَهُ بِقَدْرِ مَا يَنْهَضُ فِرَاحُهَا ،
 فَيَقِفُ بِأَصْلِ النَّخْلَةِ فَيَصِيحُ بِهَا وَيَتَوَعَّدُهَا أَنْ يَرْقَى إِلَيْهَا
 فَتُلْقِي إِلَيْهِ فِرَاحُهَا . فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ أَذْرَكَ لَهَا فَرَخَانِ
 إِذْ أَقْبَلَ مَالِكُ الْحَزِينِ فَوَقَعَ عَلَى النَّخْلَةِ . فَلَمَّا رَأَى الْحَمَامَةُ
 كَيْبَةً حَزِينَةً شَدِيدَةً اهِمَّ قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ : يَا حَمَامَةُ ،
 مَا لِي أَرَاكَ كَاسِفَةَ اللَّوْنِ سَيِّئَةَ الْحَالِ ؟ فَقَالَتْ لَهُ : يَا مَالِكُ
 الْحَزِينِ ، إِنَّ ثَعْلَبًا دَهَيْتُ بِهِ كُلَّمَا كَانَ لِي فَرَخَانِ جَاءَنِي يَهْدِدُنِي
 وَيَصِيحُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ ، فَأَفْرُقُ مِنْهُ فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فَرَخَيَّ .
 قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ : إِذَا أَتَاكَ لِيَفْعَلَ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ :

لَا أُلْقِي إِلَيْكَ فَرْحِي ، فَارَقَ إِلَى وَغَرَّزَ بِنَفْسِكَ . فَإِذَا فَعَلْتَ
ذَلِكَ وَأَكَلْتَ فَرْحِي ، طَرْتُ عَنْكَ وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي . فَلَمَّا عَلِمَهَا
مَالِكُ الْحَزِينُ هَذِهِ الْحِيلَةَ طَارَ فَوْقَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ . فَأَقْبَلَ
الثَّعْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ ، فَوَقَفَ تَحْتَهَا ، ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ
يَفْعَلُ . فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلِمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ . فَقَالَ لَهَا
الثَّعْلَبُ : أَخْبِرِيْنِي مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : عَلَّمَنِي مَالِكُ
الْحَزِينُ . فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكًا الْحَزِينَ عَلَى شَاطِئِ
النَّهْرِ ، فَوَجَدَهُ وَاقِفًا . فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ : يَا مَالِكُ الْحَزِينُ :
إِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ عَنْ يَمِينِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟ قَالَ : عَنْ
شِمَالِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَيْتَكَ عَنْ شِمَالِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟
قَالَ : أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِينِي أَوْ خَلْفِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ فَأَيْنَ تَجْعَلُهُ ؟ قَالَ : أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحِي .
قَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحِكَ ؟ مَا أَرَاهُ يَتَهَيَّأُ لَكَ .
قَالَ : بَلَى : قَالَ : فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ فَلَعَمْرِي يَا مَعْشَرَ
الطَّيْرِ لَقَدْ فَضَّلَكُمْ اللَّهُ عَلَيْنَا . إِنَّكُنَّ تَدْرِينَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ

مَا تَدْرِي فِي سَنَةٍ ، وَتَبْلُغْنَ مَا لَا نَبْلُغُ ، وَتَدْخِلْنَ رُءُوسَكُنَّ تَحْتَ
 أَجْنِحَتِكُنَّ مِنْ الْبَرْدِ وَالرَّيْحِ . فَهَنِيئًا لَكُنَّ فَأَرِنِي كَيْفَ
 تَصْنَعُ . فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِهِ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّغْلَبُ
 مَكَانَهُ فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمْزَةً دَقَّتْ عُنُقَهُ . ثُمَّ قَالَ : يَا عَدُوَّ نَفْسِي ،
 تَرَى الرَّأْيَ لِلْحِمَامَةِ ، وَتَعْلَمُهَا الْحَيْلَةَ لِنَفْسِهَا ، وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ
 لِنَفْسِكَ ، حَتَّى يَسْتَمِكَ مِنْكَ عَدُوُّكَ ، ثُمَّ أَجْهَزَ عَلَيْهِ وَأَكَلَهُ .

فَلَمَّا انْتَهَى الْمَنْطِقُ لِلْمَلِكِ وَالْفَيْلَسُوفِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ
 سَكَتَ الْمَلِكُ . فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، عِشْتَ
 أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَلَكَتِ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ ، وَأُعْطِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 سَبَبًا ، مَعَ وَفُورِ سُورِكَ وَقُوَّةِ عَيْنِ رَعِيَّتِكَ بِكَ ، وَمُسَاعَدَةِ
 الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ لَكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَمُلَ فِيكَ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَزَكَ
 مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْقَوْلُ وَالنِّيَّةُ ، فَلَا يُوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ ،
 وَلَا فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ وَلَا عَيْبٌ . وَقَدْ جَمَعْتَ النِّجْدَةَ وَاللِّينَ ،
 فَلَا تُوجَدُ جَبَانًا عِنْدَ الْإِقَاءِ ، وَلَا ضَيِّقَ الصَّدْرِ عِنْدَ مَا يَنْوُبُكَ
 مِنَ الْأَشْيَاءِ . وَقَدْ جَمَعْتَ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ شَمْلَ بَيَانِ

الأمور ، وشرختُ لك جوابَ ما سألتني عنه منها ، فأبلغتُك
 في ذلك غايةَ نصحي ، واجتهدتُ فيه برأيي ونظري ومبلغ
 فطنتي ، التماساً لقضاءِ حقك وحسنِ النيةِ منك . بإغمالِ
 الفكرةِ والعقلِ . بخفاءِ كما وصفتُ لك من النصيحةِ والموعظةِ ،
 مع أنه ليس الأمرُ بالخيرِ بأُسعدَ من المطيعِ له فيه ،
 ولا الناصحُ بأولى بالنصيحةِ من المنصوح ، ولا المعلمُ للخيرِ
 بأُسعدَ من متعلمه منه . فافهم ذلك أيها الملك ، ولا حولَ
 ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم

(انتهت الطبعة السابعة عشرة)

١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببغداد
في يوم الأربعاء ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥
(١٠ من يونيو سنة ١٩٣٦) م

مدير المطبعة الأميرية

محمد أمين الجهمجي